سـيادة الله

ومسئوليـة الإنسان

بقلم: سامية أنسي عبد الملك

المحتويات: صفحة

مقدمة

١. في البدء

١. الخلق
٢. السقوط
٣. الوعد
٤. تفسير الأصحاحات الأولى من سفر التكوين

٢. المحدود في علاقة مع اللامحدود

١. معرفة الله
٢. سمو الله واختلافه عنا
أ. سرمدية الله
ب. عدم تغيّر الله
٣. قرب الله وعلاقته بنا

٣. سيادة الله ومسئولية الإنسان

١. سيادة الله
أ. سيادة الله في الطبيعة
ب. سيادة الله على الممالك والسلاطين
ت. سيادة الله في حياة البشر
ث. سيادة الله في الخلاص
ج. سيادة الله على "كل" شيء
٢. مسئولية الإنسان
أ. حرية الإرادة
ب. المسئولية
ت. المساءلة
٣. كيف يجمع الكتاب المقدس بين سيادة الله ومسئولية البشر؟
٤. كيف نتعامل مع الحقائق التي قد تظهر لنا متناقضة؟

٤. الألم وسيادة الله

١. ماذا تعلمنا كلمة الله بخصوص الألم؟
أ. علاقة الألم بالخطية والشر
ب. علاج الله لمشكلة الخطية والألم
ت. العناية الإلهية
ث. ألم الاضطهاد
ج. دروس من حياة أيوب
٢. علامات استفهام حول الألم – كيف نقيّم؟
أ. منظور الله للألم
ب. إمهال الله
ت. ماذا عن إنجيل الرخاء (إنجيل الصحة والثروة)؟
ث. المعجزات
ج. النعمة الكافية
ح. كيف يؤدي الألم لخيرنا؟

٣. كيف نواجه الألم؟
أ. الثقة في الله والخضوع لمشيئته
ب. تعزيات الكلمة والصلاة
ت. الصبر والمثابرة
ث. المشاركة والتكاتف في مواجهة الألم
ج. التطلع للأمجاد ونهاية كل ألم

٥. الصلاة وسيادة الله

١. فاعلية الصلاة
أ. الصلاة ووعود استجابتها
ب. ماذا عن ندم الله؟
ت. هل الصلاة تغيّر إرادة الله؟
٢. الصلاة المناسبة
أ. التعبد لله (التسبيح والحمد)
ب. الشكر
ت. الاعتراف
ث. الطلبة
ج. الصلاة من أجل الآخرين

٦. الإرشاد وسيادة الله

١. كيف أعرف إرادة الله لحياتي؟
٢. إرادة الله المعلنة في الكتاب المقدس
٣. إرشاد الله لنا في أمورنا الخاصة
٤. بعض نواحي التطبيق
أ. الزواج
ب. محل الإقامة
ت. العمل
ث. الخدمة

٧. الخلاص وسيادة الله

١. اعتراضات حول سيادة الله في الخلاص
٢. بعض القضايا المتعلقة بسيادة الله في الخلاص
أ. فساد الطبيعة البشرية وعجز الإنسان روحيا
ب. عمل نعمة الله في القلب
ت. تحقيق الخلاص في حياة الفرد
ث. عقيدة الاختيار
ج. حفظ الله لمختاريه
ح. مطلب العدل
٣. مسئولية الإنسان
أ. موقف الإنسان من خبر الإنجيل
ب. المثابرة في الحياة المسيحية
ت. الكرازة
٤. التطبيق الكتابي
٥. كلمة من الواقع عن سيادة الله في الخلاص

خاتمة

شواهد ومراجع

مقدمة

من السهل علينا أن نقرّ بسيادة الله ونتغنى بسلطانه المطلق، فنرنم: "سلطانه بلا حدود .. هو كلي القدرة، هو كلي الحكمة .. قدوس قدوس قدوس". كذلك لا يصعب علينا أن نقرأ آيات تؤكد سيادة الله الكاملة على الحياة وعلى الكون مثل: "الغنى والكرامة من لدنك وأنت تتسلط على الجميع وبيدك القوة والجبروت وبيدك تعظيم وتشديد الجميع" ١أخ٢٩:١٢.

ربما نتفق من الناحية النظرية في الفكر العام عن سيادة الله، لكن في الحقيقة هناك تساؤلات نطرحها تدل على أن موضوع سيادة الله يسبب لنا مشاكل في تفكيرنا، فنحن نتحيّر مما يحدث في العالم من شرور وآلام ونحاول أن نفهم ما هو موقف الله من ذلك؟ وهل حقا يحكم الله العالم الذي يبدو وكأنه خرج عن طوعه؟ ثم نواجَه بمشاكل تخص فاعلية الصلاة ونتساءل "إن كان الله سيدا على كل شيء فما هي فائدة الصلاة؟ وهل تغيّر الصلاة من إرادة الله؟" كذلك عندما نصل إلى مفترق طرق نجد أنفسنا منشغلين بسيادة الله ونطلب أن يكشف الله لنا خطته لحياتنا. بالإضافة إلى ما سبق، هناك الأسئلة التقليدية في هذا المجال مثل: "إذا كان الله صاحب سلطان مطلق فكيف يسائل الإنسان عن تصرفاته؟ وما فائدة الكرازة لو كان الله سيأتي بمختاريه إليه على أي حال؟"

أسئلة كثيرة نفكر فيها ونتصارع معها، وأحيانا ينتهي الأمر بنا إلى تفسير الأمور بطريقة لا تتفق تماما مع ما يعلنه الكتاب المقدس بجملته في موضوع ما. لا أنكر أن هذه المواضيع صعبة، ولا أدعي أن لدي كل الأجوبة، لكن أرجو بنعمة الله أن تؤدي قراءة هذا الكتاب إلى الاقتناع بأنه يمكن معالجة هذه الأمور ونحن متمسّكون بكل ما تعلنه الكلمة المقدسة بدون استقطاب حول تعليم على حساب آخر، وأن نجد التطبيق المناسب للتعليم بما تمليه كلمة الله، مصلية أن يؤول هذا إلى شركة أعمق مع إلهنا، وإلى نمونا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح.

لمعالجة نوعية الأسئلة السابقة، من المهم أن نبلور في عقولنا وقناعاتنا نظرة شاملة عن العالم مبنية على الكتاب المقدس؛ من ثَمَّ كتبت فصلا يقدم نظرة عامة عن الكتاب المقدس، بهدف أن يساهم ذلك في تكوين نظرة كتابية عن العالم. وبعد التفكير في الأمر والأخذ بالنصح من الآخرين، تركت ذلك الجزء ليكون كتابا آخر، أرجو أن أنتهي منه في وقت ليس ببعيد، لكنني أدرج منه جزءا صغيرا عن البداءات في هذا الكتاب – فصل "في البدء" – وذلك لأن الأصحاحات الأولى من سفر التكوين تعطينا أساسيات مهمة للموضوع ككل، وتساعدنا في تقييمنا لموضوع الألم بصفة خاصة، كما أنها تشكّل خلفية مهمة لموضوع سيادة الله في الخلاص.

أمر آخر يساعدنا في التقييم هو أن نقدر محدوديتنا واختلافنا الكبير عن الله غير المحدود؛ وسننظر إلى هذه القضية في فصل "المحدود في علاقة مع اللامحدود". بعد ذلك أعرض تعليم الكتاب عن سيادة الله ومسئولية الإنسان في فصل "سيادة الله ومسئولية الإنسان"، ثم نتجه إلى مواضيع تطبيقية حيث أخص الحديث في أربعة جوانب وعلاقتهم بسيادة الله، وهم: الألم، والصلاة، والإرشاد، وتحقيق الخلاص في حياة الأفراد.

أفترض في كتابتي لهذا الكتاب أن القراء مؤمنون يقرّون بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله، وكله موحى به من الله، ومعصوم من الخطأ؛ ولذا فهو المرجع النهائي لنا. لا يقدم هذا الكتاب وجهات النظر المختلفة حول المواضيع التي نحن بصددها، وإنما يعبر عن قناعاتي وفهمي للكتاب المقدس.

لقد وجدت الأفكار التي أتعرض لها في هذا الكتاب صعبة ومعقدة للغاية، وكنت أصلي وأنا أكتب، طالبةً إرشاد روح الله القدوس؛ وأشكر الرب الذي ساعدني لأكمل هذا العمل. وبينما أدرك أن كثيرين من المؤمنين بحثوا في كلمة الرب بخصوص هذه المواضيع، أعتقد شخصيا أنه يوجد كم قليل من الكتب، باللغة العربية، الذي يساعد على فهم وتوضيح الحقائق الكتابية المتعلقة بسيادة الله.

إلى جانب الكتاب المقدس (المرجع والمعلم النهائي)، أعترف بالفضل الكبير للكتّاب والرعاة الذين قرأت كتبهم على مَرِّ السنين وتعلمت منهم الكثير. أقدم أيضا تقديري وشكري لمن عضدوني بالمساندة والتشجيع والنصح، وأخص بالذكر أخي سمير، الذي صبر معي كثيرا، وقام بعدة مراجعات، وقدم لي توجيهات قيمة أدرجتها فيما كتبت. كذلك أتقدم بالشكر والتقدير إلى جناب الدكتور القس جورج شاكر

لمراجعته المسودة الأخيرة وإمدادي بملاحظات ثمينة أخذت بها في التعديل النهائي. أشكر أيضا أفراد أسرتي الذين ساندوني بطرق شتى، وأتاحوا الوقت لي للبحث والكتابة.

أصلي أن يتمجد الله بما مكّنني من كتابته، له المجد والإكرام إلى أبد الآبدين. آمين.

سامية أنسي عبد الملك

١ في البدء

١. الخلق

يبدأ الكتاب المقدس بالخلق[١]، فيعلن لنا عن الله الخالق، الذي خلق الكل من عدم: "في البدء خلق الله السماوات والأرض" تك١:١. خلق الله "كل" شيء في الوجود؛ "فإنه فيه (في الابن الحبيب) خُلق الكل ما في السماوات وما على الأرض ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشا أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل به وله قد خلق" كو١:١٦. وفيما عدا الله الذي هو ذاتي الوجود فكل شيء مخلوق.

خلق الله أولا محيطا ومناخا مناسبين، ثم خلق الإنسان تاجا للخليقة وزوّده بكل ضروريات الحياة. يدوّن الوحي في الأصحاح الأول من سفر التكوين لمحة من مشورة الله الأزلية إذ نسمع حديثا خاصا بين الثالوث الأقدس عن خلق الإنسان، فنقرأ : "قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" تك١:٢٦، وإن كانت عقيدة الثالوث غير مذكورة صراحة لكننا نجد تلميحا لها في هذا الجزء. لقد خلق الله الإنسان على صورته ليعكس مجده وقداسته؛ وهذا امتياز عظيم يَظهر فيه جود الله وسخاؤه إذ أعطى الإنسان هذه المكانة الرفيعة والقيمة الكبيرة، مكللا إياه بالمجد والبهاء. لا يُفهم من هذا أن الله له جسد مثلنا، فالله روح، لكن الإنسان لكونه على صورة الله، فإنه يتميز بصفات الشخصية التي لا يتمتع بها باقي الخلائق.

منح الله الإنسان قوى عقلية تعطيه القدرة على التفكير والإبداع والتمييز والاختيار، كما ميّزه بطبيعة روحية تمكنه من العلاقة مع الله، ليعرفه ويعي وُجودَه ويحبه ويعبده ويتواصل معه ويتمتع به ويجد شبعه فيه. كذلك خلق الله الإنسان كائنا اجتماعيا، وأمد آدم بشريكة حياة - معينا نظيره. إن علاقة المحبة في هذه الوحدة بين الرجل والمرأة، كما في العلاقات مع بعضنا البعض، هي من صورة الله في البشر، فالله محبة، والمحبة في نقائها وكمالها هي المتواجدة بين أقانيم الثالوث الأقدس. مما يميز الإنسان أيضا أن الله خلقه كائنا أخلاقيا وأعطاه الإرادة الحرة والضمير. لقد مُنح الإنسان كل ما هو لازم ليستطيع أن يعيش حياة مثمرة مقدسة مرضية وممجِدة لله، وهو مسئول عن كل تصرفاته أمام الله.

أكمل الله عمل الخلق واستراح من عمله خالقاً، أي انتهى منه ونظر إليه بالسرور والرضا. كل ما عمله الله هو "حسن جدا". ومازال الله يعمل في حفظ العالم والعناية به؛ وتعتمد كل الأشياء في وجودها عليه[٢].

الأصحاحات الأولى من سفر التكوين مركزة ومختصرة جدا. نحن لا نعرف كثيرا عن حياة آدم وحواء قبل السقوط، لكن المؤكد أنهما كانا يتمتعان بالعيش في محضر الله، مظهرين إيمانا بصلاحه ومحبة لشخصه وخضوعا لسلطانه؛ وكان الله يتواصل معهم، فباركهم وكلمهم وعلمهم وأمرهم أن يثمروا ويكثروا ويملأوا الأرض ويخضعوها، وأعطاهم سلطانا على كل ما فيها، كما عهد إليهم مسئولية العناية بها والمحافظة عليها.

أوصى الله الإنسان أن يأكل من كل شجر الجنة ما عدا شجرة معرفة الخير والشر، وعرّفه نتيجة العصيان إذا تعدّى الوصية: إذا عصى الإنسان الله فموتا يموت[٣]. كانت حياة البر الكاملة هي أساس الحياة الأبدية للبشر؛ ومع الطاعة كان أبوانا آدم وحواء يتمتعان بالحرية الحقيقية في شركة مع الله والحياة في محضره.

بالرغم من أن كلمة "عهد" لم تذكر صراحة عن علاقة الله بآدم وحواء، يعتبر كثيرون من علماء الكتاب أن مقومات العهد موجودة في الأصحاحات الأولى من سفر التكوين، فقد حدد الله بسيادته العلاقة بينه وبين الإنسان على أساس وعدٍ ووصية؛ كان وعد الحياة مشروطا بحفظ الوصية والطاعة الكاملة، وكان عقاب العصيان هو الموت. يُستدل على فكرة العهد أيضا من الآية: "ولكنهم كآدم تعدوا العهد هناك غدروا بي"هو٦:٧. يُطلق على هذا العهد عهد الأعمال[٤]، وهو عهد قطعه الله مع آدم بصفة آدم الشخصية عن نفسه، وكذلك بصفته النيابية عن كل البشرية التي ترتبط به وتتحد معه بالتناسل الطبيعي[٥]. ومع أهمية العمل في هذا العهد، إلا أن علاقة الله بالإنسان تعتمد دائما على تنازل الله ونعمته بأن يمنح الإنسان أن يكون في شركة مع جلاله ويتمتع بمواعيده؛ كما أن طاعة الوصية هي مؤشر على الإيمان بالوعد.

كان آدم يعيش في الجنة في توافق مع خالقه متمتعا ببركته والشركة معه، وفي توافق مع المرأة التي أعطاها الله له، وأيضا الخليقة المحيطة به؛ وكان الإنسان يتمتع بالسلام في داخله. لكن هل يوجد هذا التوافق

في عالمنا اليوم؟ هل كل شيء حسن؟ بالتأكيد سنتفق أن هناك الكثير لا يُمدح، وليس الكل على ما يرام! ماذا حدث إذن؟

بلا شك هناك أشياء حسنة كثيرة؛ نحن نرى الجمال والعظمة والإبداع في أعمال الله، كما أننا نتابع تفوق الإنسان وإنجازاته في مجالات كثيرة. لكن هناك أيضا الكثير من الألم والتعب والشر والفساد. هذه المتناقضات نجدها في الخليقة وفي الإنسان نفسه، وهذا ينقلنا إلى الحقيقة الثانية وهي سقوط الإنسان في الخطية.

٢. السقوط

قبل أن نتكلم عن السقوط، نتطرق للشر الذي ذكر لأول مرة في الكتاب - في الأصحاح الثالث من سفر التكوين - حيث نجد أمامنا "الحية" التي خدعت المرأة بمكرها[٦]. يشير الكتاب المقدس إلى الشيطان بالحية؛ وفي حادثة السقوط، كانت الحية أداة استخدمها الشيطان بهدف تدمير الإنسان. كل ما خرج من الحية من كذب وافتراء وإغراء هو من سمات الشيطان، الذي يوصف بأنه الشرير، وهو الكذاب وأبو الكذاب[٧]. تفيد بعض آيات الكتاب المقدس أن الشيطان هو من الملائكة الذين سقطوا. أتوقف قليلا عند هذه النقطة في الفقرة التالية، ثم نتابع موضوع سقوط الإنسان.

خلق الله الملائكة في حالة القداسة، لكن بعضهم أخطأوا وسقطوا. يخبرنا الكتاب المقدس عن ملائكة مختارين قدّيسين ينظرون وجه الله دائما[٨]، وعن ملائكة ساقطين، وعلى رأسهم إبليس[٩]: "الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا" ٢بط ٢:٤؛ ويوصفون أيضا بأنهم "الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم" يهوذا ٦. ليس لدينا تفاصيل عن سقوط هؤلاء الملائكة، وربما رغبوا في الارتفاع الذي أدى إلى تمردهم على سلطان الله؛ ولا يعطينا الكتاب سببا لسماح الله بهذا السقوط، ولا يفسر لنا ما جعلهم يتجهون نحو الشر. الأمر ليس معلنا لنا، ولا بد أن لله حكمة في عدم إخبارنا بهذه الأمور. وإن كنا لا نعرف الكثير عن أصل وبداية الشر، لكننا نعلم يقينا أن إبليس وملائكته سيطرحون في النار الأبدية المعدة لهم، وسيقهرون نهائيا[١٠]. أما بالنسبة للبشر فآدم لم يعرف الشر اختباريا إلا عندما سقط؛ وفي هذا أيضا يصمت الكتاب عن سبب سماح الله بالسقوط، وعما جعل آدم وحواء يختاران العصيان. هناك بعض الأفكار التي طرحت عن أسباب سماح الله بالسقوط، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم في هذا الشأن لأنه لا يوجد إعلان صريح عنه.

كما تمرد الشيطان على سلطان الله، جاء إلى المرأة ليغويها مستخدما كذبه وحيلته ليشكّك الإنسان في صلاح الله، ويجعله يتمرد على وصاياه وعلى سيادته؛ وللأسف هذا ما حدث، فقد ذهب آدم وحواء وراء الكذب، وخانا العهد، وتمردا على الله. كان أبوانا يدركان تماما من الذي أوجدهما، ومن الذي يجب أن يسمعا له، ولمن ينبغي أن يكون ولاؤهما؛ كذلك كانت عندهما القدرة على الاختيار الصائب إذا أرادا ذلك، لكنهما تجاوبا مع إغراء الشيطان ولم يحبا الله فوق كل شيء بل فعلا ما حسن في أعينهما، فأكلا من الشجرة المُنهى عنها وكسرا الوصية وسقطا في الخطية. إن إغراء الشيطان ليس مبررا للعصيان، بل قد أساء الإنسان الاختيار وتمرد على الله وسقط في الخطية بمحض إرادته. حاول آدم بعد السقوط أن يتملص من مسئوليته ويضع اللوم على الله وعلى حواء - "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني" - لكن كان لا بد أن يتحمل آدم نتيجة انصياعه لقول امرأته وعصيانه على الله، وأن تتحمل حواء مسئولية عصيانها، ولم ينفع إلقاء اللوم على الحية بشيء[١١].

الخطية في أساسها ليست مجرد كسر قانون، بل فيها إساءة وإهانة لشخص الله - واضع القانون – وفيها تعبير عن عدم الرضا بأحكامه، وعدم الخضوع لسلطته، وعدم التجاوب مع محبته بمبادلته المحبة الكاملة. إنها تُظهر رغبة المخلوق في أن يعيش مستقلا عن خالقه، ثائرا على سلطانه، مقررا لنفسه الخير والشر، ومحددا الطريق الذي يريد أن يسلكه دون اعتبار لله. والإساءة إلى الله تجلب معها غضبه وعقابه لأنه قدوس وأحكامه عادلة وصالحة. لذلك فبالعصيان وكسر الوصية جلب آدم الموت على نفسه وعلى كل البشرية التي هو رأسها وممثلها، وبسقوطه سقطت البشرية كلها، إذ فيه أخطأنا جميعا؛ "بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت للجميع إذ أخطأ الجميع" رو٥:١٢. هذا الموت شامل في معناه ويعبر عن الانفصال عن الله روحيا، كما يشمل الموت الجسدي في هذا العالم، والموت الأبدي في النهاية. لم يسقط آدم وحواء أمواتا في الحال، بل تأخر ذلك برحمة الله ونعمته، وأعلن الله عن عمل الفداء

في وعد ورموز، كما أعطى أبوينا فرصة للتوبة والإيمان؛ لكن ابتدأ الاضمحلال والفناء يعملان في الإنسان الساقط نحو موت محقق.

كان السقوط نقطة تعيسة للجنس البشري إذ سقط الإنسان من الرفعة والمجد إلى حالة من الفساد والتلوث بالخطية. اختلف آدم بعد السقوط في طبيعته وحريته، فقد شوهته الخطية، ولم يعد يعكس بر الله الصافي. فَقَدَ الإنسان الكمال الأول وحالة البراءة التي خُلق عليها، وفسدت الطبيعة الإنسانية إذ أثر السقوط على كل جزء في كيان الإنسان، فأظلم الفكر، واستُعبدت الإرادة، وتقلبت العواطف، وتأثّر الضمير، وحل الضعف بالجسد، وصار الإنسان البعيد عن الله تحت قبضة إبليس مستعبدا للخطية[١٢].

كل ذرية آدم تأثرت بهذا السقوط، فسد الأصل وفسدت فروعه. ليس معنى ذلك أن كل إنسان هو على أسوأ ما يكون، فهناك أعمال بطولة وتضحية وخير مدونة في التاريخ على مر العصور، لكن كل إنسان تأثر في كل كيانه، وليس من يوجد بالكمال الذي خلق عليه آدم. جميعنا يولد في حالة من الخطية إذ يولد الإنسان بطبيعة خاطئة تميل إلى الشر[١٣]، وهذه الطبيعة الخاطئة هي أصل كل الخطايا الفعلية التي تدنس حياة الإنسان، من أفكار ونوايا وأقوال وأفعال، "لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى فسق قتل سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل" مر٧:٢١-٢٢. ومع ذلك لم تُمحَ صورة الله في الإنسان[١٤]، ومازال يملك القوى التي ينفرد بها كإنسان مسئول من العقل والإرادة والضمير، ولم يفقد القدرة على التمييز والاختيار؛ إلا أنه لا يعكس الكمال والنقاء الأصليين.

إلى جانب ما سبق، حكم الله على المرأة بالتعب في الحبل والوجع في الولادة، وكنتيجة للسقوط فإن علاقتها برجلها التي كانت تتسم بالوفاق الكامل أصبح فيها التسلط والإحباط. أما الحكم على الرجل فكان بالشقاء في عمله إذ لعنت الأرض بسبب عصيان الإنسان ولم تعد طيعة له؛ لذلك يأكل الإنسان خبزه بعرق وجهه حتى يعود إلى الأرض التي أخذ منها. تراب وإلى تراب يعود. وكل ما حل بأبوينا من تعب وشقاء وقع أيضا علينا جميعا كجنس بشري.

انكسرت العلاقة بين الإنسان والله، وصار هناك فاصل بين المخلوق وخالقه، بين الإنسان العاصي والله القدوس؛ وطرده الله من الجنة، وأقام الرب "شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة" تك٣:٢٤، معلنا بذلك أنه لا يمكن للإنسان أن يعود إلى الجنة وإلى محضر الله بدون تدخل من الله بنعمته.

ليس الإنسان وحده الذي تأثر بنتائج السقوط لكن الخليقة كلها تأثرت به، فقد أخضع الله الخليقة للفساد والبطل نتيجة لخطية الإنسان[١٥]. ولو افترضنا جدلا أن الخطية لم تدخل العالم لما دخل الموت[١٦]، ولما عانينا مما صاحب السقوط من نتائج وخيمة. لقد تأثر الإنسان وكل ما يحيط به كعقاب وكنتيجة للخطية، وإذا أردنا أن نأخذ فكرة عن عالم بدون خطية، فعندنا لمحات من ذلك في أصحاح ٢١ من سفر الرؤيا، حيث لا حزن أو صراخ أو وجع فيما بعد.

عندما خلق الله الحية، خلقها كسائر الكائنات لخير الإنسان وخدمته؛ لكن بعدما صارت أداة في يد الشيطان لتدمير الإنسان، حكم الله عليها باللعنة والهوان، ووضع عداوة بينها وبين المرأة وبين نسلها ونسل المرأة. ولأن الحية كانت تمثل الشيطان، الذي كان يعمل من خلالها، لذلك ما وجّهه الله للحية كان موجّها للشيطان ذاته، كما سنرى فيما يلي:

٣. الوعد (تك٣:١٥)

في نفس قصة السقوط نجد أشعة رجاء لبني البشر تعلن عن رحمة الله وقلبه العطوف نحوهم، فقد تنازل الله وأتي إلى الإنسان المختبئ في عري وخجل وخوف؛ ناداه وتحدث معه وأراه خطأه وعرّفه عقابه، لكنه أيضا أعلن عن محبته ورحمته في أول إشارة إلى عمل الفداء، إذ قال للحية: "وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه" تك٣:١٥. هذا الوعد فيه إعلانٌ أن الله لن يترك الإنسان في يأسه وضياعه وعبوديته لإبليس، بل سيعطيه نصرة على الشيطان الذي أغراه وآذاه، وسيوفر الله بنعمته طريقا لخلاص الإنسان ورده للعلاقة مع جلاله.

رغم أن الوعد ذاته لم يفصح عن كيفية تحقيقه، لكننا نعرف من باقي الكتاب أن الحرب بين الشيطان والإنسانية حُسم أمرها بالوعد بنصرة نسل المرأة على الشيطان نفسه. في هذا الوعد إشارة إلى أن نسل

المرأة، ممثلا في المسيح (آدم الأخير)، سينتصر نصرة ساحقة على الشيطان. وقد انتصر الرب يسوع على إبليس بحياته البارة وبطاعته حتى الموت، موت الصليب، وكذا بقيامته وصعوده وتتويجه؛ "لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس" ١يو٣:٨.

من ناحية أخرى، ابتدأ العالم بعد السقوط ينقسم إلى مجموعتين: واحدة تضم المُخلَّصين الذين ينتقلون بالإيمان من سلطان الظلمة إلى ملكوت الله، والأخرى بها من يفضلون الظلمة ويحبونها لأن أعمالهم شريرة؛ ويستخدم إبليس أتباعه لمحاربة شعب الله. حاول الشيطان منذ القديم عرقلة عمل الفداء ومقاومة نسل المرأة الذي منه يأتي المسيح، لكن لا يمكن لإبليس أن يحبط مقاصد الله، بل حفظ الله شعبه وأبقى له بقية أمينة إلى أن جاء النسل الموعود به. وقد هزم المسيح الشيطان في كل جولاته معه، وذهب الرب يسوع بخطى ثابتة إلى الصليب، وقام من الأموات وتمم الفداء. وكما انتصر المسيح على الشيطان، فالنصرة هي أيضا للبشرية المفدية "وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعا" رو١٦:٢٠.

ظهرت أيضا رحمة الله ونعمته نحو الجنس البشري في أنه لم يفنه؛ بل مع عقاب الله للمرأة بالتعب في الحبل والولادة نرى نعمته في استمرارية الحياة بالتكاثر، وتعضيدها بالخبز والتغذية بالرغم من تعب الرجل وشقائه؛ وهذه أمور لازمة لتحقيق الوعد. من إحسان الرب أيضا أنه أمدّ آدم وحواء بأقمصة من جلد غطاءً لعريهما، ربما بإعطائهما تعليمات لذبح حيوان ليتمتعوا هم بالغطاء.

منذ إعطاء ذلك الوعد، والكتاب المقدس يعلن تحقيق الله خلاصه للبشرية في شخص ابنه يسوع المسيح وعمله الفدائي، ليردّ الإنسان إليه، ويرفعه من السقوط إلى الرفعة والمجد. إن مجيء المسيح وعمله الفدائي على الصليب هو مركز الكتاب المقدس بعهديه، فالعهد القديم ينظر أماما إليه ويشهد عنه ويعدّ له، والعهد الجديد يشهد التحقيق، ويشرح معنى الأحداث، ويعلمنا عمّا يتبع ذلك في حياة الكنيسة إلى أن يأتي المسيح في مجده وملكوته الأبدي.

أكتفي بهذا القدر عن البداءات، لكن قبل الانتقال من هذا الفصل أذكر شيئا عن الأصحاحات الأولى من سفر التكوين:

٤. تفسير الأصحاحات الأولى من سفر التكوين:

هناك نظريات مختلفة لتفسير هذه الأصحاحات بين المسيحيين المؤمنين بالرب يسوع وبسلطان الكتاب المقدس، وأعتقد أن لنا الحرية لنناقش ونقيّم ونختلف في الرأي في بعض الأمور التي لا يحسم فيها الكتاب المقدس، طالما لا يؤدي ذلك إلى إنكار سلطان الكلمة أو الوصول إلى أفكار تتعارض مع باقي الكتاب. إن الحق الذي في الكلمة المقدسة مطلق، ثابت إلى الأبد ولا يتغيّر، وإنما هناك دائما تنقيح وتغيير في النظريات العلمية، وكذلك في التفسير والفهم البشري لكلمة الله.

الأصحاحات الأولى من سفر التكوين تعطينا أساسيات مهمة يرتكز عليها التعليم في باقي الكتاب، ويجب أن لا نتشكك في الحقائق الأساسية، ولا سيما الآتي:

١. الله هو السيد العظيم الذي خلق كل الأشياء من عدم إذ قال فكان وأمر فصار.
٢. الله هو الملك المهيمن على الكل ويفعل كل شيء بحسب مسرة إرادته ولا شيء يخرج عن تحكمه.
٣. وضع الله قوانين طبيعية للكون، وكذا أعطى الإنسان العقل والإرادة والضمير، لكنه لم يترك العالم لشأنه بل هو يضبط كل ما فيه، حافظا إياه بقدرته وعنايته.
٤. خلق الله الإنسان على صورته؛ وآدم وحواء شخصيتان تاريخيتان، ويرجع أصل كل البشر إلى هذين الأبوين. كذلك فإن سقوط الإنسان في الخطية حدث تاريخي هوى بالبشرية وغيّر من أشياء كثيرة. هذه الحقائق مفترضة في الكتاب المقدس؛ فعلى سبيل المثال هناك مقابلة ومماثلة بين آدم الأول الذي به دخلت الخطية إلى العالم وفيه يموت الجميع، وآدم الأخير الذي عاش حياة البر وبإطاعته يُجعَل الكثيرون أبرارا[١٧]، ولا تكون المقابلة والمماثلة ذات معنى ما لم يكن آدم شخصية تاريخية على رأس البشرية.
٥. أعطى الله الإنسان حرية الاختيار، لكنها ليست حرية مطلقة، ولا يمكن أن تخرج عن سيادة الله. ومع الحرية والقدرة على اتخاذ القرار تقع على الإنسان مسئولية أخلاقية. الإنسان في وضعه كمخلوق عليه واجب نحو خالقه، أن يخضع له ويطيع وصاياه، وهناك تبعيات للعصيان لا يستطيع الإنسان أن يتجنبها وإن حاول تجاهلها.

٢

المحدود في علاقة مع اللامحدود

١. معرفة الله

الإنسان – في كنهه وقدراته ومقامه وكل شيء آخر - صغير للغاية بالنسبة لله، ولا تستطيع اللغة مهما بلغت أن تعبر بدقة عن هذه الحقيقة. ليس ذلك فقط، لكن الله يختلف عنا بدرجة كبيرة جدا؛ وحتى مع انفراد الجنس البشري بصفات مميزة لكونه خُلق على شبه الله، فهذا لا يلغي الفرق الهائل بيننا وبينه؛ وكما علت السماوات عن الأرض هكذا علت طرقه عن طرقنا وأفكاره عن أفكارنا[١]. والسؤال الذي يداهمنا هو "كيف يمكن للإنسان المحدود أن يصل إلى معرفة الله غير المحدود؟" الإنسان في محدوديته وصغره لا يستطيع أن يصل إلى معرفة الله من تلقاء ذاته؛ هذا بالإضافة إلى أن الخطية أظلمت فكرالإنسان وتعيقه عن أن يعرف الله. من ثم تعتمد معرفتنا لله على تنازله وإعلانه عن ذاته للبشر.

الإعلان العام

أعلن الله عن شخصه وأعماله بطرق مختلفة، فالطبيعة وأعمال العناية تعلن عن الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها. السماوات تحدث بمجده والفلك يخبر بعمل يديه. وفي كل العصور ولجميع الأجيال لم يترك الله نفسه بلا شاهد، فجوده وخيره وعنايته بالبشر تشهد عنه، وهو يعطيهم أمطارا وأزمنة مثمرة، ويملأ قلوبهم طعاما وسرورا[٢]. وقد أعطى الله الإنسان معرفة داخلية، في وعيه وضميره، لكي يفهم ما تعلنه أعمال الله عن شخصه، "إذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله أظهرها لهم. لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى إنهم بلا عذر" رو١:١٩-٢٠.

كذلك فالضمير يجعل عند الإنسان وعيا داخليا أخلاقيا عما يرضي الله، "لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم، الذين يظهرون عمل الناموس مكتوبا في قلوبهم شاهدا أيضا ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة" رو٢:١٤-١٥.

هذا الإعلان العام - في الطبيعة وفي الضمير - لا يعطي المعرفة الخاصة عن الإله المثلث الأقانيم، وعن عمل الفداء الذي تمّمه المسيح، وعمل الروح القدس الذي يعمله في المؤمنين، ولا يعطينا التعاليم والعقائد المتعلقة بالخلاص. هذا لا يعني أن الإعلان العام عديم القيمة، فالرهبة والعظمة الموجودة في الطبيعة تعطي الإنسان بعض الوعي الديني، كما أن الضمير يعطيه وعيا أخلاقيا للتمييز بين الصواب والخطأ. بهذا الإعلان العام تظهر بعض المعرفة عن الله لكل إنسان، لكن بسبب الخطية والفساد والتكبر يسيء الناس فهم هذا الإعلان، أو يتجاهلونه. هناك من عبدوا الطبيعة ومن اعتبروها عدوّا لهم، وآخرون فسروها على أنها وليدة الصدفة وأنكروا وجود الخالق. تقول الكلمة المقدسة أن الناس "لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي .. واستبدلوا حق الله بالكذب. واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق" رو١:٢١، ٢٥. كذلك فالإنسان في تمرده كثيرا ما يُسكِت صوت ضميره أو يتجاهله.

الإعلان الخاص

لم يترك الله البشر لنور الطبيعة وأعمال العناية، بل باركهم بالإعلان الفائق إذ كلمهم من السماء بكلمات الوحي المقدس[٣]. "الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه" عب١:١. أعلن الله عن شخصه وعمله الخلاصي لفداء البشر في الكلمة المقدسة التي دوّنها لنا أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس[٤]. وقد تجلت ذروة الإعلان في ابن الله الوحيد، بهاء مجده ورسم جوهره، الكلمة الأزلي الذي كان دائما مع الآب، وليس غيره رأى الآب ويعرف الآب[٥]. "والكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده مجدا كما لوحيد من الآب مملوءا نعمة وحقا .. الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الاب هو خبَّر" يو١:١٤، ١٨.

جاء الرب يسوع من عند الآب ليحقق فداء البشر وليرد الإنسان الخاطيء إلى الله، ليعرفه معرفة خلاصية ويقترب إليه في علاقة اختبارية. إن عمل الفداء على الصليب يعلن مجد الله الفائق إذ تجلت صفات الله في هذا الحدث الواحد بطريقة فريدة، ففي الصليب تظهر قداسة الله وطهره في عدم التهاون مع الخطية، وفي الصليب تظهر عدالة الله وبره في إدانة الخطية، وفي الصليب تظهر محبة الله ورحمته لنا في موت ابنه الحبيب بدلا عنا. في الصليب تظهر حكمة الله العظيمة في الطريقة التي بها عالج مشكلة الخطية، وفي القيامة تظهر قوته الفائقة إذ أقام يسوع من الأموات.

خطة الله للخلاص بالصليب هي خطة عجيبة لا تفهمها الحكمة الإنسانية. الإنسان الطبيعي لا يرى الحكمة في رسالة الصليب، "لأن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله" ١كو١:١٨. لم يستطع "حكماء العالم" أن يفهموا ما عمله الله في المسيح على صليب الجلجثة، فهم عميان روحيا، ولم يروا في الصليب غير أنه "جهالة"، بل وصنعوا لأنفسهم آلهة تتناسب مع حكمتهم البشرية، وذهبوا وراء الأباطيل. من ذلك الوقت وإلى عصرنا هذا، كثيرون من غير المؤمنين يسخرون من الصليب ويستخفون به، فهم لا يستطيعون استيعاب أن رباً وملكا عظيما يمكن أن يعلق على صليب العار.

لقد قرر الله في حكمته أن تكون معرفته المعرفة الخلاصية، التي تتناغم مع شخصه وصفاته، عن طريقٍ يختلف تماما عن حكمة العالم وعن كل التوقعات البشرية. الله سُرَّ بأن يخلّص المؤمنين بالمسيح المصلّوب، "لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة" ١كو١:٢١.

لكن الإنسان يحتاج للإنارة ليفهم الروحيات ويصل إلى معرفة الحق. والله هو الذي يعطي الإنارة بنعمته، فروحه القدوس ينير ظلام الفكر والقلب والضمير، ويفتح الأذهان لفهم الكلمة المقدسة لنعرف الله معرفة حقيقية بالإيمان بالمسيح يسوع. هذه المعرفة أساسية للخلاص، كما قال الرب "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" يو١٧:٣. ومن خلال الإعلان الخاص، وبمعونة الروح القدس، نستطيع أن نفهم الإعلان العام أيضا ونفسّره بطريقة صحيحة.

ومع ذلك فمعرفتنا بالله محدودة على قدر ما يستوعب عقلنا المحدود، وبما يتناسب مع اختبارنا البشري. نحن لا نستطيع أن ندرك أعماق الله، أو نفهم كل أمر يخصه. وقد أعلن الله بحسب حكمته ما يريد أن يعلنه لنا، بما يتناسب مع محدوديتنا: "السرائر للرب إلهنا والمعلنات لنا ولبنينا إلى الأبد" تث٢٩:٢٩. في الواقع إن لغتنا قاصرة وفهمنا قاصر؛ وقد استعمل العلماء كلمات النفي للتعبير عن بعض صفات الله مثل "لا محدود" أو "غير محدود"، و"عديم التغيّر". كذلك استعملوا كلمة "كليّ" للتعبير عن صفات أخرى مثل "كليّ العلم" و"كليّ القدرة". إن شرح صفات الله بهذه الطرق يعطينا فكرة عن كمال الله وعدم محدوديته، إلا أنها لا تجعلنا نُلِمُ بكل شيء عن الحقيقة كما هي. إن معرفة الله الكاملة الشاملة غير ممكنة لنا نحن المحدودين، لكنها موجودة فقط بين الثالوث الأقدس: الآب يعرف الابن معرفة كاملة، والابن يعرف الآب معرفة كاملة. "ليس أحد يعرف الابن إلا الآب. ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له" مت١١:٢٧. كذلك الروح يعرف أعماق الله، "أمور الله لا يعرفها أحد إلا روح الله" ١كو٢:١١. لكن وإن كانت معرفتنا بالله جزئية، فما أعلنه الرب لنا يعطينا معرفة "حقيقية"، تمثل الحق عن شخص الله. "ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق. ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية" ١يو٥:٢٠.

معرفة الله واسعة وبلا حدود؛ ونحن ننمو تدريجيا في هذه المعرفة، لكن ستظل معرفتنا بالله دائما محدودة، حتى في السماء. لن نعرف الله بطريقة تشمل كل ملئه. المحدود لا يستطيع أن يدرك تماما غير المحدود. إلا أننا في السماء سنعرف الله بطريقة أعمق وأروع. لن نكون عرضة للفهم الخاطيء أو المعرفة المشوهة، وسنستمر في الازدياد في معرفة الله والتلذذ به في كل الأبدية[٦].

"يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيرا أو من سبق فأعطاه فيكافأ" رو١١:٣٣-٣٥.

٢. سمو الله واختلافه عنا

الله مختلف عنّا، ليس كما نختلف نحن عن بعضنا البعض، لكنه يختلف بطريقة خاصة؛ هو في جانب وكل شيء في الوجود في جانب آخر. إنه الله لا إنسان، القدوس في وسط شعبه، ساكن في نور لا يدنى منه، وليس لعظمته استقصاء[٧]. هو كبير وعالٍ بطريقة تفوق كل تفكيرنا وتصوراتنا وتوقعاتنا، ونحن صغار جدا بالنسبة له. وإن لم يكن هذا واضحا في تفكيرنا ومأخوذا في اعتبارنا عند تقييمنا لمواضيع البحث، ستتعقد الأمور ويختل التوازن في نظرتنا ومفاهيمنا، وقد نصل إلى منطقٍ بشري متعارض مع تعليم الكتاب.

هناك صفات تخص الله وحده، فهو الخالق العظيم ولا يعتمد على خلائقه في شيء. هو وحده ذاتي الوجود، "الكائن والذي كان والذي يأتي"، "أهيه الذي أهيه"، ووجوده لا يخضع لأي تغيير أو محدودية. أما نحن فإننا خليقته ووجودنا مستمد منه ويعتمد تماما عليه، كما أننا محدودون بالزمان والمكان ولا نستطيع أن نعمل أو نفكر إلا في إطار هذا الوجود المحدود. إن حياتنا قصيرة، وأيامنا كالعشب تزول سريعا، أما الرب فهو هو وسنوه لن تنتهي[٨].

بالنسبة للصفات التي يتمتع بها الإنسان لكونه خُلق على صورة الله، فهي توجد في البشر بمحدودية كبيرة، لكن كمالها يوجد في الله وحده. فالله كامل في جميع فضائله، في علمه ومعرفته، في حكمته وفطنته، في قدرته وقوته، في صلاحه وعدله، في محبته ورحمته .. كل فضائله كاملة ومطلقة.

أركز الحديث هنا على وجهَي اختلاف بين الله وبيننا: الأول، أن الله سرمدي ونحن محدودون بالزمان، والثاني مرتبط بالأول وبكل كمالات الله، وهو أن الله عديم التغيّر بينما نتغيّر نحن في كل لحظة من الزمان. بعد ذلك نعتبر قرب الله منا وتعامله معنا في الزمان.

أ. سرمدية الله

يقول الكتاب "ودعا (إبراهيم) هناك باسم الرب الإله السرمدي" تك٢١:٣٣. من الكلمات المستخدمة في الإنجليزية للتعبير عن سرمدية الله "eternal" و"everlasting". وتستعمل الكلمتان "أزلي أبدي" معا للتعبير عن سرمدية الله. إنه بلا بداية ولا نهاية – "وحده له عدم الموت" ١تيمو٦:١٦.

معنى أن الله سرمدي هو أنه دائما واجب الوجود، وفي وجوده الذاتي هو غير محدود بالزمان، ولا يتأثر إطلاقا بمرور الوقت، فالله كامل ولا يتغيّر. إنه موجود قبل أن يُخلق العالم وقبل أن يوجد زمان "من قبل أن تولد الجبال أو أبدأت الأرض والمسكونة منذ الأزل إلى الأبد أنت الله" مز٩٠:٢.

عندما يحدثنا الكتاب المقدس عن هذه الأمور يستخدم اللغة التي نفهمها وندركها نحن. نلاحظ أن كلمة "قبل" في الآية السابقة تتعلق بالزمان الذي يتسم بالتتابع، كما أن الكلمتين "أزلي" و"أبدي" تعرّفان عادة بطريقة تتصل بالزمان، فكلمة "أزلي" معناها الوجود "قبل" كل شيء، وكلمة "أبدي" معناها الوجود "إلى" ما لا نهاية. تعريفنا هذا يرتبط بالزمان الذي يحدنا، ولا نستطيع أن نفعل غير ذلك! وبسبب هذه المحدودية قد يلتبس علينا الأمر ونحن نحاول فهم سرمدية الله، فنربطها بزمن لا نهائي، أو قد يتأثر التفكير بقصور إدراكنا، ونظن – ربما بدون قصد – أن الله يخضع لمحدودية تشابه واقعنا، فعلى سبيل المثال عندما نتحدث عن علم الله السابق قد نتصور أن الله يعيش في الحاضر مثلنا مع علمه بكل ما سيأتي. لكن كلمة "سابق" تتعلق بالزمان الذي يحدنا نحن.

هناك اختلاف جوهري بين وجود الله غير المحدود ووجودنا المحدود بالمكان والزمان؛ نحن نعيش في بقعة معينة ونسير في خطى متوالية محكومة بالزمان، أما الله فهو غير محدود بمكان، كما أنه يسمو الزمان وكل حدود وقتية. في الواقع لا نستطيع نحن الوصول إلى تعريف كامل لسرمدية الله إذ ليس لنا إدراك بما هو غير محدود بالزمان.

الله في حكمته أوجد الزمان، ويتعامل معنا في الزمان، ويحكم تتابع الأحداث فيه؛ لكن الله لا يتأثر بهذا التتابع. إنه يرى كل الأحداث معا، ودائما، وبوضوح تام؛ فالحدث القديم في الزمن المتتابع هو بالنسبة لله كالحدث في الحاضر أو المستقبل، كما تفيد الآية، "لكن لا يَخفَ عليكم هذا الشيء الواحد أيها الأحباء أن يوما واحدا عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد" ٢بط٣:٨. أما بالنسبة لنا فقد نذكر شيئا من الماضي، وربما ننسى الماضي البعيد، والمستقبل نحن لا نعرفه؛ وما لدينا، ونعيش فيه، فهو الحاضر ومعه المسئولية لنستثمره لمجد الله.

ب. عدم تغيّر الله

يختلف الله عنا تماما في أنه عديم التغيّر؛ "أنا الله لا أتغيّر" ملا٣:٦. هو ما هو عليه دائما وأبدا، لا يتغيّر بتاتا في وجوده وجوهره، في صفاته وفضائله، وفي مقاصده ومواعيده[٩]. "ليس عنده تغيير ولا ظل دوران" يع١:١٧. أما نحن فنتغيّر لحظيا. في أي لحظة من الزمان، نحن نعيش "في الحاضر"، ويرتبط بهذه اللحظة ماض سبقها، ومستقبل يليها. وفي اللحظة التالية، ما كان حاضراً يصبح ماضياً، وما كان مستقبلاً يصير حاضراً؛ ومع هذا التغيير المتلاحق يتغيّر الإنسان باستمرار. ليس الإنسان فقط دائم التغيّر لكن الخليقة كلها في تغيّر مستمر "هي تبيد .. وكلها كثوب تبلى، كرداء تغيّرهن فتتغيّر"، أما الرب فيقول عنه المرنم: "أنت تبقى .. أنت هو وسنوك لن تنتهي" مز١٠٢:٢٦-٢٧. (سأتطرق إلى الآيات التي تتكلم عن ندم الله في فصل الصلاة وسيادة الله).

يرجع عدم تغيّر الله إلى وجوده الذاتي السرمدي، ويرتبط بكماله التام والمطلق في جميع الجوانب. هو كامل وليس هناك أي مجال لأن يتغيّر للأفضل، لأنه لا يوجد أفضل. وليس من الوارد أن يقل الله عن كماله بأي طريقة. كذلك مقاصد الله لا تتغيّر، فعلمه بكل شيء في الوجود كامل وتام، وهو كلي الحكمة، وكلي الصلاح، وكامل في كل فضائله، لذلك فخطته سديدة وليس هناك ما يدعو للتغيير في قصده.

٣. قرب الله وعلاقته بنا

يعلن الكتاب المقدس لنا عن شخص الله ليس في سموه فقط، بل أيضا في قربه. ليس في علوه وارتفاعه فقط، بل أيضا في تنازله. ليس في سرمديته فقط، بل أيضا في تعامله معنا في الزمان. "لأنه هكذا قال العلي المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه. في الموضع المرتفع المقدس أسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح لأحيي روح المتواضعين ولأحيي قلب المنسحقين" إش٥٧:١٥.

الله قريب منا ويتفاعل معنا: "الرب قريب لكل الذين يدعونه الذين يدعونه بالحق" مز١٤٥:١٨. ذكّر موسى الشعب قبل أن يدخلوا أرض الموعد بهذا الشرف العظيم إذ قال: "لأنه أي شعب هو عظيم له آلهة قريبة منه كالرب إلهنا في كل أدعيتنا إليه" تث٤:٧. وعبّر الرسول بولس عن العلاقة الشخصية القريبة مع المسيح في أماكن كثيرة من رسائله، ولا سيما التخصيص في العبارة "أحبني وأسلم نفسه لأجلي" غل٢:٢٠.

لقد أعلن الله لنا عن ذاته كأب يحنو على أولاده ورب قريب من شعبه، يجعل مسكنه في وسطهم ويسير بينهم[١٠]، ولذلك فالطاعة لوصاياه ليست مجرد التزام بقوانين بل هي طاعة لشخصه، والعصيان هو عصيان عليه. إن علاقة الله الشخصية بشعبه واضحة من تعاملاته معهم بداءة من العهد القديم. كان آدم وحواء يتمتعان بالقرب من الله، يتحدث معهم ويعلمهم ويوجههم، وعندما عصى آدم على الله ناداه وأخبره بنتيجة عصيانه، ومع العقاب أنعم الله عليه بالرحمة. نرى قرب الله أيضا في علاقته مع إبراهيم الذي قال عنه "إبراهيم خليلي" إش٤١:٨، وقطع معه عهدا وأعطاه المواعيد، ثم مكّن الله نفس المواعيد لباقي الآباء. ترتكز علاقة الله بشعبه على وعد العهد الذي يؤكد محبته وارتباطه بهم، بأن يكون إلها لهم وهم يكونون له شعبا، وتتميز هذه العلاقة بالحب والرعاية والحماية والإرشاد والتوجيه والتهذيب. كل هذا معبَّر عنه في الكتاب المقدس بلغة مؤثرة وقوية. كثيرا ما شبّه الله علاقته بشعبه بعلاقة العريس بالعروس، وهي علاقة خاصة وديّة وحميمة. "وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" إش٦٢:٥.

تجلى قرب الله في تجسد الابن المبارك يسوع "ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا" مت١:٢٣، وبموته الكفاري عنا "قرّبنا" إلى الله، "فإن المسيح أيضا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا البار من أجل الأثمة لكي يقرّبنا إلى الله" ١بط٣:١٨. إن علاقتنا مع الله مبنية على شخص المسيح وما عمل من أجلنا على الصليب؛ وقد وعد الرب يسوع كل من يحبه ويطيعه بجلسات وولائم معه إذ قال "إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلا" يو١٤:٢٣. الآب والابن هما في علاقة قريبة مع المؤمنين بسكنى الروح القدس فيهم. إنه حضور حقيقي ومجيد.

من البركات العظيمة التي أنعم الله بها علينا في المسيح أنه جعلنا أبناء له، ولا نتوقع أن تكون علاقة الأب مع بنيه إلا علاقة شخصية وطيدة. هناك غمر من المحبة في قلب الآب نحونا، وهو يسكب هذه المحبة في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا، وينتظر الله من أبنائه أن يتجاوبوا معه بمحبة كاملة وأولوية تامة.

العلاقة مع الله أساسية في حياتنا الروحية؛ لكنها ليست علاقة بين نظيرين، فالله ليس له نظير، وبسبب الاختلاف الكبير بيننا وبين الله لا نستطيع نحن أن نستوعب كيف يرى الله الأمور من منظوره. لتوضيح هذا قليلا نأخذ مثالا من الأطفال الصغار بنسبتهم للكبار. إن عالم الطفل الصغير هو كل شيء بالنسبة له، وقد

تسبب مشكلة صغيرة انقلابا في عالمه، وقد نستغرب على تفاعل الطفل مع مشكلة تقابله، أو الإحباط الذي يصيبه من موقف بسيط. لكنه صغير، و"عالمه" أيضا صغير، وكل تفاعلاته تتناسب مع صغره. هذا الطفل الصغير لا يستطيع أن يفهم موقف الكبار من عالمه، وقد يبدو له أنهم لا يبالون بما يضايقه. نحن أيضا - لكن مع عظم الفارق بيننا وبين الله - صغار ونعيش في عالم صغير، ومدة إقامتنا في هذا العالم قصيرة جدا بالنسبة للأبدية، ومشاكلنا تأخذ حجما يتناسب معنا ومع عالمنا، وفي ظروف الألم خاصة نشعر أن زمن الضيق طويل بالنسبة لنا، ولا نقدر أن نعي كيف يرى الله كل ما يحدث. لكن هذا التوضيح به قصور شديد، فلا يجب أن نفكر في الله على أنه صورة مكبرة من الإنسان، فالله يرى كل الأمور والحقائق بطريقة مختلفة جدا عن الإنسان.

كذلك فعلاقتنا مع الله ليست مماثلة لعلاقاتنا نحن البشر مع بعضنا البعض حيث نتفاعل بطريقة ملموسة ومحسوسة ومباشرة. نحن لا نرى الله بالعيان، وعندما نتحدث إليه لا يجيبنا بنفس الطريقة التي نتوقعها من صديق بشري. ومع ذلك فالله يتفاعل معنا في علاقة تتم في واقعنا الزمني بطريقة تتناسب مع محدوديتنا وبما نستطيع نحن إدراكه، ويتواصل الله معنا عن طريق الكلمة المقدسة والصلوات، إذ يساعدنا الروح القدس على فهم الكلمة وتطبيقها، كما يعيننا ونحن نصلي.

من ناحية أخرى نحن نُحبَط في علاقاتنا مع الآخرين، ونشعر بالأذى عندما يخذلنا الأصدقاء بتصرفات جارحة أو عندما نكتشف عدم صدق أو عدم وفاء القريبين منا؛ وأكثر ما يضايق في التعاملات والعلاقات هو الأنانية والمنفعة الذاتية. هذه المشاكل ليست في الغير فقط لكن فينا أيضا، فكلنا بنا ضعفات. ليس كذلك الله، فهو الكامل وليس فيه أي نقص أو عيب، بل إن صفاته الكاملة تجعل العلاقة معه علاقة رائعة وجميلة؛ هو يحبنا محبة كاملة، ويحتملنا كأب حنون، ومقاصده دائما هي للخير الأعظم لنا.

تتميز الحياة المسيحية بالتواجد الدائم أمام الله. صحيح أن الله لا يُحدُّ بالمكان، والكل في محضره دائما سواء للبركة أو القصاص، لكن ما يتميز به أبناء الله هو إدراك الوجود في محضر أبيهم السماوي، والفرح بالخضوع لسلطانه، والرغبة في العيشة بالاستقامة بما يتناسب مع قداسته. إن العلاقة مع الله فيها شبع ليس مثله نظير في العالم: "أمامك شبع سرور. في يمينك نعم إلى الأبد" مز١٦:١١، والشركة معه ينتج عنها فرح مجيد لا ينطق به.

لكي ننمو في العلاقة مع الله ونتمتع بجلاله علينا أن نهتم بممارسة كل وسائط النعمة، ونصلي إلى الله ليمنحنا نعمة لنعرفه في القلب كما بالعقل، ونكون واعين بسكناه فينا وحضوره معنا، فنمتلئ سرورا وفرحا بالعيش أمام وجهه.

نشكر الرب أننا نحن المحدودين لنا امتياز الشركة مع إلهنا غير المحدود؛ وسنرى لاحقا في التطبيق كيف يساعدنا إدراك وتقدير اختلاف الله عنا على التعامل مع الحقائق التي تخص شخص الله وعمله في غير محدودية الزمان.

٣

سيادة الله ومسئولية الإنسان

معظمنا - إن لم يكن كلنا - يقر بأن الإنسان مسئول عن تصرفاته، كما أن الأغلبية تعترف بسيادة الله على كل شيء؛ لكن قد يبدو لنا أن سيادة الله ومسئولية الإنسان يتعارضان، ولا ندري كيف يمكن أن يتواجدا معا. سنبحث هذا الموضوع باعتبار النقط التالية:

- تعليم الكتاب المقدس عن سيادة الله
- تعليم الكتاب المقدس عن مسئولية الإنسان
- جمع الكتاب المقدس بين هاتين الحقيقتين
- كيف نتعامل مع الحقائق التي قد تظهر لنا متناقضة؟

١. سيادة الله:

تعني سيادة الله أنه ملك مطلق على كل خلائقه[١]، وأن كل شيء تحت تحكمه وسيطرته؛ "مملكته على الكل تسود" مز١٠٣: ١٩؛ وملكه هذا ثابت إلى الأبد لا يتغيّر. الله وحده له الحق في السيادة والهيمنة على كل شيء، فالعالم عالمه والخليقة خليقته؛ هي بإرادته كائنة وخلقت[٢].

"لك يا رب العظمة والجبروت والجلال والبهاء والمجد لأن لك كل ما في السماء والأرض. لك يا رب الملك وقد ارتفعت رأسا على الجميع" ١أخ٢٩: ١١.

كذلك فالله وحده هو الذي "يمكن" أن يسود لأنه يحكم العالم من منطلق صفاته وكمالاته؛ فالله غير محدود زمانيا أو مكانيا، وهو كلي الحكمة وكلي القدرة لا يعسر عليه أمر[٣]، كما أنه كلي العلم ومعرفته بكل شيء كاملة[٤]؛ لذلك فهو يحقق كل مشورته وقصده الأزلي بسيادة مطلقة.

كلمة "قصد" بنسبتها إلى الله أو بإضافة "ال" التعريف كما تذكر في الكتاب – مثلما جاء في ٢تي١: ٩ "بمقتضى القصد والنعمة" - تعبر عن أن الله له قصد (أو قضاء أو رأي) فيه عيّن منذ الأزل كل ما يحدث، وهو يحكم تحقيق هذا القصد زمنيا بحكمته الكاملة وسيادته المطلقة على كل شيء، ليؤول الكل لمجد اسمه. يعرّف أحد كتب علم اللاهوت النظامي قضاء الله بأنه "قصد الله الأزلي العديم التغيّر المقدس الحكيم المطلق وهو يشمل كل ما وقع وكل ما سيقع من الحوادث مع أسبابها وشروطها ومتعلقاتها ونتائجها وهو يجعلها محققة الحدوث لأن الله قَصَدَ أن تكون كذلك. وهو قضاء واحد أزلي فإذا ورد بصيغة الجمع (أي أقضية) كان ذلك من باب التوسع في الكلام"[٥].

يتمم الله قضاءه بطرق مختلفة إما بقدرته (وحدها) كما في الخلق الأصلي، أو باستخدام أسباب ثانوية. ولا فرق في كل الطرق من جهة تأكيد وقوع الأحداث ويقينية إتمامها[٦]. نحن لا نعرف ما وراء الحدث، كيف تم وما سيؤول إليه، ولا يستطيع عقلنا أن يستوعب كيف يتحكم الله في الأمور. يُطلَق تعبير "التدبير الإلهي" أو "العناية الإلهية" على تنفيذ الله لقصده بسيادة ضابطة. الله ليس إلها بعيدا عن الكون الذي خلقه، بل هو يحفظه ويتحكم في كل ما يجري فيه. إنه ضابط الكل، ويعتني بالكون كله، لكنه يعتني بأولاده بطريقة خاصة.

يعلن لنا الكتاب المقدس في مجمله وفي تفاصيله أن الله يسيّر العالم بسيادة كاملة، وأن كل شيء يتم حسب رأي مشيئته[٧]؛ ويُذكر قضاء الله صراحة في أجزاء مختلفة، مثل ما جاء في سفر إشعياء عن النبوة بتحطيم أشور: "قد حلف رب الجنود قائلا إنه كما قصدت يصير وكما نويت يثبت أن أحطم أشور في أرضي وأدوسه على جبالي فيزول عنهم نيره ويزول عن كتفهم حمله. هذا هو القضاء المقضي به على كل الأرض وهذه هي اليد الممدودة على كل الأمم. فإن رب الجنود قد قضى فمن يبطّل ويده هي الممدودة فمن يردها" إش١٤: ٢٤-٢٧.

يرتبط قضاء الله بحرية إرادته التي تتوافق دائما مع طبيعته المقدسة وجميع فضائله. ما قضى به الله هو بحسب مسرة مشيئته، "اذكروا الأوليات منذ القديم لأني أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي. مخبر منذ البدء بالأخير ومنذ القديم بما لم يفعل قائلا رأيي يقوم وأفعل كل مسرتي .. قد تكلمت فأجريه. قضيت فأفعله" إش٤٦: ٩-١١. إن مسرة مشيئة الله هي في قصده المتكامل الذي يشمل كل مشورته بالنسبة للعالم. هذه

المشورة صالحة تؤول لمجد الله وللخير الأعظم، ويتضمن قضاء الله سماحه بالسقوط وتدبيره للخلاص. الله وحده يعرف ويقرر أفضل شيء للبشرية في المحصلة النهائية لكل الأشياء، لكنه لا يُسَرُّ بالشر والخطية، وينبغي ألا نعتبرهما وما ينتج عنهما أمورا حسنة في حد ذاتها[8].

إن إرادة الله أكبر بكثير مما تستوعبه أذهاننا، ومعرفتنا بها تنحصر فيما أعلنه الله في كلمته المقدسة. أفاد علماء الكتاب أن كلمات "مشيئة الله" أو "إرادة الله" ترد بمعان مختلفة في الكتاب، وقد اعتمدوا في تصنيفهم على أصول الكلمات المستعملة وكذلك سياق الحديث: في بعض الأجزاء ترد "مشيئة الله" أو "إرادته" بمعنى ما قضى الله أن يتم، كما جاء في مز١١٥:٣ "إن إلهنا في السماء. كل ما شاء صنع"؛ ويطلق عليها "إرادة الله في قضائه" decretive will أو إرادة الله السائدة sovereign will. بصفة عامة هذه الإرادة غير معلنة لنا، وقد شاء الله أن يعلن أمورا منها في الكلمة المقدسة قبل حدوثها كما نرى في النبوات؛ ومع مرور الأحداث نحن نرى ونعيش ما قضى الرب به.

في أجزاء أخرى من الكتاب تعبر إرادة الله - أو مشيئته - عن طبيعته وما يسره في تعامله مع البشر، وهذه تشمل وصاياه المعلنة لنا في الكلمة المقدسة ويطلق عليها "مشيئة الله في وصاياه" preceptive will[9].

كتب أحد الرعاة: "يسمح الله للناس .. أن يتصرفوا ضدا وتحديا لإرادته المعلنة، لكنه لا يسمح لهم إطلاقا أن يتصرفوا ضد إرادته السائدة"[10]؛ أي أن الله أعطى الناس حرية لطاعة وصاياه أو العصيان عليه، لكن ما قضى به فلا بد أن يتم ولا يمكن مقاومته أو إحباطه. بالطبع إذا تصرفنا ضدا لإرادة الله المعلنة فهذا يكون بسماح منه وفي نطاق إرادته القضائية، لكن ليس ذلك عذرا لنا على الإطلاق لفعل الخطأ، كما أن العصيان له نتائجه الوخيمة.

يجدر بنا ونحن نتحدث عن القصد أن نرجع إلى ما دونه الوحي في الأصحاح الأول من رسالة أفسس حيث نتعلم عن قصد الله منذ الأزل وما يتجه نحوه إلى الأبد، وأن المسيح هو الوسيط في هذا القصد[11]. تكشف تلك الآيات عن مقاصد الله في إعادة الإنسان بعد سقوطه للشركة معه بواسطة **<u>المسيح</u>** ولمجد **<u>المسيح</u>**، فالله باركنا بكل بركة روحية في السماويات **"في المسيح"**، كما اختارنا **"فيه"** قبل تأسيس العالم، إذ سبق فعيّننا للتبني **"بيسوع المسيح"**، وأنعم علينا بنعمته **"في المحبوب"**، الذي **"فيه"** لنا الفداء **"بدمه"** غفران الخطايا. رجاؤنا هو **"في المسيح"**، و**"فيه"** إذ آمنّا ختمنا بروح الموعد القدوس. ولا يقتصر قصد الله على إرجاع الإنسان إليه بل أن "يجمع كل شيء في **المسيح** ما في السماوات وما على الأرض"، فيخضع الكل له[12]؛ والغاية من هذا أن يكون الكل "لمدح مجد الله". كل ذلك يتم بحسب تدبير محكم ووفقا لخطة زمنية محددة منذ بدء الخليقة وحتى مجيء المسيح الأول وعمله الفدائي، ثم للتحقيق الكامل عند مجيء المسيح ثانية.

نأتي الآن إلى كلمات مختصرة عن سلطان الله في المجالات المختلفة:

أ- سيادة الله في الطبيعة:

الله سيد وملك على الطبيعة وعلى كل الكون: "كل ما شاء صنع في السماوات وفي الأرض في البحار وفي كل اللجج" مز١٣٥:٦. خلق الله الكون بنواميس طبيعية، لكن الكون محفوظ بهذه النواميس بكلمة قدرته وإرادته[13]. تعتمد الخليقة على الله في كل شيء، ويُرجع الكتاب ما يحدث في الكون إلى أمر الله وقوته[14]. نقرأ في عا٤:٧ "وأنا أيضا منعت عنكم المطر إذ بقي ثلاثة أشهر للحصاد وأمطرت على مدينة واحدة وعلى مدينة أخرى لم أمطر. أمطر على ضيعة واحدة والضيعة التي لم يُمطَر عليها جفت"، وفي يون٤:٧-٨ تُنسَب أعمال الطبيعة لله: "أعدّ الله دودة عند طلوع الفجر في الغد فضربت اليقطينة فيبست. وحدث عند طلوع الشمس أن الله أعدّ ريحا شرقية حارة ..". كذلك يعلمنا الرب يسوع أن أصغر الأمور هي تحت تحكم الله، "أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم. وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة" مت١٠:٢٩-٣٠.

إن الله يعمل عامة في الطبيعة في توافق مع القوانين التي وضعها لها، كما أنه يتعامل مع الإنسان عادة بما هو طبيعي، لكن الله لا يُحَدّ بما وضعه من قوانين، فإن شاء أن يفعل أمرا مخالفا لقوانين الطبيعة فله كل الحق والسيادة ليفعل كما يرى هو في حكمته العظيمة. نرى هذا في حدوث المعجزات إذ ننتقل من الطبيعي إلى ما هو خارق للطبيعة.

ب- سيادة الله على الممالك والسلاطين:

يسود الله على الممالك والسلاطين. نعم، إن العليّ متسلط في مملكة الناس ويعطيها من يشاء[١٥]. "هو يغير الأوقات والأزمنة، يعزل ملوكا وينصب ملوكا" دا ٢:٢١، و"قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله" أم٢١:١.

يظهر سلطان الله على الأمة الإسرائيلية بوضوح في العهد القديم؛ ولا يقتصر سلطانه على ذلك الشعب فقط، بل كل ممالك العالم هي تحت سيادة الله وتحكمه؛ "لأن للرب الملك وهو المتسلط على الأمم" مز ٢٢:٢٨؛ وهكذا يصف الكتاب نعمان السرياني بالقول أنه "كان عظيما عند سيده .. لأنه عن يده أعطى الرب خلاصا لأرام" ٢مل٥:١. كذلك تحتوي أسفار العهد القديم، ولا سيما الأسفار النبوية، على نبوات تخص الشعوب المختلفة التي كانت تحيط بشعب الله، فالله ملك على الجميع.

نجد مثالا آخر لسلطان الله على كل ممالك العالم في حلم نبوخذنصر وفي تفسيره وتحقيقه. كان الحلم يخصّ تتابُع عدة ممالك؛ ولم يكن ترتيب تلك الممالك عشوائيا، وإنما كان كل شيء يتم بحكمة وله أهميته في تاريخ الفداء. إن سقوط أمة وقيام أخرى لتسيطر على المنطقة لا يتم في لحظة أو يوم، والرب هو الذي يتحكم في كل الأسباب التي تؤدي إلى النهاية المطلوبة.

أقام الله مملكة مادي وفارس لتقهر مملكة بابل، واستخدم كورش الملك الفارسي لينهي سبي الأمة الإسرائيلية ويرجع اليهود إلى أرضهم استعدادا لمجيء المسيا الذي فيه تحققت النبوة عن المملكة التي تثبت إلى الأبد[١٦]. كان قيام مملكة اليونان بعد المملكة الفارسية، واتساع نفوذها في بلدان كثيرة، له أهميته في نشر ثقافة واحدة عبر المنطقة، مما يَسّر انتشار الإنجيل فيما بعد. أما عن بذرة تكوين الإمبراطورية الرومانية فترجع في التاريخ إلى ما قبل السبي حيث تأسست مدينة روما في منتصف القرن الثامن ق.م. واتجهت الأمور عبر مئات السنين لتصبح روما القوة العظمى في المنطقة وقت ولادة الرب يسوع.

كان حكم الرومان شديدا مستبدا، واستعملوا الصلب في معاقبة العبيد والأجانب، ولم يسمحوا لليهود بتنفيذ حكم الموت بعيدا عن سلطتهم، لذلك حوكم الرب على أيدي الرومان. وقف يسوع ليحاكم لدى بيلاطس الوالي الروماني الذي في كبريائه كان يظن أنه هو المتحكم في الأمور، وقال للرب "ألست تعلم أن لي سلطانا أن أصلبك وسلطانا أن أطلقك"، لكن الرب يسوع صحح المفاهيم إذ أجابه "لم يكن لك سلطان البتة لو لم تكن قد أعطيت من فوق" يو١٩:١٠-١١. فعل بيلاطس ما عيّنت يد الرب ومشورته أن يكون، وأسلم يسوع ليصلب، وتم المكتوب: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة"[١٧] غل٣:١٣.

عندما نتابع الأحداث في العالم اليوم قد يبدو لنا أن العالم خرج عن تحكم الله، لكن الحقيقة أن كل ما يجري هو تحت سلطانه حتى لو لم نفهم تفسير الأمور، "لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله" رو١٣:١. "حتى الحكومة الفاسدة التي تنتهك مبادئ الحكم نفسه، هي أيضا ضمن سلطان الله لإتمام غرضه الأسمى. فالشرير، بارتكابه الإثم، إنما يملأ كأس غضب الله. "فيكون متى أكمل السيد كل عمله بجبل صهيون وبأورشليم، أنى أعاقب ثمر عظمة قلب ملك أشور وفخر رفعة عينيه" إش١٠:١٢"[١٨].

ت. سيادة الله في حياة البشر:

كل إنسان أيضا هو تحت سيادة الله. وبالرغم من أن الإنسان الطبيعي يعيش في تمرد على الله ولا يقبل سيادته عليه أخلاقيا، إلا أن وجوده ذاته يعتمد على الله، وليس ممكنا أن يعيش في استقلال عنه، كما أنه لا يستطيع أن يتصرف بحرية مطلقة تخرج عن سلطان الله.

أذكر هنا عددا قليلا من الأمثلة في الكتاب المقدس على سيادة الله في حياة البشر:

- عندما قال إبراهيم إن سارة أخته وأخذها أبيمالك إليه، منع الله أبيمالك من أن يسيء إليها: "فقال الله له في الحلم أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أمسكتك عن أن تخطىء إليّ. لذلك لم أدعك تمسّها" تك٢٠:٦.
- نرى في قصة بلعام[١٩] أن الله سمح له أن يذهب مع رسل بالاق الذين أرسلهم ليستدعوه ليلعن شعب الله، إلا أن بلعام لم يستطع أن ينطق بأي وحي ضدا لإرادة الله، واعترف بلعام بذلك في قوله لبالاق: "هأنذا قد جئت إليك. ألعلي الآن أستطيع أن أتكلم بشيء. الكلام الذي يضعه الله في فمي به أتكلم" عد٢٢:٣٨.

وكان أول ما نطق به بلعام عن شعب الله هو "من آرام أتى بي بالاق ملك موآب من جبال المشرق. تعال العن لي يعقوب وهلم اشتم إسرائيل. كيف ألعن من لم يلعنه الله وكيف أشتم من لم يشتمه الرب .." عد٢٣:٧-٨.

- نجد في الأسفار الشعرية الكثير مما يعبر عن سيادة الله، مثل "الله هو القاضي. هذا يضعه وهذا يرفعه" مز٧٥:٧. كذلك "في قلب الإنسان أفكار كثيرة لكن مشورة الرب هي تثبت" أم ١٩:٢١، و"إذا أرضت الرب طرق إنسان جعل أعداءه أيضا يسالمونه" أم ١٦:٧.
- كثيرا ما نقرأ في الكتاب أن الرب أعطى شخصا نعمة في أعين آخرين، مثل ما قيل عن دانيال: "وأعطى الله دانيال نعمة ورحمة عند رئيس الخصيان" دا ١:٩.

يعطينا الرسول بولس مثالا في الخضوع لسيادة الله على البشر والظروف المحيطة بهم إذ يستخدم تعبيرات تدل على التسليم لسلطان الله مثل "إن شاء الله" أع١٨:٢١، وأجيء إليكم بفرح "بإرادة الله" رو١٥:٣٢. كذلك يحث الرسول يعقوب قارئيه أن يقولوا "إن شاء الرب وعشنا نفعل هذا أو ذاك" يع٤:١٥.

ث. سيادة الله في الخلاص:

الخلاص، في تدبيره وتنفيذه وتطبيقه، هو عمل الله بالكامل. الخلاص له بعد أزلي يتضمن مشورة الله المثلث الأقانيم وتدبيره للفداء. أما البعد الزمني فيشمل تحقيق الخلاص بعمل المسيح الفدائي بما في ذلك التجسد والكفارة وقيامة المسيح وصعوده ومجيئه الثاني، وكذا عمل الروح القدس في تخصيص فوائد الفداء وتحقيق الخلاص في حياة الإنسان؛ وهذان الأمران يتحققان معا جنبا إلى جنب بسيادة الله الكاملة. سأتحدث عن التحقيق في حياة الأفراد بتفصيل لاحقا.

بعد سقوط الإنسان في الخطية ابتدأ الله في تحقيق خطة الخلاص زمنيا بتحكم مطلق في كل الأحداث، ولما جاء "ملء الزمان" أرسل الله ابنه مولودا من امرأة ليحقق الفداء، وعندما أتت "الساعة" تمجد ابن الإنسان عن طريق الصليب ثم القيامة والصعود والجلوس عن يمين العظمة في الأعالي. يؤكد الرسول بطرس في سفر الأعمال سيادة الله في قضائه بآلام المسيح إذ يقول: "هذا أخذتموه مسلما بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدي أثمة صلبتموه وقتلتموه" أع٢:٢٣. إلى جانب هذا فإن كل ما حدث، ويحدث، لتكوين وإكمال الكنيسة ـ جسد المسيح ـ هو أيضا تحت سيادة الله؛ "لكي يعرّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربّنا" أف٣:١٠-١١. الكل يتم حسب قصد الله ومشيئته. وفي الوقت المعين "الذي جعله الآب في سلطانه" ستأتي نهاية هذا العالم وينبزغ فجر ذلك اليوم المجيد إذ تكتمل الكنيسة ويجيء المسيح في مجده ملكا وسيدا إلى أبد الآبدين[٢٠].

ج. سيادة الله على "كل" شيء

ربما يكون الاقتناع بسيادة الله المطلقة في الخير أمرا سهلا، لكن ماذا عن الشر الذي يحدث في العالم؟ وماذا عن المصائب والآلام التي تصيب البشر؟ هل هذه الأمور خارج سلطان الله؟ هل تحدث ضد إرادته؟ وهل يعجز الله عن التدخل؟

إن مشكلة أصل الشر والألم وموقف الله منها مشكلة عويصة حيرت العقول وصارع معها الكثيرون من العلماء والفلاسفة. ويسبب هذا الموضوع حيرة أكثر لمن يعرفون الله بمحبته الفائقة وقدرته غير المحدودة، فيقف العقل حائرا إزاء بلية كبيرة أو مشكلة صعبة، ونتساءل كيف يسمح الله المحب بمثل هذا، أو لماذا لم يتدخل الله القادر على كل شيء ليمنع الشر؟

ذهب بعض المفكرين إزاء مشكلة الشر والألم لإنكار كمال محبة الله، وبعض آخر لإنكار كمال قدرته، بينما يشرحها آخرون بأن الله وإن كان محبا قادرا إلا أنه بعيد عما يحدث، وقد ترك ـ باختياره ـ العالم يسير بقوانينه الطبيعية ومحكوما بالتصرفات البشرية بدون أي تدخل منه، مما يسبب حدوث الألم والشر في العالم. كل هذه الأفكار لا تتفق مع تعليم الكتاب المقدس، وسنرى فيما يلي ما تعلمه إيانا الكلمة المقدسة عن سيادة الله على كل شيء بما في ذلك الألم والشر. أكتب لاحقا عما يثيره هذا التعليم من مشاكل في التطبيق في باب "الألم وسيادة الله".

يعلمنا الكتاب أن لا شيء على الإطلاق يخرج عن سلطان الله وهذا يشمل سيادته على كل ما يحدث حتى البلايا والشرور. فمثلا نتعلم من سفر أيوب أنه لم يكن ممكنا للشيطان أن يؤذي أيوب إلا بسماح من الله؛ وبالرغم من أن المصائب التي حلت بأيوب تمّت عن طريق السبئيين والكلدانيين والرياح والكوارث الطبيعية، إلا أنه بعين الإيمان رأى أن الله متسلط على الكل فقال "الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا" أي١:٢١. كذلك في سفر المراثي، بعد أن عدّد إرميا بعض شرور الإنسان ضد آخرين، يذكر أن الله هو المرجع النهائي، ولا شيء يقوم بدون أمره، فيقول: "من ذا الذي يقول فيكون والرب لم يأمر؟ من فم العلي ألا تخرج الشرور والخير؟" مرا ٣:٣٧-٣٨.

قد نُصدم بالعبارة الأخيرة في الآية السابقة، لكن لفهم المعنى أشير إلى ما كتبه أحد علماء الكتاب في تفسير آية أخرى تحوي معنى مماثل: "أنا الرب وليس آخر. مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر" إش٤٥:٦-٧، إذ يقول إن الكلمة المترجمة "شر" في هذه الآية وردت ٦٤٠ مرة في الكتاب بمعان مختلفة تتراوح بين الطعم "الكريه" إلى الشر الأخلاقي؛ وفي ٢٧٥ مرة منهم تعبر عن ضرر أو كارثة، وفي إش٤٥:٧ تعبر عن الكارثة التي سيحدثها كورش للملوك الذين سيقهرهم والمدن التي سيقلبها[٢١]. يتأكد هذا المعنى من البنية الشعرية للجزء، فهناك تواز بين شطري عدد ٧. الجزء الأول منه به ضدان وهما النور والظلمة، ونتوقع في الجزء الثاني أن يتبع السلام ما هو ضده - الحرب مثلا! لكن السلام والشر الأخلاقي ليسا ضدين، بل السلام هو ضد الحرب أو المصائب الناتجة عنها، وهذا هو المعنى المقصود هنا. تستخدم معظم الترجمات الإنجليزية كلمة disaster أو calamity في هذه الآية كما أن بعض الترجمات تصف الشر "بالشر المادي" لتستبعد "الشر الأخلاقي". على نفس المنوال نفهم معنى "الشرور" في مرا ٣:٣٨ أنه الضرر وليس الشر الأخلاقي، ونفس الأفكار تنطبق على أي٢:١٠ "أالخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل؟" فالشر هنا هو بمعنى الضرر. كذلك نقرأ في عا٣:٦ "هل تحدث بلية في مدينة والرب لم يصنعها". كل هذا يعبر عن أن الكل هو تحت تحكم الله وأنه قضى بأن يستخدم البلايا والشرور لتحقيق مقاصده.

مع أن سلطان الله يشمل كل شيء حتى ما يحدث من شرور لكن الله لا يفعل أي شر أو يسبّبه أو يُسرّ به ولا هو مسئول عنه؛ كذلك ليس الله فعّالا في خلائقه العاقلة ليعملوا الشر[٢٢]، فالله نور وليس فيه ظلمة البتة[٢٣]، وهو القدوس قدوس الذي عيناه أطهر من أن تنظرا الشر[٢٤]. عندما يخطيء الإنسان فإنه يفعل ذلك برغبته الشريرة. وبينما يفعل الإنسان ما يريده خيرا كان أو شرا، يخضع الكل لتحكم الله. قد يترك الله الإنسان ليفعل الشر بما في ذلك من نتائج تؤثر على الشخص نفسه أو على غيره، أو قد يتدخل الله ويمنع فعل الشر[٢٥] لكنه يستخدم الكل لتحقيق مقاصده الأبدية[٢٦].

يقول أحد أساتذة علم اللاهوت: "يؤكد الكتاب المقدس على أن الله سيد، سيد للغاية حتى أن لا شيء يحدث في الكون يمكنه الخروج عن تحكمه؛ لكن الكتاب يؤكد أيضا أن الله صالح، صالح بدون أي تحفظ، هو مقياس الصلاح نفسه. لذلك فلا بد أن نصل للنتيجة أن الله لا يقف وراء الخير والشر بنفس الطريقة. بتعبير آخر إن الله يقف وراء الخير والشر بطريقة لامتماثلة (asymmetrically)، فهو يقف وراء الخير بطريقة يُعزى فيها الخير دائما لله؛ ويقف وراء الشر بطريقة فيها يُعزى الشر نفسه لعوامل ثانوية وآثارها البشعة، وهذه لا يمكنها الخروج عن سيطرته بنفس الطريقة التي بها لم يكن للشيطان قوة على أيوب بدون سماح من الله؛ لكن الله يظل بعيدا عن الشر نفسه"[٢٧].

إذا توقفنا هنا وتخيلنا للحظة أن الله لا يسود على الكل بالتمام، وأن قوى الشر لها حرية مطلقة، أو أن الإنسان يستطيع التصرف خارج تحكم الله؛ ألا يسبب هذا الفكر جزعا لنا جميعا؟ فعالم بدون سيادة الله هو عالم فوضوي مضطرب، وعالم بدون العناية الإلهية هو عالم فقير تعيس.

الله كامل في صلاحه، وعظيم في حكمته، وكلي في علمه وقدرته، ولا يعتمد على أي شيء خارج نفسه، وليس خاضعا لأي تغيير. هو يسود سيادة مطلقة، وسيادته هي عماد الاستقرار والطمأنينة لنا، وهي أساس هام لثقتنا في الله واتكالنا عليه. "إذا وجد حدث واحد في الكون يمكن حدوثه خارج تحكم الله وسيادته، لا نستطيع أن نثق فيه"[٢٨]، لكن لا يوجد أي حدث، كبيرا كان أم صغيرا، يمكنه الخروج عن إرادته، ولذلك فالنتيجة النهائية مضمونة، والشر ليس له الكلمة الأخيرة.

٢. مسئولية الإنسان

يعلمنا الكتاب أن الإنسان عنده القدرة على الاختيار وأنه مسئول عن تصرفاته. صحيح أن الناس يعملون فقط ما قضى الله أن يفعلوه إلا أنهم أحرار بالحقيقة فيما يفعلون، بمعنى أن قراراتهم هي لهم، وهم مسئولون أخلاقيا عنها[٢٩].

عندما نتحدث عن مسئولية الإنسان لا بد أن موضوع حرية الإرادة يتطرق إلى الأذهان. وهو موضوع مترامي الأطراف ومتعدد الزوايا؛ أذكر عنه القليل باختصار، ثم نتابع عما يترتب على الحرية من مسئولية ومساءلة.

أ. حرية الإرادة

من أعظم ما يميز الإنسان عن باقي المخلوقات أن الله منحه إرادة حرة ليأخذ قراراتٍ يختارها بنفسه؛ لكنه لا يملك حرية مطلقة تمكنه الخروج عن نطاق حكم الله وسيادته.

أعتقد أنه لا خلاف على أن محدوديتنا تفرض علينا قيودا متباينة. هناك الكثير الذي يحدنا وبالتالي ينقص من حريتنا. جزء كبير من حياتنا ليس لنا فيه أي اختيار، مثل وقت ومكان ميلادنا؛ الله "حتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم" أع١٧:٢٦؛ ولا نستطيع أن نغيّر الوقت الذي ولدنا فيه، لكن يمكننا أن نغيّر مكان إقامتنا إن رغبنا وسمح الله بذلك. كذلك نحن لا نختار والدينا وما نرثه عنهما من مزاج وطباع، ولا البيئة التي ننشأ فيها، ولا شيء من الماضي الذي سبق ميلادنا. هذه الأمور كلها لها تأثير علينا. نحن ندرك أن حريتنا ليست مطلقة، وأحيانا نقول: " لم أتمكن من كذا .. لظروف خارجة عن إرادتي"؛ هذا أيضا يبين أننا في الواقع نعي محدوديتنا.

الإنسان لا يعيش منعزلا عن غيره في العالم، وإنما يؤثر ويتأثر بالآخرين وبالبيئة المحيطة. كل هذا يخضع لسلطان الله، وهو الوحيد الحكيم الذي يستطيع أن يحكم هذه التفاعلات والتحركات الكبيرة والمتداخلة، وتأثيرها على بعضها البعض.

ليس معنى سيادة الله أن الإنسان كالآلة، أو أنه مبرمج، أو أن ليس له القدرة على الاختيار والتصرف المسئول. كلنا يعرف داخليا أننا أحرار في تصرفاتنا، ولا أحد يشعر أنه يتعرض لضغوط من الله ليتخذ قرارا معينا أو يقوم بعمل ما. إن إرادة الإنسان حرة بمعنى أنه يختار ويقرر ما يريده ويرغب فيه بدون قسر أو إكراه. والسؤال أمامنا، هل ما نختاره هو الصالح (وأقصد هنا الصلاح الروحي)؟

عندما خُلق آدم كانت إرادته لفعل الصلاح محايدة، بمعنى أنه كان في استطاعته أن يصيب فيختار الخير، أو يخطيء فيختار الشر. لكن الأمر اختلف بعد السقوط. هناك جدل كبير حول السؤال "هل إرادة الإنسان حرة أم مستعبدة من ناحية الصلاح الروحي؟". البعض قالوا أن الإرادة لم تتأثر بالسقوط ولذا فالإنسان عنده حرية كاملة، وله القدرة من ذاته على عمل الصلاح وإرضاء الله! هذا كان رأي إرازموس وبيلاجيوس من قبله، وقد ردَّ لوثر على إرازموس في كتابه المشهور "عبودية الإرادة" The Bondage of the Will مبيّنا فيه أن موقف إرازموس لا يتفق مع تعليم الكتاب.

يقوم تعريف حرية الإرادة بدور مهم في الإجابة على السؤال السابق، فالبعض[٣٠] أعطى التعريف بأن الإنسان يكون حرا عندما يختار ما يرغب فيه ويريده بدون أى تدخل خارجى أو إجبار. لذلك فالإنسان بعد السقوط ما زال حر الإرادة بمعنى أنه يملك القدرة على الاختيار واتخاذ قرارات يريدها بالحقيقة، لكن بسبب طبيعة الإنسان الفاسدة، تميل رغباته للشر، وما يرغب فيه ليس هو الصلاح الكامل، ومن ثم فليس عند الإنسان الحرية الحقيقية كمن أعتق من الخطية للبر. يصل البعض الآخر لنفس النتيجة ولكن بتعريف الحرية الحقيقية بأن يعيش الإنسان بما يتطابق مع الطبيعة التي خُلق عليها – قبل السقوط. فالإنسان الذي خُلق على صورة الله يكون بالحقيقة حرا عندما يعكس تلك الصورة ويكون مشابها لله في البر، ويعيش في حب وتوافق وانسجام معه، ويختار الصالح دائما. لكن بعد سقوط الإنسان في الخطية، مع أنه لم يفقد القدرة على الاختيار، لكن إرادته فقدت الحيادية بالنسبة لفعل الصلاح الروحي، وأصبح يميل لفعل الشر. لذلك فإرادة الإنسان بعد السقوط مستعبدة للخطية، فحتى ما نعمله من صلاح يكون ملطخا بدوافع أنانية وحب المظاهر واسترضاء الآخرين، ولا يمكن أن يتمتع الإنسان بالحرية إلا بعمل نعمة الله المحررة من الخطية والفساد إلى البر والقداسة. قال السيد المسيح "كل من يعمل الخطية هو عبد للخطية .. فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحرارا" يو٨:٣٤-٣٥.

ب. المسئولية

الحرية لا تعفي الإنسان من المسئولية، بل مع حرية الاختيار والقدرة الفكرية والأخلاقية تقع على الإنسان مسئولية نحو خالقه ونحو الآخرين وكذا البيئة المحيطة به، ويتحمل الإنسان نتائج وتبعيات قراراته وأفعاله.

مسئولية الإنسان أمر مسلم به في الكتاب المقدس حيث يعطي الله وصايا للإنسان، ويحثه على التصرف المسئول، وينتظر منه الطاعة، ويخبره بنتيجة العصيان. ليس هناك أي تنويه عن أن الله يجرد الإنسان من إرادته أو يرغمه على فعل ما لا يريده. التصرف المسئول هو جزء من إنسانيتنا، فكم بالأحري يُطلب ممن عرفوا الرب ويتمتعون بخلاصه. بالإضافة، تتأكد مسئولية الإنسان من الآتي:

١. يعبر الكتاب صراحة عن دور الإنسان في اختياره لأفعاله. أذكر بعض الأمثلة:

- قبل أن يدخل شعب الله إلى أرض الموعد ذكّرهم موسى بالاختيار الذي أمامهم: "انظر. قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك .. فاختر الحياة " تث٣٠:١٥، ١٩. وعندما دخلوا أرض كنعان وضع يشوع أمامهم الاختيار: "وإن ساء في أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون .. أما أنا وبيتي فنعبد الرب" يش ٢٤:١٥. هذه الوصايا وما شابهها لا تستبعد سيادة الله أو تتنافى معها، وإنما تعلم الإنسان أن يقوم بمسئوليته، ويختار الصالح.
- تكلم الرب للشعب القديم على فم إشعياء النبي: "إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض. وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف" إش١:١٩. ولما خلت عبادتهم من التقوى ومخافة الرب، قال عنهم: "بل هم اختاروا طرقهم وبمكرهاتهم سُرَّت أنفسهم" إش٦٦:٣.
- قال الرب يسوع: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني. فإنّ من أراد أن يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها" مت١٦:٢٤-٢٥. نلاحظ استخدام الفعل "أراد" مرتين في هذا النص، مع ذِكر نتائج الاختيار الذي يقوم به الإنسان.
- يتحدث الرسول بطرس عن قوم مستهزئين قائلا: "لأن هذا يخفى عليهم بإرادتهم أن السماوات كانت منذ القديم والأرض بكلمة الله قائمة من الماء وبالماء" ٢بط٣:٥.

٢. هناك العديد من المواقف التي فيها اعتراف من أشخاص أو مجموعة بمسئوليتهم تجاه خطيتهم، وإرجاع فعل الشر إلى حماقة الإنسان وعناده، مثل:

- "فقال صموئيل لشاول قد انحمقتَ. لم تحفظ وصية الله .." ١صم١٣:١٣.
- "فقال داود لناثان قد أخطأتُ إلى الرب" ٢صم١٢:١٣.
- اعترف دانيال بخطية الشعب إذ قال "أخطأنا وأثمنا وعملنا الشر وتمردنا وحدنا عن وصاياك وعن أحكامك" دا ٩:٥.

٣. بينما تُعلَن أو تُفترَض سيادة الله في حدث معين لا نجد أي قصور في توجيه النداء للبشر ليقوموا بمسئوليتهم الشخصية، وليستخدموا كل الوسائل المتاحة لهم. كذلك نلاحظ إخبار الإنسان بالنتائج التي يترتب عليها عدم الالتزام بالواجب البشري. الأمثلة التالية توضح هذه النقطة:

- كان الرسول بولس ذاهبا إلى روما بحرا بحراسة يوليوس قائد مئة من كتيبة أوغسطس، وكان معه أسرى آخرون. كانت الرحلة صعبة ومليئة بالمخاطر من الريح الشديدة والزوابع. وفي ليلة ظهر ملاك الرب لبولس وأخبره بما سيكون قائلا: "لا تخف يا بولس. ينبغي لك أن تقف أمام قيصر. وهوذا قد وهبك الله جميع المسافرين معك" أع٢٧:٢٣. بالرغم من أن الرسول بولس أخذ تأكيدا عن نهاية الرحلة ونجاة الكل، إلا أن هذا لم يُثنه عن أن يقوم بمسئوليته وينذر قائد المئة والعسكر عن أهمية بقاء النوتية في السفينة. بل إن اللغة التي استخدمها قد تدل على أن الأمر يعتمد على تصرف البشر "إن لم يبق هؤلاء في السفينة فأنتم لا تقدرون أن تنجوا" أع٢٧:٣١؛ والحقيقة هي أن الله سيد والإنسان مسئول في آن واحد.

- قال الرب يسوع "لا بد أن تأتي العثرات ولكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة" مت١٨:٧ب، كذلك "ابن الإنسان ماض كما هو محتوم. ولكن ويل لذلك الإنسان الذي يسلمه" لو٢٢:٢٢. هنا نرى حتمية حدوث الفعل بينما من سيفعله يكون مسئولا عن فعله.

ت. المساءلة

كل اختيار له تبعيات، فإذا تعقلنا الاختيار وأحسنّا القرار يكون لنا خير. أما إذا أسأنا الاختيار فلا بد أن نتحمل النتائج؛ وينبغي ألا نلوم أحدا عن تبعيات قراراتنا سوى أنفسنا. لا يفيد إلقاء اللوم على غيرنا أو على الله بشيء، لكن إذا واجهنا أنفسنا بالأخطاء وتعلمنا منها يعود ذلك علينا بالنفع ويقودنا إلى النضج والتقدم.

لا تقتصر تبعيات اختياراتنا على ما يحدث في هذه الحياة، فنحن سنعطي حسابا عن كل أعمالنا وأقوالنا ودوافعنا عندما يأتي المسيح من السماء ليدين الأحياء والأموات[٣١].

من المهم أن نعي أن الحرية لا تعفي الإنسان من وجوب طاعة الله، فالله خالقنا، ونحن – خليقته - تحت التزام لطاعته وعمل كل ما يطلبه منا. الإنسان مسئول أن يطيع الله في جميع وصاياه، ولا يمكن أن يتجاهل المخلوق خالقه بدون أن يُحاسَب على العصيان. وإذا افترض أحد أنه "حر" ليطيع الوصية أو لا يطيعها بدون أي تبعيات، فهو مخطيء، لأن سلطان الله سلطان كامل متكامل كخالق وقاض وملك ديّان يحاكم ويحاسب الإنسان ويسائله، كما أن حرية الإرادة والقدرة على الاختيار هي عناصر مهمة في أمر المساءلة.

عند الموت، يكون هناك تمييز بين المؤمن وغير المؤمن؛ فالمؤمن ينطلق ويكون مع المسيح، أما غير المؤمن فيكون في انفصال عنه. ومع ذلك تؤكد لنا كلمة الله أنه سيأتي يوم للمحاكمة العلنية التي ستكون بحسب الأعمال[٣٢]:

> "أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضبا في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله. أما الذين بصبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة فبالحياة الأبدية. وأما الذين من أهل التحزب ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم فسخط وغضب وشدة وضيق .." رو٢:٥-٨.

في هذه المحاكمة العلنية سيرى الجميع عدل الرب وبره، وسيروا رحمته ونعمته في خلاص المؤمنين. من لا يؤمن بالابن سينال عقاب تعدّياته ويمكث عليه غضب الله. هناك الكثير من الشر والظلم في هذا العالم؛ المتغطرسون والأشرار يتجاهلون الله ويسيئون التصرف مع الآخرين؛ لكن هذا لن يدوم إلى الأبد. الله يمهل ويتأنّى ويعطي فرصة للتوبة؛ وهو "يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضيا عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوما هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عيّنه مقدما للجميع إيمانا إذ أقامه من الأموات" أع١٧:٣٠-٣١. إن الفرصة متاحة "الآن" لكل شخص بعيد عن الله ليطيع الحق ويُقبل إلى المسيح بالتوبة والإيمان. "اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم" عب٤:٧.

المؤمنون أيضا سيقفون أمام كرسي المسيح؛ وسيبيّن ذلك اليوم أنهم وضعوا ثقتهم وإيمانهم في المسيح وعمله الفدائي. وهم سيقيّمون بحسب أعمالهم ليعطَوا درجات من المكافأة. كلٌ سيعطي حساب وكالته[٣٣]. ينبغي أن يكون هذا محفزا لنا للقيام بمسئوليتنا في النمو في حياة القداسة والعمل في خدمة السيد تجاوبا مع محبته ونعمته، عالمين أننا ننال مكافأة إذا جاهدنا.

> "لأننا جميعا سوف نقف أمام كرسي المسيح .. كلُّ واحد منّا سيعطي عن نفسه حسابا لله" رو١٤:١٠، ١٢.

> "لأنه لا بد أننا جميعا نظهر أمام كرسيّ المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرا كان أم شرا" ٢كو٥:١٠.

كتب الرسول بولس لأهل كورنثوس معلما أن ما يفعله المؤمنون في خدمة المسيح سيقيّم في النهاية، ومن بنى حسنا فسيأخذ أجرة:

"فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساسا آخر غير الذي وضع الذي هو يسوع المسيح. ولكن إن كان أحد يبني على هذا الأساس ذهبا فضة حجارة كريمة خشبا عشبا قشا فعمل كل واحد سيكون ظاهرا لأن اليوم سيبيّنه. لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو. إن بقي عمل أحد قد بناه عليه فسيأخذ أجرة. إن احترق عمل أحد فسيخسر وأما هو فسيخلص ولكن كما بنار" ١كو٣:١١-١٥.

٣. كيف يجمع الكتاب المقدس بين سيادة الله ومسئولية البشر؟

يذكر الكتاب سيادة الله وأعمال البشر الاختيارية في الحدث الواحد كأمر طبيعي، فنجد أن الحدث الواحد يرجع حدوثة إلى فعل البشر باختيارهم، كما يُنسب ذات الحدث إلى العناية الإلهية فيما يعمله الله ويحقيق به مقاصده. لا ينطبق هذا على أعمال البشر الاختيارية فقط، بل إن ما يحدث في الكون الطبيعي ينسب أيضا إلى الله ببساطة شديدة. هذه الفكرة لجمع سيادة الله والمسئولية الشخصية تسمى بنظرية التزامن (concurrence) إذ يسود الله على الأحداث ليحقق مقاصده في تزامن مع أعمال الناس الاختيارية. هذا لا يعني أن الإنسان يعمل في استقلال عن الله؛ ولا يعني أنه يعمل جزءا والله يقوم بعمل الجزء الآخر، بل بالأحرى أن العمل ينسب كاملا إلى الإنسان، كما ينسب ذات العمل كاملا إلى الله. في ذات الوقت يسود الله على كل شيء، والإنسان يخضع لسيادته ويعمل في نطاق إرادته القضائية. كذلك الطبيعة والمادة، وإن كان الله وضع لها قوانين ونظما، إلا أنها تعمل بقدرته وتخضع لسيادته.

تتضح هذه الفكرة عند دراسة بعض الأمثلة:

<u>يوسف:</u> كان يوسف ابنا مدللا عند أبيه، وقد حظاه يعقوب بمعاملة خاصة مما أثار غيرة إخوته وحقدهم عليه، وانتهى الأمر بتخلصهم منه بطرحه في بئر أولا، ثم بيعه إلى قافلة من الإسماعيليين كانت ذاهبة إلى مصر. قضى يوسف في مصر ١٣ سنة من وقت ما بيع لفوطيفار إلى الوقت الذي أقامه فرعون على بيته. وعندما جاء في الأرض جوع شديد ذهب إخوة يوسف إلى مصر ليبتاعوا طعاما، وكان يوسف آنذاك في مركز كبير. يعطينا الكتاب تفصيلا عن مقابلة يوسف لإخوته وتعرّفه عليهم، ثم نزول يعقوب وكل ما كان له إلى أرض مصر. ولما مات يعقوب خاف أخوة يوسف أن يفكر أخوهم في الثأر منهم، لكنه قال لهم: "لا تخافوا. فهل أنا مكان الله. أنتم قصدتم لي شرا. أما الله فقصد به خيرا"[٣٤]. هنا نلاحظ أن الله لم يجبر الأخوة على فعل الشر، كما أن سيادته وتحقيق مقاصده لا تقلل من شرهم، فهم اختاروا فعلهم الذي أرادوه وعملوا الشر. من ناحية أخرى لم يكن شر الأخوة مفاجأة لله دفعته للتدخل ليحوّل الشر للخير، بل في سيادته، استخدم الله شرهم لتحقيق قصده الأزلي. هكذا تغنى بنو إسرائيل عن أعمال الله في ذلك الوقت قائلين:

> "دعا بالجوع على الأرض كسر قوام الخبز كله. أرسل أمامهم رجلا. بيع يوسف عبدا. آذوا بالقيد رجليه. في الحديد دخلت نفسه. إلى وقت مجيء كلمته. قول الرب امتحنه. أرسل الملك فحله. أرسل سلطان الشعب فأطلقه. أقامه سيدا على بيته ومُسلطا على كل ملكه. ليأسر رؤساءه حسب إرادته ويعلم مشايخه حكمة. فجاء إسرائيل إلى مصر ويعقوب تغرّب في أرض حام" مز١٠٥:١٦-٢٣.

ما الذي سبّب الجوع الذي كان في جميع بلدان الأرض في تلك الآونة؟ إن العوامل الطبيعية تدخلت في ذلك، لكن هنا يقول المرنم أن الله "دعا بالجوع على الأرض"؛ هذا يرينا سلطان الله الكامل وسيطرته على كل ما يحدث في الطبيعة. كذلك من الذي أرسل يوسف إلى مصر؟ حقا باعه الإخوة إلى قافلة الإسماعيليين النازلة إلى مصر، لكن الله هو الذي أرسله أمام إخوته "أرسل أمامهم رجلا. بيع يوسف عبدا". إذن الناس يتصرفون بالخير أو بالشر كما يختارون، والله يعمل في ذات الأحداث لتحقيق مقاصده.

<u>يونان</u>: أمر الرب يونان أن يذهب إلى نينوى ويتنبأ عليها بسبب شر أهلها، لكن يونان حاول أن يهرب من وجه الرب فنزل إلى يافا ومنها ركب سفينة ذاهبة إلى ترشيش – وهي في اتجاه عكسي لنينوى. هاجت ريح شديدة وفكر الملاحون أن سبب هذا النوء العظيم هو غضب أحد الآلهة، وألقوا قرعة ليعرفوا من سبب البلية. وقعت القرعة على يونان، وعند استجوابه أخبر الملاحين بما فعل وبعصيانه على إلهه. بعد محاولات خافقة لإرجاع السيفنة للبر طرح الملاحون يونان في البحر فوقف عن هيجانه.

يظهر سلطان الله في أحداث سفر يونان بطريقة واضحة، سواء كان في الطبيعة أو في البشر، أو حتى في القرعة التي وقعت على يونان[٣٥]. من الملاحظ أن السفر ينسب الأفعال التي قام بها البشر وما يحدث في الطبيعة إلى الله صراحة؛ فبالرغم من أن الملاحين طرحوا يونان في البحر، أرجع يونان هذا الفعل إلى الله، إذ يقول في صلاته: "لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار" يو٢:٣. لم يجرد الله البشر من إرادتهم ولم يرغمهم على أي فعل حتى أن الملاحين صرخوا إلى الرب كي لا يعاقبهم على طرحهم ليونان في البحر. إن سيادة الله على كل الأحداث وتعامله مع البشر دون كبت حريتهم ودون إرغامهم على التصرف هي أمور مفترضة في الكتاب المقدس، وإن كان استيعابها صعب علينا.

أشور: استخدم الله أشور لتأديب شعبه الذي ضلَّ. كانت أشور أداة يستخدمها الله ليحقق ما قضى به، "ويل لأشور قضيب غضبي. والعصا في يدهم هي سخطي. على أمة منافقة أرسله وعلى شعب سخطي أوصيه" إش١٠:٥-٦. في نفس الوقت كانت مملكة أشور مسئولة عما تفعل، بل تباهت بقوتها وتعالت على الأمم الأخرى وفكرت أنها هي التي تبيد وتقرض أمما ليست بقليلة، وظنت أنها هي الآمرة والناهية في العالم، وتطاول ملكها على قدوس إسرائيل الذي كان يستخدمهم في يده كالفأس الذي يقطع أو المنشار الذي ينشر. وبعدما أدَّب الرب شعبه عاقب مملكة أشور على شرورها.

العناية الإلهية في سفر أستير: لا يذكر صراحة في سفر أستير أن الله هو الذي وراء الأحداث، ولم يذكر فيه اسم الله إطلاقا، لكن عنايته وسيادته واضحة في كل السفر. فالله هو الذي يحكم سلسلة الأحداث لتؤدي إلى نتيجة معينة؛ ولا يمكن أن تكون تلك الأحداث وليدة "الصدفة"؛ ولا يستطيع أحد أن يرتبها وينظمها في المكان والزمان المعينين بهذه الطريقة سوى الله العالم بكل شيء والقادر على كل شيء[٣٦].

أعتقد أن معظمنا يتفق أن الله كان سيدا على كل الأحداث ليحقق قصده بحفظ شعبه من الإبادة. لكن هل كان أحد المذكورين في السفر يشعر بأنه آلة تحرك؟ بالطبع لا. إن الله في عظمته لا يحركنا كآلات بل بطريقة عجيبة يدعنا نعيش ونتصرف باختيار ومسئولية بينما يسود هو على الكل.

صليب المسيح: كان الصليب في فكر الله منذ الأزل وحدوثه كان حتميا وأكيدا، لكن البشر الذين أسلموا وصلبوا الرب يسوع فعلوا ذلك بإرادتهم وهم مسئولون عن ذلك. هذا واضح من صلاة التلاميذ: "لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل، ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون" أع٤:٢٧-٢٨. يقول أحد العلماء: "مهما كانت الطريقة التي يعمل بها الله خلف الستار بالنسبة لصلب ابنه، فإن هيرودس وبيلاطس البنطي والآخرين فعلوا ما اختاروا أن يفعلوه؛ فعلوا ما أرادوا أن يفعلوه، ولذلك فهم حقا مسئولون عنه. لكن هذا يختلف عن القول بأنه كانت عندهم القدرة المطلقة ليغيروا الأحداث، لأن في هذه الحالة نقلل من دور الله ويصبح الصليب أمرا طارئا في فكر الله"[٣٧].

النبوّات:

نلاحظ من الكتاب المقدس أن تحقيق الكثير من النبوات يتم بطريقة طبيعية جدا، فالتوقيت يكون ملائما والبشر يتصرفون بالخير أو بالشر، والنتيجة تكون أن النبوة تحققت بدقة تامة. نأخذ النبوة عن ميلاد المسيح في بيت لحم كمثال لتوضيح هذا:

> "أما أنت يا بيت لحم أفراتة وأنت صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل" مي٥:٢.

يقول البشير لوقا "وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة" لو٢:١. هل كان ميعاد الاكتتاب "صدفة"؟ وهل كان أوغسطس قيصر يدري بما سينتج عن ذلك الأمر من صعود يوسف ومريم من الجليل إلى بيت لحم ليكتتبوا، وما تبع ذلك من ولادة يسوع في بيت لحم وتحقيق النبوة عن مكان ميلاده؟ أعتقد أننا نتفق أن الإجابة هي بالنفي. لكن الله يسود على أفعال البشر الاختيارية وعلى كل الأحداث لتحقيق قصده في كل شيء؛ وأي دراسة للنبوات وتحقيقها تؤكد سيادة الله وتحقيقه لمقاصده، سواء تمّ التحقيق بتدخل مباشر من الله مثل ميلاد يسوع من العذراء مريم، أو في تزامن مع أفعال البشر الاختيارية.

٤. كيف نتعامل مع الحقائق التي قد تظهر لنا متناقضة؟

تعلمنا الكلمة المقدسة أن سيادة الله مطلقة، وأن الإنسان عنده القدرة على الاختيار وهو مسئول أمام الله؛ والأمر الذي يواجهنا هو كيف نؤمن بهذه الحقائق في وقت واحد؛ فبالرغم من أنها ليست متناقضة في الحقيقة، لكن هناك غموض بالنسبة لكيفية تواجدها معا وارتباطها ببعض. تتعلق الصعوبة هنا إلى حد كبير بمحدوديتنا وعدم قدرتنا على التفكير خارج النطاق المحدود، فبالمنطق البشري نحن نفهم أن السلطان المطلق لله يعني انعدام حرية الاختيار للإنسان، أو إذا تمتع الإنسان بحرية اختيار فلا بد أن هذا يحد من سيادة الله. حاول الناس على مر العصور إيجاد علاقة بين سيادة الله ومسئولية الإنسان، لكن الكثير من هذه المحاولات يستقطب حول إحدى الحقيقتين ويقلل من شأن الآخر:

يذهب البعض إلى المغالاة في تأكيد حرية الإنسان ومسئوليته، ويفترضون أنه لكي يكون الإنسان حرا، وجب ألا يكون ملزَما بالخضوع لأي حدود. وحتى يكمل المنطق البشري في محدوديته يشرح البعض العلاقة بين سيادة الله وحرية الإنسان، بأن الله اختار أن يحد من سيادته ليعطي مجالا لحرية الإنسان، أو أن الله لا يعرف المستقبل، أو أنه قضى بما يفعل لأنه يعلم سابقا ما سيفعله الإنسان. كل هذه الأفكار تتعارض مع لغة الكتاب عن سيادة الله؛ وإذا سلمنا بها سنصل إلى النتيجة أن الكون في سيره وفي نهايته يعتمد علينا نحن البشر، بل وإن الله نفسه يعتمد على البشر! الحقيقة هي أن حياتنا نفسها تتوقف على الله ولا يمكن أن نعيش في استقلال عنه، وحريتنا ليست حرية مطلقة. ومع أن الله هو الوحيد الذي له مطلق الحرية، لكنها حرية تتناسب مع كمالاته وطبيعته، فهو لا يستطيع أن يكذب أو يفعل الشر لأنه هو القدوس المنزه عن الكذب.

من الجانب الآخر هناك من يؤكدون سيادة الله المطلقة، لكنهم في ضوء ذلك لا يستطيعون أن يجدوا مجالا لقدرة الإنسان على الاختيار، وينتهون إلى عدم المبالاة، أو الاستسلام كما لقدر بعيد؛ وهذا أيضا يتنافى مع ما يعلمه الكتاب.

إن محاولة فهم مسئولية الإنسان الشخصية وسيادة الله المطلقة بما يناسب المنطق البشري تماما تصل بنا إلى نتيجة غير صحيحة، فهي محاولة لإيجاد علاقة بين أمرين مختلفين في طبيعتهما، فالواحد زمني والآخر غير محدود بالزمن. المعادلة ليست أن الله قد يسود بنسبة ٨٠٪، فأكون أنا حر بنسبة ٢٠٪. هذا المنطق لا ينطبق مع أمور الله غير المحدود. ومما يعقد الأمر في مواجهتنا لهذه الحقائق أننا نحن البشر نميل عادة إلى تنسيق ما نؤمن به في نظام محكم دقيق، ليس به أي ثغرة[٣٨]، وليس به مجال للسرائر والمجهول وما فوق الادراك. نحن نريد حلولا نجد فيها جوابا لكل سؤال وفهما لكل أمر، ففي تفكيرنا المحدود نصمم أنه إذا كان الله يعرف قراري فلا يمكن أنه يكون باختياري، لكن هذه الصعوبة متعلقة بارتباط تفكيرنا بالزمان، فلو سألت هذا السؤال بالنسبة للماضي، وأعني بذلك إذا قلت أني تصرفت تصرفا باختياري في الماضي والله يعرفه، لما واجهنا مشكلة في ذلك لأن منطقنا المرتبط بالزمان يسمح بذلك. الحقيقة هي أن الله يرى المستقبل كما يرى الماضي والحاضر، ولا يستطيع أحد منا أن يفهم هذا بالكامل. ليس المقصود أننا نقبل أمورا تتنافى مع العقل وتناقضه، بل إن واجبنا هو الاتضاع والإقرار بأن هناك ما لا نفهمه لأننا نتعامل مع إله أعظم من عقولنا في جوهره وطبيعته وفي وجوده وعدم محدوديته.

الحقائق واضحة في الكتاب المقدس: الله يهيمن على العالم بسيادته ولا شيء يخرج عن تحكمه. كذلك فالإنسان مسئول ويتصرف بحرية بدون قسر أو إجبار. لكن تحار عقولنا بين الإقرار بالحقائق من ناحية، وعدم استيعابنا لكيفية تواجدها معا من الناحية الأخرى. ربما يكمن سبب رفض البعض لهذه الحقائق، كما هي، في عدم الإيمان بصلاح الله ومحبته وقدرته، وعدم الثقة بأن الله يفعل الكل بحكمة فائقة، لمجده وخيرنا. من ثَمَّ يريد الإنسان أن يتأكد أنه هو الذي يمسك بزمام الأمور، ويظن أنه بذلك سيحقق ما هو أفضل له. أو قد يكون السبب في رفض الحقائق هو كبرياء الإنسان، إذ يريد أن يكون مستقلا عن الله ومتمركزا حول نفسه. إن الإيمان والثقة في شخص الله المعلن في الكتاب المقدس تجعلنا لا نُصرُّ على السؤال "كيف" يمكن تواجد هذه الحقائق معا، بل يجعلنا نتضع ونفرح بسيادة الله، كما يشجعنا أن نقوم بمسئوليتنا تحت سلطانه.

نحن كمسيحيين نقبل أمورا أخرى عسرة الفهم كعقيدة التثليث، فنقر بأن الله "واحد في الجوهر" و"مثلث الأقانيم"، وهذه الأمور تفوق مداركنا لكنها ليست متناقضة. كذلك في موضوعنا هذا، الله عالٍ ومرتفع وسيادته مطلقة، وهو أيضا قريب للغاية ويتعامل معنا بطريقة شخصية، ونحن أحرار فيما نختار، ومسئولون عن تصرفاتنا أمام الله.

هل يصعب على من خلق الكون من عدم أن يسود عليه دون أن يخل بالقوانين الطبيعية التي وضعها له، وبدون قسر وإرغام للإنسان الذي خلقه على شبهه؟ لا يصعب على هذا الإله السامي أن يحتوي كل ما يحدث في الزمان في قصده وقضائه دون أن يقلل من قدرة الإنسان وفرصته في الاختيار، لكن يصعب على الإنسان المحدود أن يفهم كيف يمكن هذا. لذلك إذ يؤكد الكتاب المقدس سيادة الله ومسئولية الإنسان، كليهما، علينا أن ندرب أنفسنا على قبول الحقيقتين بنفس الدرجة ولا نتعدى حدودنا سواء بمحاولة توفيقهما بما يتناسب مع المنطق البشري، أو بالانشغال الزائد لمعرفة ما قضى الله به. الله سيد بالكامل، ويحقق إرادته دائما، والإنسان يقوم باختياراته برغبته وإرادته بدون قسر أو إكراه. أعتقد أن المفتاح للتعامل مع مثل هذه الأمور هو أن نفهم ونطبق التعليم كما يوجهنا الكتاب المقدس وفي الإطار الذي يحدده، مع الالتزام بالكتاب كله وتجنب أي استنتاج يتعارض مع تعاليم أخرى، وسنتوسع في هذا الشأن عندما نعتبر مجالات التطبيق المختلفة.

ليس القصد من التعليم عن سيادة الله هو تشويشنا أو تزويدنا بمعرفة نظرية، ولا هو لإشباع حب استطلاعنا، لكنه لفائدتنا، إذ أن التطبيق العملي الصحيح لهذا التعليم يؤدي إلى أن نعطي المجد لله، ونتضع أمامه، ونخضع له، ونطمئن في حماه. من الناحية الأخرى، أعطانا الله القدرة على الاختيار، وعلينا أن نأخذ مسئوليتنا في التصرف مأخذ الجد، ونقوم بدورنا في الحياة كأبناء لله، ونسلك في إطار إرادة الله المعلنة بحكمة وتقوى. وبينما نفعل هذا نعيش أمام وجه الله فرحين بالحياة تحت سيادته، وممجدين الملك العظيم الذي "منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد. آمين" رو ١١:٣٦.

٤

الألم وسيادة الله

لا تخلو حياة الإنسان من اختبار الألم، وكلما كبر الشخص في العمر يزداد احتكاكه بالألم من خلال ما يمسه شخصيا، أو ما يلحق بالأقرباء والأصدقاء في محيطه. البعض يصارعون مع أمراض خطيرة، وآخرون يعانون من أمراض مزمنة. هناك إصابات جسيمة نتيجة لحادث أو مرض ما. هناك آلام أسر تتفكك، وأولاد يضلون الطريق. طفل يصاب بمرض خطير، وآخر يولد بتشوهات. أمّ تتألم لموت صغيرها، وأولاد يفقدون أهلهم في سن مبكر. أحباء لنا يموتون؛ وكل موت لكبير أو صغير مؤلم للغاية ... والقائمة كبيرة ...

لا يمر يوم دون أن نسمع في وسائل الإعلام عن مآس وآلام في أماكن مختلفة من العالم، من كوارث طبيعية مثل الأعاصير والزلازل، لأخبار عن أوبئة ومجاعات وأمراض؛ بالإضافة لما يسبّبه البشر لبعضهم من حروب وإبادة جماعية وقتل وإرهاب واغتصاب.

بعض الجرائم بها من البشاعة ما لا يتصوره العقل: أطفال يقتلون أطفالا، أمهات وآباء يقتلون أبناءهم، وغير ذلك الكثير مما تستنكره النفس بشدة ويتجمد الفكر أمامه. توجد شرور نعلم بوجودها لكن نسمع القليل عنها مثل التجارة في الجنس واستغلال الأطفال بالعمل الذي لا يتناسب مع سنهم وطاقتهم. هناك من يُذبحون أو يقتلون أو يعانون التعذيب من أجل إيمانهم في بلدان كثيرة. وأينما كنا فنحن نسمع كل يوم عن حوادث طرق .. حوادث قتل وسرقة وغش ... والقائمة تطول ...

كثيرون يعانون من الألم والضيق الداخلي بسبب سوء المعاملة من القريبين أو البعيدين، بين أفراد العائلة أو في العمل. قد تُقال لنا كلمة جارحة تؤثر فينا بشدة، أو نلاقي ظلما من آخرين ونشعر بالإحباط واليأس. هناك ألام تنتج عن أمراض نفسية، وجروح تنزف بسبب علاقات مكسورة بين أفراد الأسرة أو بين العائلات أو الأصدقاء. والبعض تحت طائلة المشاكل والآلام يعانون من الاكتئاب أو صغر النفس، ومنهم من لا يرى للحياة طعما أو معنى.

ربما كلنا بين الحين والآخر يعاني من الوحدة والخوف، من القلق والشكوك، من السقوط في الخطية والشعور بالذنب، من العمل المتراكم وضغوط الحياة المختلفة، ومن التعب اليومي والإعياء.

بالطبع ليست تلك هي الصورة الكاملة لعالمنا. ربما يعيش الكثير من القراء في راحة نسبية؛ لكن إلى جانب ما سبق ذكره، هناك أعداد كبيرة من الناس يعيشون حياتهم في معاناة يومية. كذلك كلنا يعلم أنه لا بد أن يأتي وقت نواجه الألم شخصيا، وما من أحد لا يتعرض - مع مرور الزمن - للمرض أو الضعف الجسدي، أو فراق أحباء، أو مواجهة الموت ذاته.

كما يحيرنا ويحبطنا ما نراه أو نقابله من آلام وشرور نجد رجال الله في الكتاب المقدس يتعرضون لنفس الآلام، ويصارعون مع نفس المشاكل؛ فيبكون وينوحون، يمزقون ثيابهم ويرثون. وكل اختبار نمر به، هناك من مروا بمثله: "لم تصبكم تجربة إلا بشرية" ١كو١٠:١٣. العديد من المزامير به صرخات من القلب بسبب المعاناة والإحباط، وصلوات استغاثة بالله للإنقاذ من الألم ومن الأشرار.

غالبا يرتبط الألم في أذهاننا ببعض الشخصيات من الكتاب المقدس، مثل "أيوب" الذي يناجي الله في أصحاحات عديدة ويريد أن يفهم لماذا يتألم. كذلك تعرض "إرميا" النبي لضيقات كثيرة وآلام سافرة وهو يقدم رسالة الله للشعب: وُضع في السجن، وألقي في جب به ماء فغاص في الوحل. قاومه الملوك ورجال الدين والأنبياء الكذبة وكافة الشعب. إلى جانب هذا تألم إرميا كثيرا من أجل شعبه المتمرد الذي كان يصر على عناده، وبات عقاب الله لهم بالسبي أمرا أكيدا. وبسبب الدموع والبكاء والرثاء يُطلَق على إرميا "النبي الباكي"[١].

أيضا في سفر "حبقوق" نجد النبي متحيرا، فقد بدا له أن الله يترك الشر والظلم يتفاقمان في يهوذا بدون أن يتدخل ليخلص الصدّيقين! "حتى متى يارب أدعو وأنت لا تسمع؟ أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلص؟ لِمَ تريني إثما وتبصر جورا .." حب١:٢-٤. وقد أجاب الرب حبقوق برسالة صعبة الاستيعاب والتصديق، فالرب سيعاقب شر يهوذا باستخدامه لأمة الكلدانيين (بابل) لتأديب شعبه. زاد هذا من حيرة النبي إذ لا يفهم كيف يعاقب الله شعب إسرائيل بأمة الكلدانيين التي هي أسوأ حالا (الأمة المرة القاحمة)، ويتابع حبقوق

بأسئلة أخرى يرفعها إلى الله: "عيناك أطهر من أن تنظرا الشر ولا تستطيع النظر إلى الجور، فلِمَ تنظر إلى الناهبين وتصمت حين يبلع الشرير من هو أبرّ منه" حب١:١٣.

وعامة لاقى معظم الأنبياء مقاومة وهم يعلنون رسالة الله؛ "خذوا يا إخوتي مثالا لاحتمال المشقات والأناة الأنبياء الذين تكلموا باسم الرب" يع٥:١٠. لم يَقبل الشعب ما كانوا يتنبأون به، واضطهدوهم وأوقعوا الأذى بهم[٢]. يرينا العهد الجديد أيضا كم تألم الرسل وهم ينشرون الكلمة، بضربات وسجون، بالجلد والرجم، في تعب وكد؛ ومات الكثيرون منهم من أجل الشهادة ليسوع. لكن لم يتألم أحد مثلما تألم "البار" الذي ذاق ألم الموت لأجلنا، "لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد أن يُكمِّل رئيس خلاصهم بالآلام" عب٢:١٠.

وأمام الألم والضيق تحار العقول، ولا سيما بين الذين يؤمنون بمحبة الله الكاملة وقدرته الفائقة وسيادته على كل الأمور. وهنا نسأل، هل يلقي الكتاب المقدس ضوءا على هذا الموضوع الحساس والمحيّر؟ كيف نقيّم موضوع الألم في ضوء سيادة الله؟ ومن الناحية العملية، هل هناك ما يساعدنا ونحن نواجه الألم؟ سنعالج هذه الأسئلة تحت العناوين:

١. ماذا تعلمنا كلمة الله بخصوص الألم؟
٢. علامات استفهام حول الألم – كيف نقيّم؟
٣. كيف نواجه الألم؟

١. ماذا تعلمنا كلمة الله بخصوص الألم؟:

يعامل الكتاب المقدس الألم بجدية تامة، وليس هناك أى استخفاف بآلامنا ولا بما يحدث من شرور في العالم. وبالرغم من أننا لا نجد في الكلمة المقدسة جوابا لكل سؤال يرد على أذهاننا بخصوص الألم فإن رسالة الكتاب المقدس ككل تساعدنا في تقييمنا لموضوع الألم وما يجري حولنا، وتشجعنا في مواجهة الصعوبات والشدائد في حياتنا، وتدفعنا إلى علاقة أعمق مع الله حتى في الآلام. إلى جانب هذا هناك أجزاء كثيرة في الكتاب تعلمنا دروسا خاصة عن الألم؛ وفيما يلي أعرض بعض تعليم الكلمة المقدسة قي هذا الصدد:

أ. علاقة الألم بالخطية والشر

رأينا في الفصل الأول أن الله خلق كل شيء حسنا، لكننا كجنس بشري تعدينا الوصية وسقطنا في الخطية، ونحن جميعا مسئولون عن حالتنا وما أصابنا[٣]. العالم في وضعه الحالي يعكس ما أسفر عنه السقوط من نتائج، لكننا أحيانا لا نفرق بين ما نحن عليه بالخليقة وما نحن عليه بالسقوط، فنفكر أن الأرض وما بها من فساد، والإنسان وما به من ضعف وشرور، يرجع كله إلى ما خلق الله؛ ومن ثم يلوم الإنسان الله بسبب الألم، ونسمع التساؤل: "لماذا خلق الله العالم هكذا؟"

الحقيقة هي أن الله صالح وليس هو السبب في أي شر يحدث. هو خلق العالم حسنا وصنع الإنسان مستقيما ونحن الذين تمردنا وطلبنا الشر[٤]، لذلك فاللوم يقع علينا وليس على الله. ما نحن عليه وما الأرض عليه الآن هو الخليقة الساقطة الواقعة تحت قصاص الله العادل. كل ضعف بنا عندما نولد، وكل ما نراه من شر في الإنسان، هو الصورة المشوهة التي نتجت عن السقوط؛ وفي كل يوم نعيشه يعمل الفساد والفناء في جسدنا[٥].

الكثير مما نراه من ألم في العالم يسببه الإنسان "الساقط" لنفسه ولغيره، فالعالم يعمُّه الطمع والاستغلال والأنانية. الأرض بها موارد وخيرات تكفي جميع سكان العالم، ومسئوليتنا كبشر أن نحرص على التوزيع العادل للموارد، لكن الدول الكبيرة لا تعبأ بالدول المحتاجة، والغنيّ يزداد غنى والفقير يزداد فقرا. وفي معظم دول العالم نجد فاصلا كبيرا بين من يملكون الثروة ومن يفتقدون للحاجات الأساسية في الحياة. كذلك يلحق الناس غيرَهم بالأذى: بالسرقة والقتل والاغتصاب والعنف والظلم وما شابه. أحيانا يسبب الإنسان الألم لنفسه بعناده وشره وجهالته، مثل الإصابة بأمراض تنتج عن التدخين والمخدرات، وأخرى تنتشر بسبب ممارسة الجنس في علاقات متعددة وخاطئة، أو بسبب ممارسات الشذوذ الجنسي.

نحن المؤمنين أيضا نسبب آلاما لأنفسنا ولغيرنا بدرجات متفاوتة. قد نؤذي آخرين بكلمات جارحة، أو أنانية في التصرف، أو بالسقوط في خطايا ملموسة أكثر مثل السرقة والكذب وعدم النزاهة والنقص في العفة. بعض الخطايا لها تبعيات أليمة على الأسرة والأولاد والمجتمع الذي نعيش فيه؛ وقد تمتد نتائجها في المستقبل لأجيال قادمة.

كذلك الأرض بما تعطينا من حسك وشوك تعكس ما أصابها عندما تعدى الإنسان الوصية وتمرد على الله؛ فالخليقة أخضعت للبطل، وهي الآن ترزح تحت عبودية الفساد[٦]. والإنسان الذي عهد الله إليه أن يهتم بالأرض ويعملها - مع أنه يحقق قدرا كبيرا في هذا المجال - نراه في أحيان كثيرة لا يعبأ بخير المسكونة لأسباب أنانية، فيتسبب في إحداث آثار سلبية على البيئة، مما ينعكس على البشرية بنتائج وخيمة وآلام متعددة.

إن الألم هو جزء لا يتجزأ من اختبار البشرية الساقطة، وتصف الكلمة المقدسة هذه الحالة العامة بأن "كل الخليقة تئن وتتمخض معا إلى الآن. وليس هكذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضا نئنّ في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا" رو٨:٢٢-٢٣. لكن أنين الخليقة ليس أنينا يائسا، بل فيه انتظار لحادث سعيد وترتيب جديد مجيد كما تفيد الكلمة "تتمخض". إن الخليقة تئنّ في توقعٍ لكمال الفداء واستعلان أبناء الله؛ ونحن نئنّ في انتظارٍ للرجاء المبارك عندما تُفدى أجسادنا ونلبس صورةً السماوي، ونرى الرب المنتصر وجها لوجه، ونكون كل حين معه إلى الأبد.

إلى جانب علاقة الألم بالسقوط، فالشيطان أيضا له دور في معاناة البشر كما كان له دور في سقوطنا. إنه الشرير الذي لا يحب الخير والحق بل يصدر عنه كل شر وضلال؛ هو يُبقي من يتسلط عليهم في ظلام روحي ينتج عنه التخبط واليأس، ويستخدمهم للهدم والخراب وإلحاق الأذى بالآخرين. بالإضافة، هناك عداوة بين إبليس وأتباع الرب. إبليس يشتكي علينا ويريد أذيتنا. هكذا يَعزي الكتاب أحيانا سبب الألم لعمل الشيطان مثل ما حدث في حالة أيوب إذ اشتكى عليه. ويقول الرب يسوع عن المرأة المنحنية أن الشيطان ربطها ثماني عشرة سنة. كذلك وإن كان الرسول بولس قد أدرك حكمة الله في إعطائه شوكة في الجسد لتقديسه وحفظه متواضعا، إلا أنه رأى أنها عمل الشيطان إذ يطلق عليها "ملاك الشيطان". لكن الشيطان وكل قوى الشر وأتباعهم من البشر لا يمكن أن يفعلوا أي شيء إلا بسماح من الله وفي الحدود التي يضعها[٧]، فالله هو السيد المتحكم، وهو أمين، لا يدعنا نُجرّب فوق ما نستطيع بل يجعل مع التجربة أيضا المنفذ لنستطيع أن نحتمل[٨].

يحاول الشيطان دائما أن يوقعنا في الخطية، وهو - مع جنوده - يشنّ علينا حربا ضارية بالمكيدة والخداع، "فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات" أف٦:١٢. هذه المصارعة ليست بالأمر الهيّن، وقد تسبب لنا ألما وضيقا؛ ويتزايد الألم عندما نضعف ونسقط في الخطية. لكن لا ننسى أن النصرة النهائية هي لنا، إذ نحارب بسلاح الله الكامل وفي قوة قائدنا المنتصر الذي يصلي من أجلنا حتى نثبت. قال الرب لبطرس "سمعان سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" لو٢٢:٣١-٣٢. لقد تعرض بطرس لتجربة قاسية، ضعف أمامها وأنكر سيده مما سبب له ألما مريرا: "خرج بطرس إلى خارج وبكى بكاء مرّا" لو٢٢:٦٢. لكن الرب الذي طلب لأجله ردّه إليه وأقامه وثبّته للنهاية.

وإن كان الألم يرتبط بالخطية ارتباطا وثيقا، إلا أن ذلك لا يعني التعميم بأن كل متألم لا بد أنه جلب على نفسه الألم كعقاب وكنتيجة مباشرة لخطيته هو. هذا ما قد يراود الذهن عندما نتعرض للألم إذ نعتبره عقابا من الله على خطأ اقترفناه، وهذا ما افترضه أصدقاء أيوب خطأ ووبخهم الله عليه[٩]. بهذا الافتراض جاء التلاميذ إلى الرب يسوع يسألونه بخصوص المولود أعمى "يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟" أجاب يسوع "لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه" يو٩:٢-٣. كانت المعجزات التي عملها المسيح تشهد عن قدرته وإلوهيته؛ "إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه" يو١٠:٣٨. ربما أدرك المولود أعمى أن الله استخدم عِلّته للإعلان عن مجد ابنه.

أيضا عندما جاء قوم إلى الرب وأخبروه عن المأساة التي حدثت لبعض الجليليين إذ خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم، أجاب يسوع "أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لأنهم كابدوا مثل هذا. كلا أقول لكم. بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" لو١٣:٢. أعطى الرب مثالا آخر عن ثمانية عشر

شخصا سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم. مرة أخرى أفاد الرب أنهم لم يكونوا مذنبين أكثر من غيرهم، ووجّه الفكر لضرورة التوبة والتغيير للجميع وإلا فالنتيجة النهائية ستكون الهلاك[١٠].

ما سبق لا ينفي أن الألم قد يكون نتيجة مباشرة للخطية. إن الله طويل الروح وكثير الرحمة وهو يتأنى ويعطي الإنسان فرصة بعد الأخرى للتوبة والرجوع إليه، لكنه في سيادته على كل ما يحدث قد يجلب العقاب مباشرة على خطيةٍ ما مثل ما حدث لمدينتي سدوم وعمورة، إذ يذكر الكتاب أن ما أصابهما كان عقابا على شر الساكنين هناك[١١]. كذلك كان موت الابن الذي وُلد لداود من بثشبع عندما زنى معها قصاصا من الله على ما فعل داود[١٢]. في تلك الحالات نحن نعرف عن الارتباط المباشر بين الألم والخطية المعينة لأن ذلك معلن في الكلمة المقدسة، أما في وقتنا الحاضر لا يمكننا أن نعرف قصد الله تحديدا فيما يجري، ولا أحد منا يعلم إذا كانت كارثة ما قصاصا مباشرا من الله على خطية معينة ارتكبها الشخص المصاب أو المجموعة المنكوبة.

عندما نقيّم مشكلة الألم غالبا نكون متأثرين بما يصيبنا أو يصيب غيرنا من مشاكل زمنية أو جسدية أو نفسية، وربما ننسى الورطة الكبرى التي وقعنا فيها من جراء الخطية. في الواقع إن حالة الإنسان الخاطيء بعيدا عن الله وتبعيات ذلك هي أكبر مشكلة تورط فيها الجنس البشري، وإن كان كثيرون يحاولون دفنها في الرمال ليعيشوا حياتهم كما لم تكن. لكن لا يمكن للإنسان المذنب الهارب من خالقه والواقع تحت قصاصه أن يتمتع بالسلام والطمأنينة الداخلية والراحة الحقيقية بدون علاج لهذه الأزمة. الاحتياج الأول للنفس البشرية هو غفران الخطية والمصالحة مع الله والتحرير من عبودية إبليس. هذا يقودنا إلى الحل الذي قدّمه الله لخلاص البشر.

ب. علاج الله لمشكلة الخطية والألم

عالج الرب مشكلة سقوطنا وكل ما نتج عن ذلك في خطة حكيمة لخلاص البشرية، في مركزها مجيء المسيح إلى عالمنا ليحقق الفداء. ومنذ السقوط، والله يعمل بقوته العظيمة محققا الخلاص واسترداد ما فقد في جنة عدن، بل ومنح البشرية بركات تفوق ما فقد في الجنة ليكون الكل في النهاية جديدا مجيدا. يحقق الله هذه الخطة بسيادته الكاملة بتوقيت محكم دقيق، مستخدما كل شيء - بما في ذلك الشر والألم - لإتمام مقاصده.

يعتمد خلاص الله للإنسان على نعمته المجانية، لكن هذه النعمة المقدمة لأناس خالفوا شرائع الله وتمردوا على أحكامه لا تعني أن الله تنازل عن مطلب البر أو أن هناك أي مساومة في قداسته وعدالته، فخطته لفداء البشرية تنبع من محبته الكاملة وتتناسب مع قداسته الرهيبة وتفي عدله البار. وبسبب تعودنا على رسالة الكتاب ومعرفتنا بها قد نفقد روعة وعظمة وهيبة ما عمله الله لأجلنا، فالحل الذي قدمه الله لمشكلة الخطية والألم ليس رخيصا، بل فيه من التنازل والسخاء والتضحية ما يفوق كل تصور، وفي جوهره تأمين بديل للخاطيء تتحقق فيه كل مطالب الله العادلة إذ "ارتأى الله أن يوجه ضد نفسه بالذات في شخص ابنه مجمل ثقل ذلك الغضب العادل الذي استحقه البشر"[١٣].

لا تقتصر بركات الخلاص للمؤمنين على غفران الخطايا والنجاة من العقاب، فالله يحرر الإنسان من ذنب الخطية وسلطانها، ويعطيه خليقة روحية جديدة تعكس بر الله وقداسته، فيرجع الإنسان للعلاقة مع جلاله بما يعني ذلك من حياة أبدية وبركات غنية في المسيح. وتشمل خطة الخلاص معالجة كل المشاكل التي نتجت عن تمرد الإنسان، بما في ذلك الألم والفساد في البشر وفي الخليقة. فالخلاص يشمل فداء الجسد وعتق الخليقة كلها من الفساد إلى الحرية والمجد، وإن كانت هذه أمور مستقبلية تتم عند مجيء ربنا ومخلصنا يسوع المسيح في مجده؛ وعندئذ سنتمتع بترتيب جديد خال تماما من الخطية والشر، إذ سيُطرح الشيطان وأعوانه وغير المؤمنين في بحيرة النار. هناك في المجد سيسكن الله مع شعبه، ويمسح كل دمعة من العيون، والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت[١٤].

إن الله في علاجه لمشكلة الخطية والألم لم يقف بعيدا عنا وعن آلامنا، بل جاء إلينا في شخص ابنه الحبيب الذي نزل من السماء وجاء إلى أرضنا وعاش في عالمنا الشقي لينقذنا ويحقق لنا الفداء بموته على الصليب وقيامته، ليكون هذا هو السبيل الوحيد لعلاج مشكلة الشر والخطية والألم. "بجلدته شفيتم". نحن في آلامنا نأتي للرب الذي اختبر الألم والحزن في أشد الدرجات؛ هو يعرف تماما ما نمر به، بل وقد قاسى أكثر من جميعنا عندما حمل خطايانا طوعا واختيارا، ووقع عليه عقاب عصياننا وتمرّدنا على الله. قال عنه

إشعياء بروح النبوة: "رجل أوجاع ومختبر الحزن" إش٥٣:٣. كل ذلك حتى نتمتع نحن بالحرية والغفران. أذكر فيما يلي لمحات من الآلام التي اجتازها ربنا ومخلصنا يسوع:

رجل أوجاع ومختبر الحزن:

يسمى الأسبوع الأخير من حياة الرب يسوع على الأرض "أسبوع الآلام"، لأن فيه قاسى الرب آلاما رهيبة - لا نعرفها نحن في الاختبار - سواء كان في جثسيماني أم أثناء المحاكمات ولكن بصفة خاصة على صليب الجلجثة. لكن لم يكن الألم في حياة الرب على الأرض محصورا في ذلك الأسبوع؛ ولأنه إله كامل وإنسان كامل، ففي إنسانيته اختبر كل آلام البشر - "مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية" عب٤:١٥.

خدمة يسوع: في بداية خدمته، اجتاز الرب بامتحان صعب ومنهك إذ بعد أن اعتمد من يوحنا المعمدان اقتيد يسوع بالروح للبرية الموحشة ليجرب من إبليس. يقول الكتاب "وللوقت أخرجه الروح إلى البرية. وكان هناك في البرية أربعين يوما يُجرّب من الشيطان" مر١:١٢. لم يأكل الرب شيئا في تلك الأيام. ومع التعب المنهك والجوع الشديد وجد الشيطان فرصة سانحة ليشن هجماته ويجرّب الرب، محاولا أن يشككه في شخصه وعمله. أعلن الآب في المعمودية "أنت ابني الحبيب"، وجاء إبليس ليشكك في مصداقية حب الآب ورضاه، قائلا "ان كنت ابن الله ..". أعلن الآب سروره بطاعة الابن واتضاعه، وحاول الشيطان أن يثنيه عن دور العبد المتألم ليملك بطريق آخر! لكن الرب رفض اقتراحات إبليس الماكرة وانتهره ليذهب عنه. كان الرب ينعم دائما بالشركة مع أبيه السماوي وعنايته به، لكن هذا لا يقلل من صعوبة تلك الفترة وقسوة التجربة فيها. لم تنته تجربة الرب هذه بنفس النتيجة التي انتهت إليها تجربة آدم الأول، بل انتصر آدم الأخير على إبليس انتصارا كاملا في أول خدمته، وفي كل حياته. لقد تركه الشيطان إلى حين ثم عاد يهاجمه بطرق شتى محاولا أن يثنيه عن طريق الصليب، لكن بدون جدوى.

بالإضافة لما سبق، عاش الرب حياة بسيطة. لم يكن له أين يسند رأسه، وكان يعتمد على آخرين في سد احتياجاته المادية. تعب من السفر. بكى عند قبر لعازر، وأيضا بكى على مدينة أورشليم العاصية التي لم تعرف زمان افتقادها وكان ينتظرها الخراب والدمار[١٥]. كان في خدمته يتحمل إهانة المقاومين، وإذ شتم لم يكن يشتم عوضا، وإذ تألم لم يكن يهدد بل كان يسلم لمن يقضي بعدل. أُسيء فهمه وفهم تعليمه وأعماله، واتُّهم بأنه أكول وشريب خمر. قالوا عنه أنه مضل وبه شيطان. قوبل بالرفض والعداء من كثيرين. كانت السلطة الدينية اليهودية تبغضه وتخطط لموته؛ لفّقوا له تهما وأشاعوا عنه أكاذيب. لم يكن إخوة يسوع يؤمنون به في بدء خدمته، لكنهم آمنوا به بعد قيامته[١٦] اختار الرب له تلاميذ، واتخذ منهم أصدقاء أحباء، لكنهم كانوا بطيئي الفهم ولم يدركوا معنى إرساليته إلا بعد موته وقيامته وحلول الروح القدس عليهم. كذلك تعرض الرب للخيانة والإنكار من المقربين إليه، وفي أحلك الأوقات تركه الجميع وهربوا.

بالرغم من الألم في حياته، كان الرب يسوع يتمتع دائما بالفرح الداخلي الذي ينبع من طاعته للآب وعمله مشيئته؛ "أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت" مز٤٠:٨ (راجع عب١٠:٥-٧). وهو الذي قال "طعامي أن أفعل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله" يو٤:٣٤. كذلك يصفه الكتاب وهو يصلي أحد صلواته بالقول "تهلل يسوع بالروح .." لو١٠:٢١. ليس ذلك فقط لكن الرب يسوع هو مصدر الفرح والسرور لمن يثبت فيه: "كلمتكم بهذا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم" يو١٥:١١.

جثسيماني: بعد الفصح، وإذ علم الرب يسوع أن ساعته قد جاءت ليصلب، ذهب مع المقربين منه ليصلي. كانت نفسه حزينة حزنا لا يعبّر عنه، ولم يستطع التلاميذ الذين كانوا معه أن يسهروا لمساندته في ذلك الوقت العصيب. يرينا الصراع الرهيب في جثسيماني كم كانت الكأس التي سيشربها مُرّة، فما أصعب أن يتلطخ القدوس البار بقذر الخطية، ويحمل حملها الثقيل على كتفيه نيابة عنا، ويقع عليه قصاصها العادل. وفي إنسانيته ارتاع إذ رأي كأس غضب الله ينصب عليه بسبب الخطية، ومن ثم طلب بخضوع قائلا "يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس"، وفي تقواه عقّب بالقول "لكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك". وقد أعلن الآب سروره بطاعة الابن وأرسل له ملاكا يُقوِّيه[١٧].

المحاكمات: وقع الرب يسوع تحت الظلم المجحف وقت المحاكمات التي سبقت الصليب. جاء البعض بشهادة زور ضده. لُطم بدون سبب. تعرض للتعذيب والازدراء بالجلد والضرب والهزء. هذا بالإضافة إلى الألم من رؤية الجموع الذين علمهم وأشبعهم وشفى مرضاهم ينصاعون وراء تحريض رؤساء الكهنة والشيوخ

ليطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع، فكانوا يصرخون أمام بيلاطس "خذه ليصلب". وبالرغم من اقتناعه ببراءة يسوع، رضخ بيلاطس لضغوط رؤساء الدين ومن يتبعونهم من الشعب، وأسلم يسوع ليصلب[١٨].

<u>الصلب:</u> قاسى الرب يسوع آلاما مبرحة حين كان يُسمَّر في الخشب وعندما عُلِّق على صليب العار. كانت عملية الصلب فظة وخشنة وخالية من كل جوانب الإنسانية، لكن أصعب ما تحمله الرب هو أنه كان على الصليب يحمل مجمل إثمنا وخطيتنا، وتحمل كل ما يتبع ذلك من لعنة وقصاص. واجه الرب يسوع غضب الله المقدس المعلن على الخطية؛ وفي غضبه حوّل الآب وجهه عن ابنه الحبيب، البديل عنا، وصرخ المسيح صرخته المرة على الصليب: "إلهي إلهي لماذا تركتني" مت٢٧:٤٦.

تجرع المسيح كأس الغضب إرضاء للعدل الإلهي ليرفع الغضب عنا ونحظى نحن بالغفران والرضا والمصالحة. حزن الرب يسوع إذ حمل أحزاننا، توجع إذ تحمل أوجاعنا، تألم هو لنُرحم نحن. جُلد هو لنشفى نحن. مات لأجلنا وسفك دمه الكريم لكي نحيا نحن. لقد قدم المسيح على الصليب ذبيحة نفسه، ذبيحة واحدة كافية، ليكفر عن خطايانا، ودخل بدم نفسه إلى الأقداس فوجد فداء أبديا[١٩].

<u>النصرة:</u> بالرغم من كل الآلام التي اجتاز الرب فيها، فقد حقق ما جاء ليعمله، وانتصر على الشيطان وكل قوى الشر بحياته البارة وبموته البديلي وقيامته وصعوده وتتويجه[٢٠]. وقد بيّن الآب قبوله لما فعل المسيح نيابة عنا مقدما للجميع برهانا إذ أقامه من الاموات[٢١].

نحن نتمتع في الوقت الحاضر بفوائد كثيرة من ثمر عمل المسيح، إلا أن التحرير الكامل من الخطية يتم عند نهاية العالم. إن النصرة التي حققها الرب يسوع بالصليب والقيامة هي الضمان للنصرة النهائية عندما يأتي المسيح ليدين العالم. لن يكون في المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، أي شر أو دنس أو خطية، وسينتهي كل ألم ووجع ومعاناة[٢٢].

مهما كانت آلامنا فما قاساه المسيح بدلا عنا يعطينا سببا لأن نكون مدينين له بالشكر والعرفان، ويدفعنا للسجود والاتضاع أمام ذاك الذي أحبنا وأسلم نفسه لأجلنا. إنه رحيم عطوف يرثي لضعفاتنا، ويشعر معنا في كل ما نجتاز فيه، ويعيننا في آلامنا، ويعزي قلوبنا بروح قدسه[٢٣]؛ "لأنه في ما هو قد تألم مجربا يقدر أن يعين المجرّبين" عب٢:١٨. ودعوة الرب للجميع هي أن يأتوا إليه ويجدوا الراحة في شخصه:

> "تعالوا إليّ ياجميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب. فتجدوا راحة لنفوسكم. لأن نيري هيِّن وحملي خفيف" مت١١:٢٨-٢٩.

هناك راحة حقيقية في الإيمان بالمسيح والتعلّم منه والتمثل به. إن الحمل الذي نحمله ونحن مع المسيح أخف من الحمل الثقيل الذي يقع على أكتافنا بعيدا عنه، فبالإيمان بشخصه والاتحاد به نتخلص من ذنب الخطية، ونتمتع بالغفران والسلام، ونمتلئ بالفرح والرجاء، ونحظى بنصرة الرب المقام.

ت. العناية الإلهية

عرضت أمثلة من الكلمة المقدسة لأعمال العناية الإلهية في فصل "سيادة الله ومسئولية الإنسان"، مع التركيز هناك على الجمع بين سيادة الله والمسئولية البشرية (نظرية التزامن). وهنا أذكر أمثلة لأعمال العناية الإلهية تبين أنه بالرغم من الألم، وبالألم، يعمل الله بحكمة عظيمة وبتوقيت دقيق ليحقق الخير الأعظم لشعبه بالفداء والتحرير، وليحضر لنفسه كنيسة مجيدة مقدسة وبلا عيب. هناك خطة وهدف يعمل الله لتحقيقه، ولا شيء مما يجري يحدث بعشوائية أو بدون غرض أو فائدة.

نرى من الأمثلة التالية الألم الذي تعرض له بعض الأتقياء، وكيف أطاعوا الله وتمسكوا بإيمانهم حتى لو لم يفهموا مقاصد الله وهم في قلب الأحداث. وإذ نقرأ في الكلمة المقدسة ما حدث معهم وما آلت إليه الأمور ندرك أن الرب يعمل بحكمة لمجده وخير أولاده. إنه صالح ورحيم، دائما أمين، وجدير بالثقة في كل الظروف.

<u>إبراهيم:</u> كانت تعاملات الله مع إبراهيم بداية جديدة في تاريخ الفداء حيث دعاه الرب ليترك أرضه وأهله وعشيرته، ووعده بأرض ونسل من خلاله تتبارك جميع قبائل الأرض. كان إبراهيم يثق في الرب وفي مواعيده، لكن هذا لم يعفه من الألم، فقد ترك بيت أبيه ذاهبا إلى أرض بعيدة، بما يصاحب هذا من آلام الفراق واقتلاع الجذور والغربة. كذلك كان على إبراهيم أن يصبر مدة كبيرة - تعرض فيها ولا شك للصراع

والحيرة - منتظرا تحقيق الله لوعده بالابن الذي تلده له سارة. وعند امتحانه في تقديم ابنه محرقة، لا بد أنه كان مثقلا حزينا رغم إيمانه بقدرة الله على الإقامة من الأموات. في كل ذلك كان الرب يعمل بحكمة لتتميم مقاصده، كما كان يعمل في حياة إبراهيم للنمو والقداسة والبركة.

يعقوب: جاء أبناء يعقوب إلى أبيهم بقميص يوسف بعدما غمسوه بالدم حتى يظن يعقوب أن ابنه افترسه وحش رديء. "كان الله يعرف الحقيقة، وكان يحب يعقوب ويرى مذلته، لكنه لم يقل شيئا. لا بد أن يعقوب صرخ لله وسأل 'لماذا؟'، 'وماذا عن البركة التي وعدتني بها؟' لكن الله كان يُعدّ أمرا لخير يعقوب وعائلته في المستقبل. ولو كان يعقوب يدري أن ابنه حي لبدأ رحلة لإنقاذه. ولو حدث هذا فإنه كان يفسد خطة الله. لذلك التزم الله الصمت بالنسبة للأمر لمدة تقرب من عشرين سنة. وانتهى الصمت عندما قيل ليعقوب ابنك حي، وعندئذ ذهب إلى مصر حيث نجت عائلته من الجوع"[٢٤].

يوسف: لا بد أن يوسف أيضا كان يتحير مما يمر به من ظروف مؤلمة وما يراه مخالفا لأحلامه وتوقعاته، لكنه كان يثق في الرب ويخضع لسيادته وحكمته. وقد حقق الرب كل وعوده ليوسف في سياق الخطة الكبيرة لخلاص البشرية. تظهر العناية الإلهية في نتائج تلك الأحداث، فنجد يوسف وقد تعلم التواضع والاعتماد على الله من خلال الألم؛ كذلك تعامل الله مع إخوته وعلمهم درسا تظهر نتيجته في توبتهم وعدم تفريطهم في أخيهم بنيامين عندما كان يوسف يختبر التغيّر فيهم، وكانوا مستعدين للبقاء في مصر مع بنيامين عندما وُجد طاس الفضة في عدله. ولما رفض يوسف هذا الاقتراح، عرض يهوذا أن يبقى هو في مصر عوضا عن أخيه. ومع اعتراف الإخوة بالذنب وتوبتهم تمت المصالحة مع يوسف أخيهم. لكن الخير الكبير الذي كان الله يعمله هو أنه أرسل يوسف قدام إخوته لاستبقاء حياة لهذا النسل المقدس الذي سيأتي منه المسيح.

يوكابد وعمرام: مرّ هذان الأبوان بظروف صعبة جدا، فقد كان طفلهما الجميل تحت طائلة الموت بسبب أمر الملك. لكنهما بالإيمان أخفياه ثلاثة أشهر. وبعد أن أصبح إخفاؤه أمرا مستحيلا أعدت أم موسى سفطا (سلة) لابنها لتضعه في النهر. لا بد أن قلب يوكابد كان يعتصر وهي تعد ذلك السفط؛ لكنها هي وعمرام كانا يؤمنان بوعود الله، وعملا كل ما في استطاعتهما لحماية موسى وإنقاذه، ثم تركاه لعناية القدير[٢٥]. وقد رتبت العناية الإلهية أن تجده ابنة فرعون، وأن يرقَّ قلبها نحوه، وتدعو يوكابد لتكون لموسى مرضعة إلى أن كبر. كذلك كانت مقاصد الله العليا أن تأخذه بعد ذلك ابنة فرعون لها ابنا؛ وتَهَذَّب موسى بكل حكمة المصريين في قصور فرعون.

موسى: عندما كبر موسى لا بد أن حياته كانت ممزقة بين انتمائه لشعب الله الذي يذل ويهان، وبين القصر الذي عاش وتربى فيه، ومنه كانت الأوامر تصدر بتسخير أهله وعشيرته. لكن موسى فضل أن يُذل مع شعب الله:

> "بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعى ابن ابنة فرعون مفضلا بالأحرى أن يذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية حاسبا عار المسيح غنى أفضل من خزائن مصر. لأنه كان ينظر إلى المجازاة" عب١١: ٢٤-٢٦.

لاحقا هرب موسى إلى أرض مديان وعاش في البرية أربعين سنة. كان الرب يُعِدّ موسى في هذه السنين لقيادة شعبه وتحريره من العبودية. وعندما حان الوقت، أرسل الله موسى إلى مصر، وكانت مهمته مليئة بالصعوبات، فقد واجه مع هرون عناد فرعون وغضبه من جهة، ومن الجهة الأخرى كان الشعب يتذمر عليهما بسبب الضيقات التي كانت تتزايد عليهم. في نهاية الأمر خرج الشعب من مصر بقيادة موسى منتصرا، وقادهم الرب في البرية وأراهم مجده وعنايته، لكن هذه المدة طالت بسبب عدم الإيمان، كما أنها كانت شاقة ومؤلمة بسبب التذمر الكثير من الشعب. لقد "تأذى موسى بسببهم. لأنهم أمروا روحه حتى فرّط بشفتيه" مز١٠٦: ٣٢-٣٣. في تلك الحادثة عصى موسى الرب بأن ضرب الصخرة بعصاه مرتين بغضب، بينما كان أمر الرب له أن يكلم الصخرة فقط[٢٦]، وكانت النتيجة أنه حرم من الدخول إلى أرض الموعد.

بالرغم من كل ما تحمله، تمتع موسى بشرف كبير إذ اختاره الله ليقود شعبه في القديم وليقوم بدور كبير في تاريخ الفداء إعدادا لمجيء المسيا.

داود كان داود هو الملك الذي عيّنه الله ليكون مُلكُه بداية لأسرة حاكمة يأتي منها الملك المثالي (المسيا) الذي يملك ملكا أبديا. وقد خاض داود في اختبارات مؤلمة وضيقات كثيرة، سواء بسبب التبكيت على الخطية، أو ما كان يشعر به من وحدة وألم من جراء الوشاية به، والمطاردة له، والتهكم عليه، وتعرضه

للأذى من المقربين منه. وتبيّن لنا المزامير الصراخ والتضرع في وقت الألم: "خلصني يا الله لأن المياه دخلت نفسي .. تعبت من صراخي. يبس حلقي. كلت عيناي من انتظار إلهي" مز٦٩:١-٣.

وبالرغم من الألم والضيق في حياة داود، لم يكن الرب بعيدا عنه، بل كان معه، يسنده ويعضده. من ناحية أخرى فآلام داود كان لها مغزى عميق إذ فيها نرى ملكا عظيما يخذل ويتألم، إشارة إلى الملك الأبدي الذي جاء إلى عالمنا ليتألم من أجل خطايانا.

إن مقاصد الرب كلها صالحة، وعنايته تعمل في حياتنا للخير. وإذ يستخدمنا الرب لإكمال عمله على الأرض لا بد أن تتعرض الكنيسة للألم والاضطهاد من أجل اسمه.

ث. ألم الاضطهاد

إلى جانب الآلام التي تتشارك فيها البشرية، هناك ألم خاص "يوهب" للمؤمنين من أجل المسيح: "وُهِب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضا أن تتألموا لأجله" في١:٢٩. والألم لأجل المسيح هو نتيجة طبيعية لاتحادنا به. العالم يبغض المسيح، ولا عجب في أن يبغض أتباعه. قال الرب لتلاميذه:

> "إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضني قبلكم. لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته. ولكن لأنكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم لذلك يبغضكم العالم. اذكروا الكلام الذي قلته لكم ليس عبد أعظم من سيده. إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم" يو١٥:١٨-٢٠.

وبالفعل تعرض التلاميذ لمقاومة واضطهاد شديدين. سُجن البعض، رُجم استفانوس، وقُتل يعقوب أخو يوحنا بالسيف؛ ونعرف من التقليد أن كل الرسل – ما عدا يوحنا الذي نفي في جزيرة بطمس - استشهدوا من أجل المسيح. ومع ذلك اختبر تلاميذ الرب قوة الروح القدس في وقت الاضطهاد، يشددهم ويساعدهم ويعزيهم. يقول الكتاب عن الرسل بعد أن لاقوا مقاومة من اليهود وتعرضوا للحبس والجلد: "وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه" أع٥:٤١. أيضا استطاع استفانوس بقوة الروح أن يصلي من أجل من كانوا يرجمونه، متمثلا بربنا يسوع المسيح[٢٧].

بعد قتل استفانوس "حدث .. اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم، فتشتت الجميع .. ما عدا الرسل"، لكن الرب استخدم الاضطهاد والتشتت لانتشار الإنجيل: "فالذين تشتتوا جالوا مبشرين بالكلمة" أع٨:١، ٤. في كثير من الأحيان يؤدّي تعرض الكنيسة للاضطهاد إلى نموها وتقويتها. من الناحية الأخرى، كلما زاد حرص الكنيسة على التمسك بتعاليم المسيح واتباع خطواته، غالبا ما تشتد الحرب عليها ويزيد الاضطهاد. و"جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يضطهدون" ٢تي٣:١٢.

تعرض الرسول بولس – الذي كان سابقا يضطهد كنيسة الله بإفراط ويتلفها - لآلام كثيرة في خدمته وكرازته، لكنه أظهر ثقته ورجاءه بالرب، وكتب:

> "في كل شيء نظهر أنفسنا كخدام الله في صبر كثير في شدائد في ضرورات في ضيقات في ضربات في سجون في اضطرابات في أتعاب في أسهار في أصوام .."، ثم يواصل "كحزانى ونحن دائما فرحون. كفقراء ونحن نغني كثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء"[٢٨] ٢كو٦:٤-١٠.

إلى جانب ما سبق، وضع كثيرون حياتهم من أجل المسيح والإيمان به في القرون الثلاثة الأولى حيث أوقعت السلطة الرومانية اضطهادا شرسا على الكنيسة. وفي كل العصور، وإلى وقتنا الحاضر، يقع الاضطهاد على الكنيسة بدرجات متفاوتة في كثير من بلدان العالم؛ وفي البعض منها يتعرض المسيحيون لقمع وتعذيب وقتل واستهداف مستمر بسبب اسم المسيح الذي دعي عليهم.

إن دعوتنا هي أن نتبع المسيح الذي تألم: "لأنكم لهذا دعيتم. فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكي تتّبعوا خطواته" ١بط٢:٢١. كل ألم نتألمه بسبب كوننا مسيحيين، سواء كان اضطهادا مباشرا بالسجن والتعدي والقتل، أو اضطهادا مخفيا في صورة تمييز ضدنا في العمل أو فرص الدراسة، أو منعنا من نشر الإنجيل، يُعتبر شرفا لنا لدلالته على اتحادنا بالمسيح واشتراكنا في آلامه؛ وفي هذه الظروف نستطيع أن نقول مع الرسول بولس "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبها بموته" في٣:١٠. لا نستغرب إذن عندما نتعرض لألم الاضطهاد:

"أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب. بل كما اشتركتم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضا مبتهجين. إن عُيِّرتم باسم المسيح فطوبى لكم لأن روح المجد والله يحل عليكم" ١بط٤:١٢-١٤.

الألم ليست له الكلمة الأخيرة، ففي الآية السابقة وفي كثير من أجزاء الكتاب المقدس نجد الألم والمجد يقترنان معا، ومعهما الفرح والابتهاج. "إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضا معه" رو٨:١٧. وأيضا قال الرب: "طوبى لكم إذا عيّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات" مت٥:١١-١٢. ليس معنى ذلك أننا نفرح ونتلذذ بألم الاضطهاد، أو نسعى نحوه، وإنما تُعلمنا الكلمة المقدسة أن هناك ما يدعو للفرح عندما نضطهد من أجل المسيح، إذ نُحسب أهلا لشركة آلامه ونتطلع للمجد العتيد أن يستعلن فينا.

كما كانت آلام المسيح تحت سيادة الله الكاملة وكان ثمرها الفداء، كذلك فآلام المؤمنين هي تحت سيادته. ويستخدم الرب ألم الاضطهاد ومقاومة الإنجيل ليقوي أبناءه ويمتحنهم حتى يزكّيهم لتمسكهم به في وقت الألم. في ذات الوقت يعطينا الرب اليقين أنه معنا، يحفظنا ويحمينا، ويمتعنا بالفرح السماوي إلى أن يجيء. لا أستهين بما يعاني منه البعض من أجل اسم المسيح، وأصلي أن يبعد الرب الشرور عن أبنائه ويعطي المتألمين قوة ونعمة في ظروفهم الصعبة. يجب ألا نفشل وألا نيأس، بل نثق في الله ونستودعه أنفسنا: "فإذا الذين يتألمون بحسب مشيئة الله فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين في عمل الخير" ١بط٤:١٩.

ج. دروس من حياة أيوب

كان أيوب شخصا تقيا، وصفه الكتاب بأنه "رجل كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر" أى١:١. اشتكى الشيطان على أيوب أمام الرب واتهمه بأن تقواه وكماله واستقامته ليست ناتجة عن محبته لله، وإنما بسبب بركات الله عليه وحمايته له؛ وطلب الشيطان أن يلحق الأذى بأيوب ليثبت حجته. ابتلي أيوب بمصائب كثيرة، واحدة تلو الأخرى، بدأت بالممتلكات التي خسرها، ثم فقدان أبنائه العشرة في حادثة أليمة بانهيار البيت عليهم، وأخيرا مُسّ أيوب في جسده بأمراض وقروح مؤلمة، هذا بالإضافة إلى ما تعرض به من استهزاء واتهامات من زوجته وأصدقائه. ربما نادرا ما نرى شخصا مصابا بجملة ما أصاب أيوب.

نرى في سفر أيوب ليس فقط المعاناة الجسدية والنفسية، لكن أيضا الصراع الذي مر به أيوب من خلال أسئلة كثيرة طرحها، إذ لم يكن يفهم أو يستوعب لماذا ألمّ به كل ما أصابه؟ كان أيوب يصارع ويتحاجج مع الله، ولم يذهب أيوب أبدا إلى إنكار الله، بل ظل يؤمن به ويحبه، يقر بعظمته ويسترحمه، يصبر له ويخضع لسلطانه. لكن ما وقع فيه أيوب من خطأ هو أنه كان يُصرّ أن يعطيه الله تعليلا لما حدث له، كما أنه تمادى في تبرير نفسه أمام أصدقائه لدرجة أنه جعل الله يبدو ظالما.

عندما أجاب الرب أيوب، لم يردّ على الأسئلة التي كانت تحيّره، بل وجّه الله له أسئلة كثيرة عن عجائبه في الخلق والحفظ، وأين أيوب من كل هذا؟ كانت في هذه الأسئلة دعوة لأيوب ليفكر ويفهم عظمة الله الفائقة، وليعي اختلافه الكبير عنه، وليثق في حكمته المتناهية وصلاحه الكامل. لم يزجر الرب أيوب لأنه عبّر عن آلامه وأحزانه ويأسه في بعض الأوقات، ولا لأنه رفع شكواه، أو لأنه كان يحاجّ الله، لكنه وبخه على موقفه من قضاء الله وحكمه، وأنه استذنب الله ليبرر نفسه[٢٩].

بعد أن أجاب الرب أيوب من العاصفة، هل فهم أيوب لماذا تألم؟ إن الخلاصة التي تُفهم من الأصحاحات الأخيرة من سفر أيوب هي أن الرب أظهر له أن هناك أمورا كثيرة لا يفهمها أيوب، وليس هناك داع لأن يطالب بحدة وإصرار أن يجد تعليلا لآلامه؟ هناك أشياء لا يفهمها الإنسان لأنه ليس الله[٣٠]. كانت نتيجة سماع أيوب جواب الله أنه اتضع أمامه وقال:

"قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر. فمن ذا الذي يخفي القضاء بلا معرفة. ولكني نطقت بما لم أفهم. بعجائب فوقي لم أعرفها. اسمع الآن وأنا أتكلم. أسألك فتعلمني. بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عيني. لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد" أيوب ٤٢:٢-٦.

يخبرنا سفر أيوب أن الله بارك آخرة أيوب أكثر من أولاه. ربما نرى البركة فيما عوَّض الرب أيوب به، وهذا بالفعل جزاء عظيم. لكن الجزء السابق من أصحاح ٤٢ في سفر أيوب يرينا أيضا نتائج قيّمة لهذه التجربة إذ تقدم أيوب في فهم روحي أعمق لشخص الله وقدرته الفائقة وحكمته العظيمة، وقاده هذا للاتضاع

والتوبة والخضوع لله والتمتع بعلاقة أقرب معه: "والآن رأتك عيني". نحن أيضا بالتجاوب مع نعمة الله والخضوع له نحصل على نتائج جميلة، وبالإيمان نتقوى ونرتفع فوق الآلام. ولنتأكد أن الله سيبارك آخرة أبنائه إما في هذا العالم أو في الآخرة.

٢. علامات استفهام حول الألم – كيف نقيّم؟

أحيانا نقابل مآس لا يستطيع العقل أن يستوعبها، فهي تبدو مناقضة لكل توقعاتنا: آلام كبيرة تصيب أناسا يحبون الرب ويتقونه ويعيشون حياتهم في خدمته، أو نكبات متوالية تلم بعائلة واحدة، وغير ذلك مما يحيِّرنا ويزعجنا. في مثل هذه الظروف يعجز الإنسان عن أن يجد منطقا يسكّت به العقول الحائرة والعواطف الثائرة والأفواه التي تصرخ: "لماذا؟" وعندما يكون الشخص في بوتقة الألم قد تتحول هذه الأسئلة إلى صراع نفسي، وربما يسأل المتألم "لماذا أنا؟" وقد يراودنا الفكر: لماذا لم يتدخل الله القادر على كل شيء والذي يحبنا كثيرا ليمنع حدوث الألم أو ليخلصنا منه سريعا؟

هناك علامات استفهام كثيرة تجعل الإنسان في حيرة وذهول عن السر وراء الألم، وما يلي هو بعض الأفكار التي تساعدنا في تكوين نظرة كتابية متوازنة عن الألم، وأرجو أنها تجعلنا نهدأ ونطمئن ونثق بحكمة الله في إدارته للكون:

أ. منظور الله للألم

رأينا سابقا أننا محدودون وصغار جدا بالنسبة لله، ولا نستطيع أن نفهم ونعي تماما كيف يرى الله كل ما يحدث من منظوره هو. هذا ينطبق أيضا على موضوع الألم فنحن لا نفهم كيف ينظر الله للألم الذي في العالم، فنظرته تختلف عن نظرتنا وتفوق مداركنا، وهو يرى نسبة الأشياء بعضها لبعض بكل وضوح؛ يرى حياتنا القصيرة على الأرض كما يرى الأبدية التي تنتظرنا بامتدادها الذي ليس له نهاية. ليس معنى هذا أن الله لا يقدّر ضعفنا وصغرنا، فهو يعرف كم تؤثر علينا هذه الآلام والأوجاع، وما تعني لنا في عالمنا الصغير.

عندما يأخذ أب ابنه إلى الطبيب لتحصينه ضد مرض ما، يصرخ الطفل من الخوف والألم الذي يلحق به، ويتألم الأب لألم صغيره، لكنه يرى أن ابنه يتعرض لشكة صغيرة سريعة، "مؤلمة" لكنها مهمة! أما بالنسبة للطفل الصغير فهي كارثة كبيرة، ولا يستطيع أن يدرك كيف يتألم وهو في حضن أبيه الذي يجد فيه عادة الحماية والأمان! ونحن كالطفل الصغير، غالبا لا نفهم لماذا نمر بظروف مؤلمة ونحن في رعاية الآب المحب والقادر على كل شيء، لكننا نختلف عن الطفل في أننا ندرك أن الله عالٍ وأفكاره ليست كأفكارنا وأنه صالح وحكيم، وهو لا يقف موقف المتفرج على ما يحدث، بل يحكم العالم بسيادة حكيمة هادفة، ويعمل لخيرنا دائما حتى لو لم نفهم مقاصده.

إن الله في علاقته معنا كأب مع بنيه يشفق علينا ويترأف بنا[٣١]، وحنانه علينا هو أكثر من حنان الأم على رضيعها[٣٢]. إنه يشعر معنا في أحزاننا، ويخلصنا من ضيقنا، ويحملنا في ضعفنا؛ هكذا يقول الكتاب عنه: "في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم. بمحبته ورأفته هو فكهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة" إش٦٣:٩. والكتاب بعهديه يعلن لنا عن قلب الله المحب الكبير نحو شعبه وأبنائه، وعن قصده نحوهم، الذي هو للخير والفرح والسلام. من المؤكد أن هناك حكمة في كل ما يشكل قصد الله، وتوجد غاية لكل ما يحدث، حتى لو لم نفهم نحن ما يجري.

ب. إمهال الله

الله له حكمة في أن لا يقتلع الشر ويزيله نهائيا من العالم "الآن"؛ وإذا كان حل مشكلة الألم هو اقتلاع من يسببونه فسنُقتلع جميعنا، فنحن لسنا كاملين وأحيانا نكون سببا في آلام الآخرين. إن وجودنا في هذه الحياة هو من رحمة الله ونعمته علينا، "إنه من إحسانات الرب أننا لم نفن. لأن مراحمه لا تزول" مرا ٣:٢٢. الله يكره الشر ولا يسر بأن يراه، لكنه في لطفه وإحسانه يتأنّى في مجيئه ليعطي فرصة للبشر حتى يفحصوا طرقهم ويتوبوا ويرجعوا إليه[٣٣]. لكن إله العدل لن يترك الجرم بدون عقاب، ولن يضيع حق المظلومين، وسيأتي اليوم الذي عيّنه الله بحسب توقيته هو، حين يأتي المسيح في مجده ويقضي للمسكونة بالعدل. الألم سيزول، والفرح الأبدي آتٍ، والشر حتما سيعاقب.

من واجبنا أن لا نستهين بإمهال الله، بل نتوب. وإن كنا قد عرفنا الرب فلننتظر مجيئه بصبر، مجتهدين لنوجد عنده بلا دنس ولا عيب في سلام، ولنخبر الآخرين بخبر الإنجيل، ونحسب أناة ربنا خلاصا[٣٤]. إن ما يفعله الله هو أحسن ما يمكن وبأفضل توقيت، وإن كان الأمر يبدو لنا غير ذلك.

ت. ماذا عن إنجيل الرخاء (إنجيل الصحة والثروة)؟

ينادي البعض أنه بقبول الرب يسوع مخلصا تنتهي المشاكل ويزول الألم. ويقول هؤلاء أن المؤمن "له الحق" في الشفاء والتمتع بحياة الرخاء بشرط الإيمان، وغالبا يرجعون سبب حياة الفقر أو المرض التي يعاني منها بعض المؤمنين إلى عدم الإيمان أو ضعفه. يطلق على هذا الاتجاه "إنجيل الرخاء" (إنجيل الصحة والثروة)، والتركيز فيه هو على البركات الزمنية والجسدية.

نعم، إن المسيح حقق النصرة على الشر والألم بموته وقيامته، ووعدنا بالحياة الأفضل والفرح الحقيقي في شخصه، لكن هذه الحياة الأفضل هي في جوهرها حياة أبدية في علاقة مع الآب لمن تطهروا بدم الحمل الثمين ولبسوا ثياب الخلاص واكتسوا برداء البر. ولا تقتصر بركات الله لنا الآن على الأمور الروحية؛ إنه يباركنا أيضا زمنيا وجسديا، فكل عطية صالحة هي من عنده وكل بركة نتمتع بها هي من يديه. الصحة والثروة هي بركات من عند الرب، وهو ينقذ من الضيق ويشفي من المرض، لكن لا يوجد في الكتاب المقدس تعليم بأن الله يعد المؤمنين جميعا بحياة الرخاء بدون ألم أو مرض أو ضيق في هذا العالم؛ إنما نتعلم ألا نكنز لنا كنوزا على الأرض بل في السماء، ونعيش حياة التقوى مع القناعة: إن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما. بالإضافة، فالمسيح مثالنا لم يعش حياة الترف والتنعم، ولم يكن له أين يسند رأسه[٣٥].

هنا على الأرض، نحن نبدأ في الاستفادة من نتائج عمل المسيح الفدائي والتمتع بمزايا وفوائد الخلاص، لكننا أيضا نشترك في آلام البشرية. ومع أننا نشكر الرب على التقدم العلمي وما أحرز من ثمار تجنبنا الكثير من الأمراض، كما نفرح لوجود رخاء نسبي في بعض أجزاء العالم، لكن ما دمنا في هذا العالم الساقط وفي هذه الخيمة الأرضية الضعيفة، وبين البداية والنهاية، فالألم أمر واقع، لكن له نهاية. ولا ننسى أن الألم هو جزء من اختبار المسيحي المؤمن، كما قال الرب: "في العالم سيكون لكم ضيق. لكن ثقوا. أنا قد غلبت العالم" يو١٦:٣٣. إن وعد الرب هو أن يكون معنا في الضيق، يعطينا السلام والنصرة والعزاء والراحة، لكن هناك بركات كثيرة شاملة تنتظرنا في السماء الجديدة والأرض الجديدة التي يسكن فيه البر.

لا يُسر الله بأن يرانا نتألم، لكنه في حكمته يستخدم الألم والصعوبات في تحقيق مقاصده لاكتمال الكنيسة ونموها وتنقيتها لتحقيق الخير الأعظم لنا، "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده" رو٨:٢٨. قال شخص مسيحي من أوغندا بعد أن تعرض لاعتداء شوّه وجهه بدرجة كبيرة: "لم يَعِدنا الله بوقت سهل، لكنه وعدنا بوصول آمن".

ث. المعجزات

هناك تركيز من البعض على مواجهة الألم باللجوء إلى طلب المعجزات واعتبار حدوثها في وقتنا الحاضر أمرا طبيعيا، ولذلك أدرجت هذا الجزء هنا.

أتكلم عن المعجزات بمعنى حدوث ما هو فوق الطبيعي أو خارق للطبيعة – ما يعبَّر عنه في الكلمة المقدسة بالكلمات "عجائب" و"قوات" و"آيات". فالبعض يطلقون كلمة معجزة على أعمال عناية الله وتَحَكُّمه في أمور العالم. إن سيادة الله والعناية الإلهية أمور فائقة وفوق الطبيعية. وبالفعل إن أعمال العناية تدهشنا وتملأنا هيبة وخشوعا، ولا يستطيع أحد أن يقوم بها إلا الله. الله يعمل دائما بقدرة فائقة وبسيادة كاملة؛ هو يتدخل في الألم فيشفي من أمراض، ويغيّر مجرى أحداث، ويحفظ من أخطار، ويُرجع من ضلال، بل إنه يعمل أكثر بكثير مما ندركه ونعلمه. وأعمال العناية تتم بطريقة عجيبة لكن الله يحققها عادة من خلال ما هو طبيعي، وليس عن طريق معجزات بالمفهوم الذي يُذكر في الكتاب.

نرى في المعجزات تدخل الله بقوة عظيمة وبطريقة تفوق ما هو طبيعي ليحقق أمرا ما بحسب قصد مشيئته. تُذكر المعجزات في الكتاب المقدس بطريقة مكثفة في الوقت الذي كان الله يعطي إعلانا جديدا، أو عند مرحلة جديدة في تاريخ الفداء. استخدم الله المعجزات للتصديق على أن الإعلان أو النبوة هي منه، فنجد المعجزات تتجمع حول خدمة موسى، وبذلك ثبّت الله إرساليته وقيادته للشعب. هناك تجمع آخر حول أنبياء

المرحلة الأولى (إيليا وأليشع بصفة خاصة) للتصديق على رسالتهم. ثم نجد كمّا كبيرا من المعجزات عملها الرب يسوع؛ كانت أعماله تشهد له وتعلن عن شخصه وإرساليته. قال بطرس هذا بوضوح في عظته في يوم الخمسين: "يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون"[٣٦] أع٢:٢٢. أيضا كان الرسل يعملون معجزات تصديقا على رسالتهم وسلطانهم والمسئولية التي أعطيت لهم. قال الرسول بولس إلى أهل كورنثوس "إن علامات الرسول صنعت بينكم في كل صبر بآيات وعجائب وقوات"[٣٧] ٢كو١٢:١٢.

صحيح إن المعجزات كانت تنبع من شفقة الرب وحنانه على شعبه، لكن هذا لا ينفي أن وراءها كانت هناك غاية معينة؛ وعامة فإن الله عمل وما يزال يعمل من خلال ما هو طبيعي. لا يعني هذا أننا نُحِدُّ الله بقوانين هو واضعها، فالله قد يصنع معجزات بحسب مسرة مشيئته ولمجد اسمه، لكن لا نتوقع أن يكون هذا هو ما يحدث كل يوم وفي أي وقت.

لمحاولة إثبات أن الله يجري معجزات (شفاء على وجه أخص) في عصرنا الحالي بنفس الطريقة التي كانت عليه في وقت المسيح بل وأكثر، يشير البعض إلى الآية:

"الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أعملها يعملها هو أيضا ويعمل أعظم منها لأني ماض إلى أبي" يو١٤:١٢.

لقد شفى الرب مرضى وأقام موتى وأسكت البحر الهائج وأطعم الألوف بقليل من الخبز وصغار السمك وحوّل الماء إلى خمر وعلَّم وكرز ببشارة الملكوت وغير ذلك الكثير. فهل معنى الآية أننا نعمل هذه الأعمال بل وأعظم؟

في العددين السابقين لهذا النص يقول الرب للتلاميذ:

"الكلام الذي أكلمكم به لست أتكلم به من نفسي لكن الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال. صدقوني أني في الآب والآب فيّ. وإلا صدقوني لسبب الأعمال نفسها" يو١٤:١٠-١١.

وفي مناسبة أخرى قال الرب لليهود:

"وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا، لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني" يو٥:٣٦.

لقد شهدت تلك الأعمال أن يسوع هو المسيح ابن الله، وأن الآب أرسله وهو حالٌّ فيه، كما شهدت أنه هو المهيمن والقادر على كل شيء. وفي الآيتين السابقتين يدعو الرب سامعيه ليصدقوه ويؤمنوا به لسبب أعماله. إن يسوع فريد في شخصه وفي أعماله – ليس له مثيل. ولا يمكن أن يعمل أحد منا ما عمل الرب، أو أعظم، بالمفهوم الحرفي.

يجب أن تؤخذ هذه الآية في السياق المباشر وفي الإنجيل عامة والكتاب ككل. نجد في العبارة "لأني ماض إلى أبي"، وما بعدها، ما يساعدنا في فهم الآية، إذ يتحدث الرب عن صعوده والوعد بإرسال الروح القدس. لذلك غالبا يكون معنى الآية أنه بعد صعود المسيح وحلول الروح القدس في يوم الخمسين سيكون العمل في نطاق أوسع ولسنين طويلة من الخدمة. كان الرب يسوع يعمل في منطقة معينة على الأرض، وبين اليهود خاصة، لكن الباب فُتح للأمم بعمل المسيح الفدائي على الصليب[٣٨]، "الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلا بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح. لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحدا ونقض حائط السياج المتوسط أي العداوة" أف٢:١٣-١٤. إن الله يعمل في كل مكان في تغيير النفس البشرية ونقلها من سلطان الظلمة إلى ملكوت ابن محبته بعمل الروح القدس في قلوب الكثيرين. هذا التغيير في النفس البشرية هو المعجزة الكبرى التي تتم في عالمنا اليوم، ونرى في سفر الأعمال والرسائل بداية التحقيق لوعد السيد هذا؛ وإن كنا نريد أن نعمل هذه الأعمال العظيمة فلنكرز بالإنجيل.

عند الإصابات الجسيمة تكون الصلاة من أجل معجزة أمرا طبيعيا، ولا أريد أن أثبّط من العزيمة على الصلاة بمثابرة ولجاجة، لكن أصلي أن يعطينا الرب نعمة لإدراك ما يجب أن نفعله، إما بالاستمرار في الصلاة من أجل حل جذري للمشكلة، أو من أجل نعمة وعون في التجربة، وفي جميع الأحوال نكون خاضعين لمشيئة الله.

ج. النعمة الكافية

عندما تضرع بولس الرسول إلى الرب لكي يرفع عنه شوكة في جسده، استجاب الرب لطلبته بأن منحه نعمة كافية لسد احتياجاته، وقوة تعضده في ضعفه، إذ قال له: "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل"، وبهذه النعمة استطاع الرسول أن يقول: "فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل علي قوة المسيح" ٢كو١٢:٨-٩.

هناك أمثلة على مر العصور لأناس تمتعوا بالنعمة التي يهبها الله في الألم ومعها السلام والطمأنينة. نرى هذا واضحا في بعض الترانيم المعزية التي كُتِبت وقت التعرض لظروف صعبة جدا مثل ترنيمة "يا ترى أي صديق" وترنيمة "إن فاض من قلبي نبع السلام" وغيرهم.

رأيت بنفسي مثل هذه النعمة وقد منحها الله لصديق حميم لنا أصيب بإصابات كبيرة وخطيرة في حادث سيارة من مدة كبيرة، وقد تمجد الله وأبقى على حياته بعد فترة حرجة، لكن كان لا بد من بتر يده. أثر هذا الموضوع فيّ كثيرا، وكنت كلما نظرت إلى يدي، تنهمر الدموع من عيني إذ أذكر الصديق الغالي الذي فقد يده، وكنت أتصور نفسي بدون يدي، مما كان يزيدني حزنا وألما. ذهبت إلى القاهرة وزرت هذا الصديق، وكم كانت دهشتي إذ وجدته مبتسما وبشوشا وضاحكا؛ ولمست السلام الذي يتمتع به؛ عندها أدركت أن الرب قد وهبه نعمة خاصة ليستطيع أن يتحمل هذه التجربة وليتغلب على تحدياتها، بينما كنت أنا أتصور التجربة غير مزودة بهذه النعمة! أنا أعلم أن هذا الصديق يعيش حياة مثمرة في عمله وعائلته وخدمته للرب، وقد اتصلت به لأتأكد من صحة ما أكتب، كذلك لأستأذنه في الكتابة عنه، وهذا ما قاله لي: "هذا صحيح! لكن في الساعات الأولى بعد الحادثة أنا "اتخانقت" مع ربنا لكنه وعدني بالسلام، وبالفعل فأنا أتمتع بسلام الله منذ ذلك الوقت؛ إن حياتي لا تخلو من التحديات والصراعات، وأتعرض لأوقات ضعف وأتضايق، لكني أجد الرب دائما يسرع بالمعونة ويملأني سلاما، ليس ذلك فقط لكنني بالفعل كثيرا ما أشعر بقوته في ضعف جسدي، وأجده يعينني في عمل أشياء قد يعجز الآخرون عن فعلها. كذلك أرى الله يعلمني الصبر والاتكال عليه من خلال هذه الظروف". في حديثي مع هذا الصديق كان دائما ينطق بالعرفان ويتحدث عن أمانة الرب ويقول "الرب طيب".

مثال آخر من الشخصيات المعاصرة نجده في السيدة جوني إيريكسون تادا التي تمتلئ حياتها بالنعمة والسلام بالرغم من الحادث الأليم الذي أصابها. لم تشعر جوني بالسلام في الحال؛ وقصتها مليئة بالألم والإحباط والصراع، لكنها بعد أن قبلت المسيح مخلصا شخصيا لها، وتجاوبت مع عمل نعمة الله، وجدت ثمرا في حياتها ومعنى لها بالرغم مما أصابها. لقد تقبلت جوني الوضع، وتعيش بفرح الرجاء إذ تتطلع إلى المجد وتقول إني سأرقص وأطفر على قدميّ في السماء.

وحديثا رأيت هذه النعمة الكافية تؤثر بوضوح في أصدقاء لي وفي القريبين مني، وكذلك في حياتي الشخصية. نحن لنا الوعد من الله بالرحمة والنعمة لعوننا في وقت الضعف والألم والشدة. "فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عونا في حينه" عب٤:١٦.

ح. كيف يؤدي الألم لخيرنا؟

غالبا لا نفهم مقاصد الله من نحونا عندما نمر - نحن أو أحباؤنا - بظروف أليمة. وفي بعض المواقف قد نتساءل متحيرين ما عسى أن يكون الخير الذي يمكن أن ينتج عنها. إن الألم في حياة المؤمنين هو من جملة الأشياء التي يعمل الرب فيها للخير للذين يحبونه، وفيما يلي بعض الطرق التي بها يستخدم الله الألم للخير.

١. الرجوع إلى الله:

أحيانا يستخدم الله الألم ليرجع الإنسان إليه. يقول سي إس لويس: "الله يهمس لنا في سرورنا، يكلمنا في ضميرنا، لكنه يصيح بصوت عال في آلامنا: إن الألم هو مكبر الصوت الذي يستخدمه الله ليوقظ عالم أصم"[٣٩]. كثيرون يتوبون ويطلبون الله بعد المرور في ظروف مؤلمة كموت قريب أو التعرض لمرض خطير، فيدفعهم الألم والضيق إلى إعادة تقييم الحياة والرجوع إلى الله. نرى في مثل الابن الضال أنه رجع إلى نفسه عندما ضاقت به الحياة ووصل إلى نقطة اليأس. إن الألم لا يُسِرّ أحدا، ومع ذلك فقد سمعت أناسا

يمجدون الله على لطفه ومحبته إذ سمح لهم بالاجتياز في الضيق مما جعلهم يرجعون إليه بعد ضياع في العالم.

الله يناشدنا بالمحبة لنأتي إليه ونرجع عن طرقنا الردية، لكننا أحيانا نُصِرّ على العناد، ويتطلب الموقف الألم حتى نتوب ونرجع إلى الله ونفيق من الجري وراء العالم والاهتمام بالماديات.

٢. النمو الروحي وتقوية الإيمان:

يعمل الله في أبنائه لينموا في حياة القداسة إلى قياس قامة ملء المسيح. هذا النمو يتحقق بطرق عدة، فالله يطعمنا ويغذينا بكلمة الحياة، كما يدربنا في ظروف الحياة المختلفة لنترك الطفولة وننمو إلى النضج. غالبا ما يقتضي النمو التعرض لبعض التعب. هذا ما نراه عندما يتعلم الطفل الصغير المشي مثلا، فنراه يقع ويتعثر، لكن الأب لا يهرع ليحميه من الوقوع خشية من الضرر بل يتركه يتعلم، وإذا رأى الأب خطرا في الأفق فعندئذ يتدخل. هكذا يدربنا أبونا السماوي في حياتنا الروحية، ويفتقدنا بالألم، لا ليحطمنا بل ليقدسنا، ليس لأنه لا يحبنا، بل لأنه يحبنا. إن الله في محبته نحونا يعمل كل شيء لازم ليجعلنا أفضل وليساعدنا في نمونا في النعمة والقداسة، حتى لو كان ذلك عن طريق الألم. يخبرنا الرسول بولس أن إعطائه شوكة في الجسد كان هدفه أن لا يرتفع بفرط الإعلانات، وهذا يبرز صلاح الله في تعاملاته مع أبنائه، فإذا كان هناك خطر علينا من الارتفاع والتكبر، أو أي خطر روحي آخر، قد يتدخل الرب ويعطينا شوكة تنقذنا من أهوال أكبر.

قرأت عن صورة من الطبيعة ترينا حكمة الله في استخدام الألم للتدريب والتقوية. يقال أن الفراشة تحصل على قوّتها للطيران وقدرتها على البقاء من خلال نضالها في كسر الشرنقة للخروج منها، فإذا شرع أحد في كسر الشرنقة "ليعين الفراشة"، فإنها تخرج بأجنحة ضعيفة، لا تقدر على الطيران أو حتى على البقاء. هكذا الحال معنا؛ إذا تدخل الرب ليدفع عنا كل مشكلة قد نقابلها بدلا من أن يتركنا نخوض تجارب تعلمنا الاتكال عليه وطلب المعونة منه، وتساعدنا لنتقدم في النضج الروحي والاجتماعي، فذلك يؤدي إلى ضعف روحي ونتائج سلبية.

نحن كمؤمنين نريد أن ننمو في النعمة وفي القداسة، لكن قد يصعب علينا الاقتناع أن الألم هو من أحد الوسائل التي يستخدمها الله في ذلك، بل أحيانا يكون الألم هو الوسيلة الوحيدة التي تأتي بالفائدة والنتيجة المرجوة. الألم يذكرنا بضعفنا وبأننا لسنا المتحكمين في حياتنا. الألم يجعلنا نعي أن العالم ليس بيتنا لكننا نعيش فيه كغرباء ونزلاء متجهين نحو الوطن الأفضل لنكون في بيت الآب. غالبا يكون الإنسان في وقت الألم مستعدا لفحص الذات وتقييم الحياة وترتيب الأولويات بما يرضي الله؛ وعندما يتجاوب الشخص مع تعاملات الله في الضيق فإنه يتعلم الصبر وانتظار الرب، ويزداد اتكالا على الله وثقة فيه، كما يصبح أكثر حساسية ونضجا واتضاعا وتعاطفا مع الآخرين في آلامهم. هذا التغيير بدوره ينشيء الرجاء والعزاء والفرح بالرغم من الظروف[٤٠].

لا يحدث التغيير فينا في لحظة لكن من جرّى تجارب كثيرة ندخل فيها. ليت الرب يعطينا نعمة وحكمة وقوة في وسط التجارب حتى لا نصاب بالمرارة والتوتر، بل نستطيع التعامل معها بما يؤول إلى النضج والنمو.

٣. تنقية المؤمنين:

إلى جانب ما سبق نحن نحتاج إلى التنقية لكي تتطهر حياتنا وتتخلص من الشوائب. "لأنه يعرف طريقي. إذا جربني أخرج كالذهب" أي٢٣:١٠. يستخدم الله الآلام ليمتحن إيماننا ويقويه ويزكيه. في هذا قال الرسول بطرس "الذي به تبتهجون مع أنكم الآن إن كان يجب تُحزنون يسيرا بتجارب متنوعة لكي تكون تزكية إيمانكم وهي أثمن من الذهب الفاني مع أنه يمتحن بالنار توجد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح" ١بط١:٦-٧.

من محبة الرب أنه لا يتركنا لحالنا بل يهتم بتأديبنا وتغييرنا لصورة ابنه. يشبّه الكتاب تأديب الله لشعبه ولأبنائه بتأديب الإنسان لابنه، فيقول: "فاعلم في قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدبك الرب إلهك" تث٨:٥. الله يحبنا محبة عميقة تسمو وتفوق محبة أي أب لأبنائه، وفي تأديبه لنا يتعامل معنا بصلاح كامل ومحبة نقية ليس بها عيب أو نقص. في الحقيقة، تأديب الله هو علامة على محبته لنا، "الذي يحبه الرب

يؤدبه ويجلد كل ابن يقبله"؛ وإن كنا نحتمل التأديب يعاملنا الله كالبنين، "فأي ابن لا يؤدبه أبوه". والهدف من التأديب هو منفعتنا "لكي نشترك في قداسته". إن كان التأديب يسبب حزنا، لكنه لخيرنا، إذ يؤدي إلى نتيجة جميلة إذا تقبلناه وتعلمنا منه وتدربنا به، "كل تأديب في الحاضر لا يُرى أنه للفرح بل للحزن. وأما أخيرا فيعطي الذين يتدربون به ثمر بر للسلام" (راجع عب١٢:٥-١١).

من المهم أن نفحص ذواتنا، ونعترف بالخطية إن كنا على وعي بإثم نراعيه في دواخلنا أو ضعف يتغلب علينا؛ وفي ذات الوقت نتنبّه لئلا يستخدم الشيطان الألم ليثقلنا بالذنب ويزيد من آوجاعنا[٤١]. ليتنا في ظروف الألم نثق في رحمة الله وحكمته، ونتأكد من محبته وعنايته، ونصلي ليعمل الله في حياتنا ويملأنا من نعمته وقوته، فتزهر الورود الجميلة بجانب الأشواك: ورود السلام والنصرة، وورود التغيير والنضج، وورود الخضوع والاحتمال، وورود الأمل والرجاء.

٣. كيف نواجه الألم؟

يلازمنا الألم في هذه الحياة بشكل أو بآخر، وبدرجات متفاوتة، لكن الكيفية التي نواجه بها الألم مهمة جدا لسلامنا وسلامتنا الروحية. لا يدعونا الكتاب للتجلد أو إنكار حقيقة الألم أو التظاهر بالفرح في وسط المحن، لكنه يدعونا أن نأتي إلى الله في الأوقات الصعبة فنجد العون والرجاء ونختبر حنانه تجاهنا. إننا نستطيع بقوة الله ونعمته أن نسمو ونرتفع فوق المشاكل والضيقات، وتكون لنا نصرة حقيقية في المسيح، ونتمتع بالسلام والأمل بالرغم من الظروف والآلام؛ أما إذا استسلمنا لليأس والمرارة والإحباط، فهذا يزيد من معاناتنا.

ما يلي بعض الخطوات العملية التي تساعدنا في مواجهة الألم:

أ. الثقة في الله والخضوع لمشيئته

الثقة بصلاح الله وحكمته ومحبته تُعدّ من أقوى العوامل التي تبعث في النفس السكينة والاطمئنان في وقت الألم، كما أنها تساعدنا على الخضوع لمشيئته برضى حتى لو لم نكن نفهم لماذا نتألم ولماذا يسمح الله بذلك. الله سيد على ظروفنا، وكل ما نمر به تحت تحكمه، وهو ليس سيدا قاسيا يُسَرُّ بأن يرانا نتألم، "فإنه ولو أحزن يرحم حسب كثرة مراحمه. لأنه لا يذل من قلبه ولا يحزن بني الإنسان" مرا ٣:٣٢-٣٣. هو "إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء" خر٣٤:٦.

إن مقاصد الله وطرقه أعظم بكثير من مقاصدنا وطرقنا. وإذا صبرنا في الآلام قد تتضح الأمور في وقت لاحق ونفهم شيئا عن القصد مما مررنا به، إذا أراد الرب أن يكشف لنا ذلك. لكن ليس الحال دائما أن ندرك في هذه الحياة ما يعمل الله، وإنما اليقين بمحبة الله وقدرته الفائقة يقودنا إلى الخلاصة أن الله يسمح بالألم أو باستمراره لأسباب لديه لا نفهمها نحن، وليس هناك ما يجعل الله تحت ضرورة ليعطينا مسببات، أو ليشرح لنا ماذا يفعل أو لماذا يسمح بشيء ما؛ إنما المهم أن نثق في أن الله هو السيد الذي أمامه الصورة كاملة، وهو يعمل بحكمة وصلاح في كل شيء لتكون النتيجة النهائية هي الخير الأعظم.

الثقة في الله هي التي جعلت داود يترنم: "أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني" مز٢٣:٤. نحن لا نعرف ما يخبئه المستقبل، لكن راعينا الصالح هو الذي في يده كل المستقبل، وهو يقودنا، فلا نخاف.

نرى مثالا على الثقة المطلقة في الله بغض النظر عن التبعيات فيما عبر عنه الفتية الثلاثة الذين كانوا يؤمنون بقدرة الله أن ينجيهم من آتون النار. في نفس الوقت أظهروا خضوعا لمشيئته بطاعة كاملة حتى لو رأى الله في حكمته أن لا ينجيهم من الآتون. لقد وثقوا في الله ثقة كاملة بدون تحفظ، وكانوا يعلمون أن الآتون ليس نهاية المطاف، وسيأتي الوقت الذي فيه يجازون بالبركة، والأشرار يعاقبون. وبالفعل أُلقوا في آتون النار، لكن الرب نجاهم بحضوره معهم وحماهم من قوة النار[٤٢].

حبقوق أيضا، بعد أن طرح شكواه أمام الله وسمع إجابة الرب عليه، وثق في حكمة الله الذي وإن كان استخدم أمة الكلدانيين لتأديب شعبه، لكنه وعد بأن يعاقب هذه الأمة على شرها ويحقق الخلاص لبنيه. استجاب حبقوق لوعود الرب بصلاة مملوءة بالثقة والاتضاع، متذكرا ما عمله الله مع شعبه في الماضي. بل ذهب حبقوق أكثر من ذلك، إذ رأى في الله وفي خلاصه ما يدعوه للفرح والابتهاج بالرغم من الظروف:

"فمع أنه لا يزهر التين ولا يكون حمل في الكروم يكذب عمل الزيتونة والحقول لا تصنع طعاما ينقطع الغنم من الحظيرة ولا بقر في المذاود فإني أبتهج بالرب وأفرح بإله خلاصي. الرب السيد قوتي ويجعل قدميَّ كالأيائل ويمشيني على مرتفعاتي" حب٣:١٧-١٩.

بينما يريدنا الله أن نثق فيه ونتوكل عليه ونخضع لسيادته لا ينتظر منا أن نكبت مشاعرنا، أو نشعر بالذنب عندما نصرخ "حتى متى يا رب؟". من ناحيتنا علينا أن لا نستسلم للخوف والقلق والحزن بل نصمم على الثقة في الله بالرغم من الألم والمعاناة. عندما نقلق ونخاف ليتنا نتذكر ما قاله داود في مخاوفه ونجعل ذلك صلاتنا: "في يوم خوفي أنا عليك أتكل. الله أفتخر بكلامه، على الله توكلت فلا أخاف" مز٥٦:٣-٤.

هذه الذبذبة بين الخوف والثقة، بين الشك واليقين، بين اليأس والرجاء، نجدها أيضا في مراثي إرميا؛ ففي وقت ألم وضعف شديد، قال إرميا، "قلت تلاشت قوتي، وكل ما كنت أرجوه من الرب. اذكر بليتي وتيهاني والأفسنتين والمرارة. ما برحت نفسي تذكرها وهي منحنية في داخلي". لكن الرثاء والنوح تحول إلى ثقة ورجاء بناء على صفات الله من رحمة وأمانة، وعلى ما عمله في الماضي، فتابع قائلا **"ولكن"**، "هذا ما أناجي به نفسي، لذلك يغمرني الرجاء: من إحسانات الرب أننا لم نفن، لأن مراحمه لا تزول .." مرا ٣:١٨-١٩، ٢١-٢٢ (كتاب الحياة). أصلي أن يعيننا الروح القدس في ضعفنا ويقوي إيماننا ويعزينا في ضيقاتنا ويملأنا بالفرح السماوي فنمتليء ثقة ويقينا ورجاء في الله[٤٣].

نحن نتعلم الكثير من اختبارات الأتقياء الذين عاشوا قبل مجيء المسيح، لكن إذ نعيش بعد وضوح إعلان محبة الله الكاملة في الصليب، لدينا الكثير مما يساعدنا على الثقة في الله. عندما ننظر إلى الصليب ندرك أنه بالرغم مما يصيبنا من آلام لا يوجد أدنى شك في محبة الله؛ فعند الصليب نقول: "هكذا أحب ..". في الصليب نري نعمته المتفاضلة ورحمته الكثيرة؛ وفيه نرى إظهار الله لبره بتقديم يسوع المسيح كفارة لأجلنا.

ب. تعزيات الكلمة والصلاة

الكلمة المقدسة مصدر غني للتعزية والتشجيع قي وقت الألم؛ "عند كثرة همومي في داخلي تعزياتك تلذذ نفسي" مز٩٤:١٩. عندما نقرأ الكتاب المقدس يعزينا الله بروحه القدوس، ويشجعنا ويشددنا بقوة كلمته ومواعيده، ويهدئنا بأقواله الحنونة: "أنا معك .. لا أهملك ولا أتركك"، " لا تخف .. دعوتك باسمك .. أنت لي".

في الظروف المؤلمة والأوقات الصعبة قد لا نجد الكلمات التي تعبر عما بداخلنا، ويمكننا أن نستخدم الصلوات والاختبارات التي دوّنها لنا الوحي في سفر المزامير وفي أجزاء أخرى، إذ فيها الكثير مما يخترق أعماق النفس في ليل الشقاء، ويرتقي بنا إلى الأقداس، فنجد السند والتعضيد، ونتمتع بالعزاء والراحة. إننا نتعلم ممن سبقونا إذ نرى كيف واجهوا الصعوبات، وكم تمتعوا بالقوة والنصرة في وسط الآلام.

كذلك ترينا الكلمة المقدسة بركات الرب ورحمته علينا، وإذ نعدد نِعَم الله ونشكره لأجلها يعطينا ذلك نظرة متوازنة، فلا ننظر إلى الألم والقتام الذي يحيق بنا فقط، بل إلى الصورة الكاملة بما في ذلك من بركات نتمتع بها. من المشجع أيضا في وقت الألم أن نتذكر أعمال الله وقدرته الفائقة في تعاملاته مع شعبه في القديم، وفي تدخله لخلاصنا بصليب المسيح، إلى جانب التفكير في أعمال عنايته بنا في حياتنا. معظمنا اختبر معونة الله وسط الضيق، وإذ نتذكر ما فعله معنا ومع غيرنا في الماضي فهذا يشجعنا ويعزينا ويدخل إلى نفوسنا الأمل والرجاء، فالذي عمل في الماضي هو معنا اليوم وكذا في المستقبل. قال المرنم "تذكرت أيام القدم لهجت بكل أعمالك بصنائع يديك أتأمل" مز١٤٣:٥. كذلك نرى في مزمور ٧٧ كيف عالج شخص الانزعاج واليأس بالصلاة وتذكُّر أعمال الله وعجائبه منذ القدم.

يحثنا الكتاب أن نأتي إلى الله بالصلاة في آلامنا؛ "أعلى أحد بينكم مشقات فليصلِّ" يع٥:١٣. كثيرون يسرعون للتوجه إلى الله في وقت التجارب، لكن أحيانا لا تكون الصلاة في وقت الضيق أمرا سهلا. ومع تقديري للمواقف الصعبة التي يمر بها بعض الأحباء، من المفيد إن نتغلب على هذا الشعور الأولي بالرغبة في التقوقع، وندرّب أنفسنا على التوجّه لمن يهمه أمرنا أكثر مما نتصور؛ نصلي إليه ونحتمي فيه ونستمد العون منه. إنه أبونا المحب وراعينا الصالح، وهو يدعونا لنأتي إليه ونلقي همومنا عليه، "ألق على الرب همك فهو يعولك" مز٥٥:٢٢.

مع أن الله سيد على كل الظروف التي نمر بها، يجب أن لا نستسلم لها بنظرة قدرية، بل نستمر في الصلاة وامتحان الذات والانكسار أمام الله؛ والرب يسمع لنا ويستجيب صلواتنا لأجل اسمه، لكن كثيرا ما يختلف توقيته عن توقيتنا، وكثيرا ما تختلف استجابته عن توقعاتنا. قد يستجيب الله الصلاة بأن يزيل الألم في وقت قصير أو بعد وقت طويل حسب مشيئته الصالحة، وقد يمنحنا الرب سلامه ويعطينا النعمة والقوة للتغلب على الصعوبات؛ وفي كل الأحوال فإن الله يعمل للخير للذين يحبونه. ليت الرب يزودنا بالنعمة والحكمة لنعرف كيف نصلي في الظرف المعين، وأن يستخدم الله الألم في تغييرنا للأفضل.

ت. الصبر والمثابرة

رأينا أن الله يستخدم الألم لنمونا وتنقيتنا، لكن الأمر يحتاج صبرا ومثابرة من جانبنا. تشبَّه الحياة الروحية بالركض في ميدان السباق بما يتطلبه ذلك من مجهود واحتمال. لكن الذين يتسابقون في هذا العالم يجاهدون ليأخذوا إكليلا يفنى، أما نحن فإكليلا لا يفنى. وقد سبَقَنا كثيرون من أبطال الإيمان الذين أكملوا الجهاد بالصبر والأناة. وإذ لنا سحابة من الشهود "فلنطرح كل ثقل والخطية المحيطة بنا بسهولة ولنحاضر بالصبر في الجهاد الموضوع أمامنا ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع" عب١٢:١-٢. المسيح هو مثالنا الأعظم، وهو "من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهينا بالخزي فجلس في يمين عرش الله" عب١٢:٢. فلنثبت أنظارنا على الرب يسوع، ونتفكر في آلامه، لئلا نكل ونخور في نفوسنا.

عندما نصاب بألم ومشقات، من الطبيعي أن تكون رغبتنا أن تعبر المصائب سريعا، لكن كثيرا ما نخوض في الألم لمدة أكبر مما نريد، ونحتاج أن نتعلم الصبر في هذه الظروف. لكن تَعلُّم الصبر ليس بالأمر اليسير ولا يأتي في ليلة وضحاها، وإنما يستغرق وقتا ويتطلب انتظارا، والله يعمل بظروف الألم والضيق لينتج فينا هذه االثمرة الجميلة. إننا بالصبر ننتظر توقيت الرب ليتدخل بحسب حكمته، وبالصبر ننتظر إلى أن يتحقق العدل وتتحقق جميع مواعيد الرب، سواء في هذا العالم أو عند مجيئه في المجد. لنثق أن الرب يسمع صراخنا، يشفق ويتحنن علينا، ويزودنا بنعمته وقوته؛ وهو لا يدعنا نجرب فوق طاقتنا، بل يجعل مع التجربة المنفذ لنستطيع أن نحتمل.

إن ما يشجعنا على أن نصبر في الضيقات هو أن نتذكر أن الرب سيد على الكل، وأنه يحكم العالم في كل الدقائق، وأن الكل سيؤول للخير. فياليتنا نعتبر الألم "فرصة" لنا لنتعلم ونتدرب ونتنقى، ولنصبر ثابتين وساهرين، بل ولنفرح في الضيقات "عالمين أن الضيق ينشئ صبرا والصبر تزكية والتزكية رجاء" رو٥:٣-٤.

"احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة، عالمين أن امتحان إيمانكم ينشيء صبرا وأما الصبر فليكن له عمل تام لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء" يع١:٢-٣.

ث. المشاركة والتكاتف في مواجهة الألم

وإن كان الألم جزءا من الحياة في عالمنا الساقط، لكننا نعلم أن هذا الوضع ليس مثاليا، ويجب أن لا نستسلم له، أو نأخذ موقفا سلبيا مما يدور حولنا، أو نجعل مشاعرنا تتبلد أمام ما نرى من آلام في العالم. يحثنا الكتاب المقدس أن نشارك الآخرين أفراحهم وكذا أحزانهم؛ ليس ذلك فقط بل أن نقوم بدور إيجابي، فنقف إلى جانب بعضنا البعض في الألم لنريح ونعزي ونساند ونعضد، "احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح" غل٦:٢.

هناك آلام داخلية يصعب أن نراها خارجيا، مثل الوحدة والخوف والحزن. أصلي أن يعطينا الرب نعمة لنرى الاحتياج ونشعر مع الآخرين ونتعامل معهم بالمحبة والحنان، وبحكمة وحساسية، حتى لا نكون سببا في زيادة الألم كما فعل أصدقاء أيوب، بل بلسما للقلب الجريح والنفس المتألمة.

من الناحية الأخرى، قد يكون عندنا الميل للتقوقع في وقت المحن. إن الخصوصية في الحياة لها مكانها، لكن أعتقد أن مشاركة بعض الأصدقاء المقربين والأحباء لنا في آلامنا وظروفنا يخفف الحمل عنا ويساعدنا في مواجهة الألم. نحن نحتاج إلى صلوات الآخرين وتشجيعهم ومساعدتهم، خاصة في الأوقات الصعبة؛ فياليتنا نحظى بالنعمة لنقبل التعضيد والمساندة من الغير. إننا جسد واحد وإن تألم عضو تتألم معه باقي

الأعضاء. جيدٌ أن نتكلم معا، نصلي معا، ونستخدم اختبارات التعزية التي عزانا الله بها لنعزي بعضنا بعضا[٤٤].

العالم يرى حب الله وحنانه من خلال محبتنا ومساعدتنا للآخرين، لذا علينا أن نكون إيجابيين ونتفاعل بالإحساس والصلاة والعمل مع ما نسمع ونرى، ونستخدم كل الموارد والقدرات التي أنعم الله بها علينا لنغيّر ما يمكن تغييره إلى الأحسن، ونحاول التقليل من الألم والمعاناة في العالم بمحاربة الشر والفساد والظلم الاجتماعي، وإظهار الحنان نحو الآخرين، ومد يد المعونة إليهم بحسب استطاعتنا.

ج. التطلع للأمجاد ونهاية كل ألم

مما يشجع الإنسان ويساعده في مواجهة الصعوبات أن يرى نهايةً للألم الذي يجوز فيه، وأن يكون أمامه حدث مفرح يتطلع إليه. الأم تتحمل أوجاع الحمل والولادة بصبر لأنها عالمة أن وقت التعب له نهاية وستحصل على ثمر تعبها في فرح غامر وسعادة لا توصف عندما يولد الطفل. في الواقع، يبدأ الفرح قبل الولادة، فالأم تتمتع بوجود الطفل في رحمها، ومهما كانت الأتعاب فإنها تمتزج بفرح انتظار الحادث السعيد. نحن أيضا نلاقي آلاما في الوقت الحالي، لكن أفراحنا تبدأ هنا وتكتمل عندما يأتي المسيح في مجده، إذ تنتهي الأوجاع، ونتمتع بدفء الشركة الكاملة مع الرب وبنور وجهه وبفرحه الدائم في سماء جديدة وأرض جديدة يسكن فيها البر. هناك سنتمتع بالراحة الكاملة الحقيقية، وتمتليء الأرض من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر.

إن سني عمرنا - بكل آلامها - قصيرة جدا بالنسبة للأبدية السعيدة التي لن تنتهي. عبّر موسى عن قصر الحياة وآلامها بالقول "أيام سنينا هي سبعون سنة. وإن كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تعب وبلية. لأنها تقرض سريعا فنطير" مز٩٠:١٠. إذا لم نرَ حياتنا بنسبتها للأبدية قد يتفاقم حجم الألم في أذهاننا ويخبو مجد الرجاء العظيم الذي ينتظرنا، لكن عندما تكون الأبدية في قلوبنا وأذهاننا يساعدنا هذا على تحمل الآلام ورؤية الأمور بحجمها الحقيقي كما يعطينا الأمل والرجاء ويزيد من اشتياقنا للأمجاد. لا أقول هذا باستخفاف وخاصة من جهة من يقاسون من أمراض مزمنة أو آلام مبرحة أو مشاكل صعبة، بل أتضرع إلى الله من أعماق قلبي أن يمنحهم تعزية وسلاما وصبرا، كذلك عونا وقوة في ظروفهم.

نجد في مزمور ٧٣ مثالا لشخص كان في حيرة من موضوع الشر والألم إلى أن رأى الأمور على حقيقتها وفي جملتها. كان آساف يتحير لأنه رأى الأشرار ينعمون بينما يعاني مستقيمو القلب، وكاد يتزعزع إيمانه إلى أن دخل إلى "مقادس العلي" وانتبه للآخرة؛ وعند ذاك تيقن أن حاضره - بما فيه من ألم وضيق - مع الله، أفضل بكثير من حياة الأشرار – بما يتمتعون به من نعيم وقتي – بعيدا عن الله؛ كذلك رأى المجد الذي ينتظره فقال: "وبعد إلى مجد تأخذني" أما الأشرار والبعداء عن الله يبيدون.

أظهر أيوب أيضا رجاءه في المستقبل، وعبّر عن اشتياقه إلى ذلك اليوم السعيد، قائلا: "أما أنا فقد علمت أن وليي حي والآخر على الأرض يقوم. وبعد أن يفنى جلدي هذا وبدون جسدي أرى الله. الذي أراه أنا لنفسي وعيناي تنظران وليس آخر. إلى ذلك تتوق كليتاي في جوفي" أي١٩:٢٥-٢٧.

في نهاية المطاف نحن نعلم أن كل ألم وقتيّ ولن يدوم إلى الأبد، ومهما عانينا في هذه الحياة فإن انتظار مجيء المسيح وما يصاحبه من أمجاد يساعدنا على أن نصبر وننتظر بشوق وفرح، كما أنه يؤثر على نظرتنا وأعمالنا وطموحاتنا فلا يكون اهتمامنا بما هو أرضي بل نكنز لنا كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ. "لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوما فيوما. لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي ترى بل إلى التي لا ترى. لأن التي ترى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية" ٢كو٤:١٦-١٨.

نحن نثق أننا في السماء سنعطى أكثر بكثير مما فقدنا على الأرض، وإذ نتطلع للمجد الذي ينتظرنا نستطيع أن نقول مع الرسول بولس "فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا" رو٨:١٨. إننا نفرح في الضيقات لأنها تهيئنا للسماء وذلك المجد العتيد. عندئذ سيتحقق كل ما رآه وسمعه يوحنا:

"ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد في ما بعد. وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس

مزينة لرجلها. وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبا والله نفسه يكون معهم إلها لهم. وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون في ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت" رؤ٢١:١-٤.

إن رسالة الكتاب ككل تعطينا إحساسا بالهدف، وبأن الأمور تسير حسب خطة عظيمة، ونحن في هذه اللحظة جزء من القصة الكبيرة. وكما تم كل شيء منذ الخليقة إلى الآن بدقة كاملة تحت سيادة الله، هكذا سيتحقق كل ما وعد به الرب إلى مجيء المسيح ثانية والحياة معه للأبد؛ والذي وعد هو أمين. "آمين. تعال أيها الرب يسوع" رؤ٢٢:٢٠.

أرجو أن أكون كتبت بحساسية وخاصة من جهة من يعانون من آلام شديدة يعجز القلم أن يخفف منها. وأصلي أن يعيننا الرب، بنعمته ورحمته، في تجاربنا، ويعطينا قوة وتعزية لاحتمال الألم بصبر وشجاعة، وللتمتع بحياة النصرة والغلبة. وإن كنا لا نفهم "لماذا" يسمح الله بمثل هذه الآلام ليتنا نوجه قلوبنا للسيد المسيح "مختبر الحزن" والقادر أن يعزي ويريح.

٥

الصلاة وسيادة الله

أوجد الله حلا لمشكلة انفصال الإنسان عنه بسبب الخطية إذ مات المسيح لأجلنا ليهبنا حياة أبدية ويقربنا إلى الله فنعرفه معرفة اختبارية ونتمتع بالشركة مع جلاله[١]، "وأما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" ١يو١:٣. ياله من امتياز عظيم!

التواصل عنصر مهم في أي علاقة، وهذا صحيح في علاقتنا مع الله. نحن نسمع الرب يكلمنا من خلال كلمته المقدسة ونتحدث معه من خلال صلواتنا. الصلاة جزء مهم من حياة التقوى إذ نأتي إلى الله بثقة البنين، نعلن عن تقديرنا لشخصه، ونقدم الشكر لجلاله، ونطلب من أجل احتياجاتنا، ونخبره بمخاوفنا وما يدور بدواخلنا، وأيضا نلقي كل همومنا عليه لأنه هو يعتني بنا[٢]. إن كنا لا نواظب على قراءة الكلمة والصلاة نحرم أنفسنا من متعة الشركة مع الله.

سيادة الله أساس مهم ترتكز عليه الصلاة، فعندما نصلي نحتاج اليقين أن الله بيده كل الأمور ولا شيء يخرج عن تحكمه؛ هذا يعطينا الاطمئنان والثقة أننا في أمان بين يدي أب سماوي لا يفاجأ بالظروف ولا يخضع للتغيير، بل سيد عارف بكل الأمور وعلمه بكل شيء كامل، وهو قادر على تحقيق مقاصده حسب حكمته ومشيئته. في الواقع عندما نطلب من الله لكي يعمل في القلب، أو ليتدخل في ظروف معينة، أو يشفي من مرض، أو يسد احتياج ما، نعترف ضمنيا بسيادته وقدرته. لكن تثير سيادة الله أيضا أسئلة كثيرة بالنسبة للصلاة، وما يلي هو بعض الأمثلة:

- إن كان الله سيدا، والكل تحت سيطرته فهل يمكن أن يكون للصلاة أيّة قيمة حقيقية؟ وهل ستغيّر الصلاة من الأمور؟
- إن كان الله يعلم ما نحتاج إليه فلماذا يلزم أن نخبره عن احتياجاتنا؟
- لماذا يطلب الله أن نسبحه ونحمده؟
- لماذا نزعج الله بأمورنا الصغيرة؟
- هل الصلاة تغيّر إرادة الله؟

إلى جانب الصعوبة الفكرية المعبر عنها في هذه الأسئلة، قد نعاني من حيرة في الاختبار، فالبعض يُعطَون دون أن يسألوا ويجدون دون أن يطلبوا، بينما آخرون صلوا وطلبوا من أجل أمور ولم يروا استجابة لصلواتهم.

يوجد كم كبير من الكتب في هذا الموضوع الواسع، وهنا أركز على الصلاة في ضوء سيادة الله. أبدأ بمعالجة بعض القضايا التي تخص فاعلية الصلاة ثم أكتب عن الصلاة التي تتناسب مع سيادة الله.

١. فاعلية الصلاة

هناك نقيضان يستقطب بعض الناس حول أحدهما:

١. النقيض الأول ينفي فاعلية الصلاة. يقول هذا الرأي إن مقاصد الله لا بد أن تتم وما سيُفعل سيُفعل سواء صلينا أم لا. لذلك ليس هناك فاعلية حقيقية لصلاة الإنسان أو أي دور لها فيما يجري، وكل ما تحققه الصلاة هو أن يرتاح المصلي ويتعلم الاتكال على الله. يضاف إلى ذلك أن الله يعلم كل شيء ولا يحتاج أن نخبره عن احتياجاتنا.

٢. النقيض الآخر يبالغ في دور الإنسان فيما تحققه الصلاة. يتلخص هذا الموقف في القول إن الصلاة المرفوعة بإيمان تصنع المستحيل ويمكن أن تغيّر من إرادة الله. ليس هناك شيء غير مستطاع لمن يصلي بإيمان، فالأمر في يدنا، وإن لم يحدث ما نصلي من أجله يكون السبب هو ضعف الإيمان. (راجع الجزء عن إنجيل الرخاء في فصل الألم وسيادة الله)

نرى في كل من هذين النقيضين جزءا من الحقيقة، وكلاهما يركز على أجزاء كتابية معينة دون اعتبار لجملة ما قيل في الكتاب. أقدم هنا ردا مختصرا على كل منهما:

أولا: الموقف الذي ينفي فاعلية الصلاة هو اتجاه قدري، فيه يصبح العالم كقطع الشطرنج، وليس للإنسان أي دور أو مسئولية حقيقية فيه؛ والتفكير بهذه الطريقة قد يثني الناس عن الصلاة. الخطأ هنا يقع في التركيز على ما يذكره الكتاب عن سمو الله وسيادته مع إهمال الكثير من تعليم الكتاب عن مسئولية الإنسان والجانب الشخصي في تعامل الله مع البشر. الله يتفاعل معنا تفاعلا حقيقيا في واقع زماننا وبطريقة تتناسب مع محدوديتنا بدون أن يؤثر هذا على سموه وسيادته؛ ولأنه هو الله فهو يستطيع أن يكون سيدا متحكما في الأمور وفي نفس الوقت في علاقة قريبة وتفاعل حقيقي معنا؛ والصلاة عنصر مهم في علاقتنا مع الله والصلة به.

الله يعلم كل شيء و"لا يحتاج" أن نخبره عن احتياجاتنا، كما أنه يعرف ما بقلوبنا حتى لو لم ننطق به. كذلك فهو يعطي عطايا الخلق (شمسا ومطرا، حصادا وقوتا، بنينا بل وحياة) للجميع إذا صلوا أم لا؛ لكن ما يميّز أبناء الله هو إدراكهم وتقديرهم للمعطي وتمتعهم ببركة الشركة معه؛ فالمعطي بالنسبة للمؤمن هو الآب المحب الكريم. عادة تتسم علاقة الآباء بالأبناء بالعطاء، لكن مجيء الأبناء لوالديهم بالطلبة هو أمر جوهري في العلاقة بينهم. إن الله في تنازل عجيب ومحبة متفاضلة يدعو أبناءه ليُصلّوا إليه ويخبروه باحتياجاتهم، وهو يسمع ويستجيب لهم. وتتيح الصلاة لنا الفرصة لاختبار تفاعل الله معنا في حياتنا اليومية مما يؤدي إلى النمو في العلاقة الشخصية مع الرب.

مما لا شك فيه أن السلام والراحة هما من نتائج الصلاة، لكن هذا ليس كل شيء، فالله يحقق مقاصده بطرق متعددة؛ والوسائل – مثل الصلاة – جزء من هذه الطرق. إنه امتياز وشرف عظيم لنا أن يستخدمنا الله بهذه الطريقة في إدارته للكون. تعلمنا الكلمة المقدسة الكثير عن فاعلية الصلاة واستجابة الله لها؛ قال الرب يسوع "اسألوا تعطوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم. لأن كل من يسأل يأخذ. ومن يطلب يجد. ومن يقرع يفتح له" مت٧:٧-٨. واضح من هاتين الآيتين أن نتيجة السؤال هي أن الله يعطي؛ وطبيعي أن هذا العطاء يكون بحسب حكمته ومشيئته الصالحة. أيضا يقول الرسول يعقوب "لستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون" يع٤:٢.

بالإضافة، يذكر الكتاب صلوات لأشخاص أو مجموعات ويخبرنا بنتائجها، وهذه النتائج تتطابق مع تحقيق مقاصد الله. فمثلا صلت حنة بحرارة وبكت أمام الله لكي يعطيها طفلا واستجاب الرب طلبتها وأعطاها صموئيل. أيضا "كان إيليا إنسانا تحت الآلام مثلنا وصلى صلاة أن لا تمطر فلم تمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر ثم صلى أيضا فأعطت السماء مطرا وأخرجت الأرض ثمرها" يع٥:١٧-١٨. كذلك صلت الكنيسة لأجل بطرس عندما وضعه هيرودس في السجن، "وأما الكنيسة فكانت تصير منها صلاة بلجاجة إلى الله من أجله" أع١٢:٥، واستجاب الله الصلاة وأرسل ملاكه ليخرج بطرس من السجن.

إن سيادة الله وتعامله معنا في الزمان لا يتعارضان. مسئوليتنا هي أن نتجاوب مع الله في علاقته بنا. كان دانيال على وعي بنبوة إرميا عن عدد سني السبي السبعين، كما فهم أن هذه السنين كانت على وشك الانتهاء ووثق بأن تحقيق النبوة قريب. كل هذا لم يثنه عن أن يأتي لله مصليا ومعترفا بالخطية ومتضرعا من أجل المقدس الخرب والمدينة التي دعي عليها اسم الرب. وإذ كان دانيال بعد يصلي أرسل الله جبرائيل مشجعا له ومعلنا استجابة الرب للصلاة ومنبئا إياه بأمور مستقبلة[٣].

قد نتساءل "إذا لم تصلي حنة أو إيليا أو الكنيسة أو دانيال، هل كان الرب سيعمل ما عمل؟ وإن كان لا بد من الصلاة هل كان سيستخدم الله أشخاصا آخرين؟" أحيانا نشغل أفكارنا بالطريقة التي يرى الله بها الأمور ويسود عليها في عدم محدوديته، وهذا في الواقع لا يجدي ويجب أن نتجنبه. الحقيقة هي أن خطة الله تتحقق دائما، وما قضى به لا بد أن يتم، فإذا كان قد قضى بأن يعمل أمرا استجابة لصلاة شخص فسيصلي الشخص. لكن ما يجب أن نركز نحن عليه هو مسئوليتنا في الصلاة، والاستجابة لدعوة الله لنأتي إليه ونطلب منه ونتمتع بالشركة معه، وهو يسمع ويستجيب. وإذا لم نهتم بالصلاة فهذا فيه خسارة لنا.

ثانيا: يركز أصحاب الموقف الثاني - الذي يبالغ في دور الإنسان - على إيمان المصلي وما يذكره الكتاب من وعود استجابة الصلاة. يُشار أيضا إلى الآيات التي تذكر ندم الله - نتيجة صلاة أو توبة - لتعضيد هذا الموقف.

الإيمان مهم جدا في الصلاة، "لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه" عب١١:٦. لكن إذا افترضنا أن الله سيفعل كل ما نسأله عندما نصلي بإيمان فهل أستطيع أن أثق

في موضوعيتي والتخلي عن أنانيتي وأنا أطلب؟ وهل يمكن أن أثق في نضجي وحكمتي في طلب الصالح لي وللآخرين وللعالم؟ هل أنا الذي أحكم العالم بصلواتي التي أرفعها بإيمان؟ قال أحد الرعاة: "إذا كان الله ملتزما بأن يعطينا أي شيء نطلبه فأنا عن نفسي لن أصلي مرة أخرى لأنه لن تكون عندي الثقة الكافية في حكمتي أن أطلب من الله أي شيء؛ وأعتقد إن فكّرتَ في الأمر جليا ستتفق معي. وإن كان وعد الله بالنسبة للصلاة فيه التزام منه بأن يعطينا كل ما نسأل، في الوقت الذي نسأله، وبالطريقة التي نطلبها تماما فإن ذلك ليضع عبئا غير محتمل على الحكمة الإنسانية الضعيفة. وكيف نحتمل مثل هذا العبء؟"[٤]. في الواقع ينبغي أن نشكر الله لأنه لا يعطينا كل ما نطلب بل يعطي بحسب حكمته هو.

من ناحية أخرى، ليس معنى الطلب بإيمان التأكد من أننا سنحظى بكل طلبة نقدمها، وليست الصلاة بإيمان هي إملاء إرادتنا على الله، لكننا بالإيمان نعلن ثقتنا في محبة الله وسخائه وقدرته على تحقيق احتياجاتنا، وبالإيمان نعبر أيضا عن اتضاعنا وخضوعنا لسيادته وحكمته؛ والله يسمع كل الصلوات ويستجيب بحسب مشيئته الصالحة.

إلى جانب ما سبق، علينا أن نلتزم برسالة الكتاب المقدس ككل إذ يعلّمنا أن الله سيدٌ، يسيّر العالم بحسب خطة أزلية نحو هدف محدد، وهو يستجيب الصلاة بطريقة تتوافق مع قصده. كذلك يجب أن نلاحظ التعليم العام عن استجابة الصلاة.

في الجزء التالي سنرى أولا أن وعود استجابة الصلاة ليست مطلقة وإنما معطاة في إطار معين. بعد هذا نفحص الآيات التي تذكر ندم الله، ثم نعالج السؤال: هل الصلاة تغيّر إرادة الله؟

أ. الصلاة ووعود استجابتها:

عندما نكون أمام طلب ملحّ غالبا نفكر في الآيات التي تشجعنا على الصلاة بحرية وثقة، ونفتش عن الوعود باستجابة الصلاة مثل "ومهما سألتم باسمي فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن. إن سألتم شيئا باسمي فإني أفعله" يو١٤:١٣-١٥، أو "الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم" يو١٦:٢٣. كذلك قد نفكر في بعض الصلوات التي استجيبت في الكتاب ونتخذها مثالا لما ينبغي أن يحدث معنا، كصلاة يعبيص "ليتك تباركني وتوسع تخومي وتكون يدك معي وتحفظني من الشر حتى لا يتعبني. فأتاه الله بما سأل" ١أخ٤:١٠، أو صراع يعقوب الذي قال "لا أطلقك إن لم تباركني"، ثم كانت النتيجة: "وباركه هناك" تك٣٢:٢٦. كل هذا طبيعي وجيد، ومن اللازم أن نثق ونتمسك بمواعيد الله، لكن من الخطر أن نعتبر الأمر بطريقة مطلقة بدون أي حدود. كذلك لا يصح أن نركز على بعض أجزاء الكتاب دون مراعاة لمجمل التعليم، فالكتاب يعلمنا أيضا أن الصلاة تستجاب في إطار محدد وبشروط معينة كما يتضح مما يلي – وإن كنت أذكر أربع نقاط لكنها في الواقع مرتبطة ببعضها، وتمثل مجتمعة اتجاه حياة تطلب ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله:

<u>الطهارة والقلب النقي:</u> نشكر الله لأنه ينظر إلينا في بر المسيح، لكن واجبنا أن نكون جادّين في اتباع القداسة والنمو الروحي[٥]. لا يعني هذا أن الله يستجيب الصلاة بناء على مجهودنا وعملنا، لكن حياة الطهر والنقاء تدل على عدم استخفافنا بالنعمة. ليس أحد منا كاملا لكن التعايش مع الخطية والإصرار عليها يعطل استجابة صلواتنا: "إن راعيت إثما في قلبي لا يستمع لي الرب" مز٦٦:١٨.

<u>الأولويات الصحيحة:</u> عندما نفحص أولوياتنا سنجد أن على رأسها إما طلب ملكوت الله وبره، أو طلب أمور تخدم ذاتي. يرجع الأمر إلى من هو السيد على حياتنا، فإن كان الرب هو الأول سنتلذذ به ونطلب ما هو لمجده ونكون خاضعين له، وهو يعطينا سؤل قلوبنا. أما إذا كانت أولوياتنا ليست مقدسة فسنطلب رديا لكي نرضي ذواتنا، وينتج عن هذا عدم استجابة للصلاة: "تطلبون ولستم تأخذون لأنكم تطلبون رديا لكي تنفقوا في لذاتكم" يع٤:٣.

<u>طاعة الرب والثبات فيه:</u> هذا الشرط نراه بوضوح في العديد من الآيات التي بها وعود باستجابة الصلاة، مثل "ومهما سألنا ننال منه لأننا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضية أمامه" ١يو٣:٢٢، وكذلك "إن ثبتم فيّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم" يو١٥:٧. لا يليق بنا أن نتمسك بالوعد بينما لا نظهر نفس الحماس للثبات في الرب وحفظ الوصايا وعمل الأعمال المرضية أمامه.

الصلاة حسب مشيئة الرب: يقول الكتاب: "وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنه إن طلبنا شيئا حسب مشيئته يسمع لنا، وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه" ١يو٥:١٤-١٥. لكي يسمع الله لطلباتنا يجب أن تكون حسب مشيئته، ومشيئته معلنة في الكلمة المقدسة. عندما نصلي صلوات الكتاب، أو تكون طلباتنا مبنية على مبادئه، نثق أننا نصلي حسب مشيئة الله ونعلم أنه يسمع لنا. نحن نحتاج أن نتعرف أكثر على هذه المشيئة بدراسة الكلمة والتعمق فيها، ونسعى لأن تكون طلباتنا حسب مشيئته.

بالطبع نحن ننمو تدريجيا في حياتنا الروحية، وليس الهدف من التعليم عن الصلاة المستجابة أن نفشل في حياة الصلاة، أو أن ننتظر لنكون كاملين قبل أن نأتي إلى الله باحتياجاتنا، بل أن يكون ذلك محفزا لنا أن نتقدم في حياة القداسة. الله يعرف ضعفاتنا ويدعونا لنتقدم إلى عرش النعمة بثقة البنين؛ فلنأت إليه في كل حين واثقين وخاضعين.

ب. ماذا عن ندم الله؟

يُذكر في بعض أجزاء الكتاب المقدس أن الله ندم على الشر الذي كان سيفعله، أو أن إنذار الله بحدث ما لم يتحقق. ولكي تتوازن الصورة في أذهاننا أبدأ بالإشارة إلى أجزاء أخرى في الكتاب تُعلمنا أن الله "لا يندم"، فيقول الوحي على فم صموئيل "وأيضا نصيح إسرائيل لا يكذب ولا يندم لأنه ليس إنسانا ليندم" ١صم ١٥:٢٩. نتعلم نفس الحقيقة من الكلام الذي وضعه الله في فم بلعام: "ليس الله إنسانا فيكذب. ولا ابن إنسان فيندم. هل يقول ولا يفعل. أو يتكلم ولا يفي" عد٢٣:١٩. كيف إذن نفهم الأجزاء التي فيها يذكر الكتاب أن الله ندم أو يقول أنه سيفعل شيئا ثم يرجع عنه نتيجة للصلاة أو التوبة؟

إذا تأملنا في بعض الأجزاء التي تنتهي بحديث عن ندم الله لوجدنا أن أقوال الرب تتضمن في طياتها تحذيرا عما سيحدث إذا لم يُكترث بها؛ فمثلا كانت الرسالة التي حملها يونان إلى أهل نينوى تعبر عن الحاضر كما كان في تلك اللحظة، وقد أراد الله أن تصل إليهم الرسالة أنه والحال كما هو عليه من شر فإن المدينة ستنقلب بعد أربعين يوما. لا بد أنّ أمْر الله ليونان بالذهاب إلى نينوى كان يتضمن تحذيرا مع رفع القصاص إذا تابت المدينة؛ وبالفعل هذا ما حدث، إذ آمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحا من كبيرهم إلى صغيرهم. وصرخوا إلى الله ورجعوا عن طرقهم الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم. "فلما رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة ندم الله على الشر الذي تكلم أن يصنعه بهم فلم يصنعه" يون٣:١٠.

سمعت في عظة توضيحا عن الأقوال النبوية التي هدفها التحذير: لنفترض أن إنسانا كان يعبر الطريق وهو غير واع بأن هناك سيارة قادمة بسرعة نحوه. قد يراه شخص ويصرخ "ستصدمك السيارة.. ستصدمك السيارة!" فإذا تحرك الشخص بعيدا ونجا يكون التحذير الذي في العبارة قد أدى غرضه؛ لكن إن لم يتحرك سريعا ستصدمه السيارة. فإذا استجاب العابر ونجا هل نأتي إلى الشخص الذي نطق بالتحذير ونقول له "قد كذبت .. لقد قلت شيئا ولم يحدث"؟ بالطبع لا. نحن نفهم أن عبارة "ستصدمك السيارة" تتضمن تحذيرا بأنه إن لم يتجاوب الشخص مع الرسالة ولم يتجنب الخطر فسيحدث ما نطق به المحذر. في الواقع إن لم يسمع الشخص وصُدم بالسيارة نستنتج أن الصرخة المحذرة لم تأت بالنتيجة المرجوة. هكذا هناك نبوات شرطية بها رسالة تحذيرية والقصد الأولي منها هو دعوة الناس للتوبة وتغيير المسار.

إذن ليس معنى توبة الناس ونجاتهم من الشر الذي كان سيلحق بهم إن لم يتوبوا أن الله يغيّر رأيه، أو أن سيادته ليست كاملة، بل على العكس، فالله يجمع بين سيادته وتعامله مع البشر بأن يعطي أحيانا نبوات تحذيرية لتكون الوسيلة التي يستخدمها لرجوع الناس إليه، مثلما حدث في نينوى، حيث كان الله يعمل بسيادة مطلقة ليُرجع يونان من هربه كي يذهب إلى نينوى فتصل الرسالة إليهم ويتوبوا عن شرهم. وعندما استجاب أهل نينوى لرسالة الرب بالإيمان والتوبة رفع الله القصاص الذي حذرهم به.

نرى أيضا في الكتاب المقدس أن صلوات القديسين واستجابة الرب لهم أدت إلى رحمة شعب الله من قصاص معين. مثال على ذلك ما جاء في خر٣٢:٧-١٤، فبينما كان موسى يتلقى الشرائع من الله على الجبل - بعد الخروج من أرض مصر - عمل الشعب عجلا ذهبيا بقيادة هرون وعبدوه، فقال الرب لموسى: "رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم. فأصيّرك شعبا عظيما". لكن موسى تضرع إلى الله وصلى من أجل الشعب. كانت صلاة موسى صلاة جريئة أظهر فيها غيرته على

اسم الرب وحرصه على تمجيده؛ كذلك وضع موسى عهد الله مع الآباء كأساس للطلبة. لم يكن موسى أنانيا، ولم يكتفِ بالبركة له وحده، بل بيّن اهتمامه بمقاصد الله وخير أمّته، وكانت النتيجة أنه صرف غضب الله عن إتلافهم، و"ندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه".

هل كنا ننتظر أن الله يتغاضى عن تصرف الشعب في ذلك الموقف دون أن يعلن لموسى وللشعب ولنا عن غضبه وما يستحقه عمل مثل هذا؟ وإذا كان الله يتفاعل مع شعبه في الزمان فكيف يتم هذا دون أن نجد مثل هذا الحديث؟ وماذا كان يطلب الرب في هذا الموقف من موسى؟ ألم يكن الرب يدعو موسى ليتشفع من أجل الشعب ليرد غضبه عنهم؟ ألم يكن موسى هو الوسيلة التي استخدمها الله ليحقق قصده ويبقي شعبه ويتمم عهده؟ إن الله يريدنا أن نصلي كما قال "وطلبت من بينهم رجلا يبني جدارا ويقف في الثغر أمامي عن الأرض لكيلا أخربها فلم أجد" حز٢٢:٣٠، وعندما قيلت هذه الآية لم يكن هناك من يتضرع لأجل الشعب، كما أن وقت القصاص على الشعب المتمرد كان قد حان. لكن بعد عمل العجل الذهبي وأمام غضب الله كان هناك من يصلى، وكانت إرادة الله أن يرفع القصاص.

الله يتنازل في علاقته بالبشر ويتعامل معنا بما نفهمه، ومن ثم نجد في الكتاب تعبيرات إنسانية تُنسَب إلى شخص الله إذ يستخدم اللغة التي نفهمها كي تصل إلينا حقائق مهمة عنه. نقرأ في تك٦:٥-٦ "ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه". لو فكرنا نحن في أمر عملناه ثم شعرنا نحوه بالحزن والأسف؛ فإن كانت لنا فرصة للرجوع في الزمان ألا نغير مما عملنا قبلا؟ لكن لو افترضنا جدلا أن الله سيبدأ من جديد فهل سيفعل نفس ما عمل؟ لو قلنا أن الله كان سيغير ما بدأ به فإننا ننكر كمال علم الله وسرمديته وسيادته وحكمته وعدم تغيّره في شخصه وصفاته وكمالاته (وحاشا!). لكن حيث أن الله يتعامل مع الإنسان في الزمان فتكون الكلمات "حزن .. وتأسف" معبرة عن مدى كراهية الله للشر وغضبه المقدس على تفاقم الخطية في لغة بشرية. كذلك في استخدام لغة الندم وما شابه يستعمل الكتاب كلمات إنسانية نستطيع فهمها وتتناسب مع تعامل الله معنا في نطاق الزمان.

إذن لا تعني الأجزاء التي تذكر ندم الله أن أي أمر يخرج عن سيادة الله في قضائه، وإنما تعلمنا عن مسئولية البشر في التجاوب المناسب مع الله في تعاملاته معهم، الأمر الذي يجب أن نلتزم به بكل اجتهاد.

ث. هل الصلاة تغيّر إرادة الله؟

أريد أولا أن نحلل السؤال نفسه: لماذا نسأله؟ ماذا نعني به؟ وما الذي ينطوي عليه من افتراضات؟

أحيانا يرد هذا السؤال على الأذهان عندما نصلي لأجل أمر مستقبلي، ونفكر ما عسى تكون النتيجة لو كانت الطلبة لا تتطابق مع خطة الله وقصده؟ هل ممكن أن تغيّر صلاتي من هذه الخطة؟ قد يُسأل هذا السؤال أيضا في سياق ظروف معينة نمر بها، ونريد أن نعرف هل هذه الظروف هي إرادة الله لحياتي؟ هل عليّ أن أقبلها أو يمكن أن أصلي لتغييرها؟ وربما يُطرح السؤال في محاولة لإشباع العقل لفهم هذه الأمور الغامضة.

عندما يُسأل السؤال "هل الصلاة تغيّر إرادة الله؟" يكون الفكر متجها نحو قصد الله والخطة التي يتممها حسب مشيئته. لذلك فهذا السؤال يتعلق بإرادة الله القضائية والتي تُعدُّ في نطاق السرائر غير المعلنة لنا واللامحدود الذي لا نفهمه نحن. أعتقد أننا في طرحنا لهذا السؤال نحاول أن نتعامل مع الأمور السرمدية كما لو كانت تخضع للزمان، وهذا يقود إلى نتائج خاطئة. هذا السؤال يحمل في طياته افتراضا بالتوالي (حكم الزمان) بالنسبة للتفكير والإرادة والفعل من جانب الله بما يوحي أنه مثلنا، محكوم بالزمان الذي يحكمنا، والمستقبل مجهول عنده. كذلك فالسؤال نفسه يفترض أن علم الله بكل شيء ليس كاملا، وأنه من الممكن أن يلوح في الأفق أمر جديد لم يكن معروفا لله قبلا ـ مثل الصلاة بلجاجة أو توبة شخص ما ـ قد يجعل الله يغيّر رأيه. إنه سؤال لا يعتبر سرمدية الله وكمال علمه وعدم محدوديته وعدم تغيّر قضائه.

في الحقيقة لا يوجد شيء يمكن أن يغيّر من إرادة الله القضائية لأن خطته حكيمة وسديدة ولا تحتاج إلى تغيير. كذلك ليس ممكنا أن تتغيّر إرادة الله في وصاياه لأنها كاملة وليس بها عيب. إن الله لا يتغيّر في طبيعته أو في أي شيء آخر. ليست الصلاة فقط التي لا تغيّر إرادة الله، لكن لا شيء على الإطلاق يغيّر إرادة الله بالنسبة لأي أمر. الله عديم التغيّر.

لأن السؤال وراءه افتراضات خاطئة فمن رأيي أن نعتبر السؤال نفسه به خطأ وغير مناسب. ربما يعترض أحد ويقول "لا يوجد سؤال به خطأ أو غير مناسب"، لكن إذا سأل أحد: "كم من الوقت يستغرق دوران الأرض حول القمر دورة كاملة؟" سنسمع في الحال تصحيحا للسؤال، إذ أنه مبني على افتراض خاطيء بأن الأرض تدور حول القمر. وبنفس المفهوم، حيث أن السؤال "هل الصلاة تغيّر إرادة الله؟" ينم عن افتراض خاطيء بالنسبة لشخص الله وصفاته فإني أعتبر أن هناك خطأ في السؤال وأدعو لأن نصححه. فإذا كان القصد من السؤال هو أن نعرف إذا كانت للصلاة فاعلية أم لا فهذا سؤال آخر، وهو مناسب، والإجابة عليه بدون شك هي نعم، فطلبة البار تقتدر كثيرا في فعلها؛ وإن طلبنا حسب مشيئته يسمع لنا. إن الصلاة لها فاعلية ويمكن أن تغيّر مجرى الأحداث بمعنى أنها الوسيلة التي يستخدمها الله في تنفيذ قضائه الذي يشمل قراراتنا وتفاعلاتنا وكذلك صلواتنا. الله يطلب أناسا تصلي وتتضرع أمامه[٦]، وهذا له فاعليته وقيمته الكبيرة في حياتنا. علينا أن نركز على ما أعلنه الله لنا ونستطيع فهمه، وهو أن الله يتعامل معنا في الزمان، وقد أعطانا الصلاة كوسيلة للتواصل في العلاقة معه، كما أنه وعد بأن يستجيب بحسب مشيئته الصالحة وحكمته السماوية.

نصل إذن إلى أن الكتاب يعلمنا أن الله يفعل كل شيء حسب قصد مشيئته، وأن الصلاة تقتدر كثيرا في فعلها. ليس هناك داع لأن نختار بينهما أو نستقطب حول أحدهما أو نحاول إيجاد العلاقة بينهما بما يناسب المنطق البشري، بل علينا أن نتمسك بكليهما معا. لا يصعب على الله أن يحتوي كل ما يحدث، بما في ذلك صلواتنا، في مقاصده وقضائه، لكن يصعب على الإنسان المحدود أن يفهم كيف يمكن هذا. لذلك فلنعكف على الصلاة واثقين في محبة الله وقدرته، وخاضعين لسيادته وحكمته.

٢. الصلاة المناسبة

لا يطلب الله منا أن نصلي إليه بكلمات منمقة أو بصياغة معينة، فالصلاة هي صلة بأبينا السماوي، وهو يعرف ضعفنا ويسمع دائما لصلواتنا. لكن من المهم أن تعكس الصلاة تقديرا لله وعلاقة صادقة معه، فلا نقلل من شأنها بمساواتها بقائمة طلبات، كما لو كان الله موجودا لخدمتنا وتلبية طلباتنا. إن ذلك يكون إهانة لشخص الله، وفي هذا نخطيء خطأ كبيرا إذ أن الحق هو أننا نحن خلقنا لمجده ونحن له. الله هو السيد العظيم العلي. هو أبونا "الذي في السماوات"؛ لذلك فالتعلم من الكتاب عن ما هو مناسب ولائق في علاقتنا معه يساعدنا على النمو والنضج في مختلف نواحي الحياة الروحية بما في ذلك الصلاة. ليس معنى هذا أن تكون العلاقة مع الرب علاقة خوف وجمود، فالله يحبنا ويدعونا للدخول إلى محضره بارتياح وبثقة البنين لنتواصل معه ونعبّر عما نشعر به من محبة وعرفان بالجميل، وما نحس به من إحباط وخوف، وما نريد أن نطرحه أمامه من تساؤل وتحاجج، وكل هذا في إطار الاحترام اللائق بشخصه.

أرادت أستير - الملكة الجميلة محبوبة الملك أحشويروش - أن تدخل إلى الملك لكي تطلب من أجل شعبها، فلبست ثيابها الملكية ووقفت في دار بيت الملك، والملك جالس على كرسي ملكه مقابل المدخل. لم تكن أستير على ثقة إذا ما كان الملك سيمد لها قضيب الذهب ويسمح لها بالدخول في محضره، أم أنها ستتعرض للعقاب نتيجة دخولها للدار الداخلية دون دعوة. إن الدخول إلى محضر الملك شرف عظيم لكنه أمر لا يؤخذ باستخفاف. وما أعظم الشرف والامتياز المعطى لنا، فالدخول إلى محضر الله - ملك الملوك ورب الأرباب - متاح لنا في كل حين في اسم ربنا يسوع المسيح، لكنه ليس أمرا بسيطا يستهان به. إن محضر الملك الرهيب هو - بالنسبة للمؤمنين - الوجود مع الآب السماوي الذي عن يمينه يجلس فادينا ورئيس كهنتنا الأعظم، لكن هذا لا يعفينا من واجبنا أن نأتي إلى الله بخشوع ووقار واتضاع.

الصلاة هي امتياز وواجب أيضا؛ إنها امتياز من خلاله ننال بركات كثيرة، فالشركة مع الله تُغني حياتنا، وتساعدنا في نمونا الروحي، وتعمّق علاقتنا مع الله، وتجعلنا نتغيّر من مجد إلى مجد؛ كما أن ظروف حياتنا ذاتها تتغيّر نحو الأفضل بالصلاة. كذلك الصلاة واجب، فالكتاب يأمرنا أن نصلي بلا انقطاع، وأن نواظب على الصلاة[٧]، وكل ما يأمرنا الرب به هو لخيرنا ولبركتنا، وينبغي أن نفرح به. لكن كثيرا تكون لدينا الرغبة أن نصلي ولا نعرف كيف نصلي. نشتاق أن نكون مجاهدين في الصلاة لكن بعد دقائق نحبط لأننا لا نعرف ماذا نقول. قد نجد المواظبة الدائمة على الصلاة ليست يسيرة ونشعر بالتقصير لا سيما عندما نسمع عن أبطال في الصلاة نعتبر أنفسنا أقزاما بالنسبة لهم. أحيانا نشعر أن واجب الصلاة عبء علينا، وإذا

لم نصلي يداهمنا شعور بالذنب لأننا لم نقم بواجبنا، وقد يدفعنا ذلك لأن نصلي تأدية للواجب فتصبح الصلاة روتينية وخالية من التواصل الحقيقي.

هناك أمور تساعدنا على التقدم في حياة الصلاة، منها التعوّد على التجاوب بالصلاة مع ما نقرأ في الكلمة المقدسة، وكذلك دراسة الصلوات التي ذكرت فيها واستخدامها بحسب الاحتياج؛ وقد أعطانا الرب يسوع نموذجا للصلاة لنتعلم كيف نصلي وما هي الأولويات التي ينبغي أن نعتبرها في الصلاة. من المشجع لنا أن نعرف أن الروح القدس يساعدنا ويوجهنا ونحن نصلي؛ هو "يعين ضعفاتنا لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها" رو٨:٢٦. ومع النمو في الحياة الروحية وفي معرفة الله يزداد تمتعنا بالصلاة واشتياقنا للشركة مع الرب، فنأتي إليه في شوق وعطش متغنين: "يا الله إلهي أنت. إليك أبكر. عطشت إليك نفسي يشتاق إليك جسدي في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء" مز٦٣:١.

حيث أن الصلاة تقوم في إطار شركة وعلاقة شخصية مع الله فلن تكون الشركة سليمة بدون إدراك وتقدير لمن نحن في شركة معه. سمعت العبارة التالية في عظة عن الصلاة: **" الصلاة المناسبة هي التجاوب التلقائي المناسب للوجود في محضر الله"**، وسأتخذ هذه الجملة مدخلا للحديث عن الصلاة المناسبة؛ فلكي نتعلم الصلاة المتوازنة علينا أن ندرب أنفسنا للتفكير أولا في شخص الله الذي نحن بمحضره لندرك شيئا من قداسته وعظمته ونعمته، وهذا له تأثير كبير على الطريقة التي نصلي بها.

ربما تَعَلمنا من الصغر أن الجوانب المختلفة للصلاة هي الحمد والشكر والاعتراف والطلبة والتضرع؛ كل هذه العناصر واجبة ولازمة في علاقتنا مع الله، وينبغي أن تحتوي صلواتنا عليها، ليس كقائمة نتدرج فيها للقيام بالواجب، لكن هذه العناصر تكون مناسبة إذا كانت تجاوبا تلقائيا للوجود في محضر الله. وبينما أكتب عن كلٍ منها على حدة وبترتيب معين، إلا أن التجاوب "التلقائي" قد يفرض تداخلا بينها، أو اختلافا في ترتيبها، فمثلا عندما نعظم الله على قداسته وبره قد يقودنا ذلك إلى الاعتراف بخطيتنا ويتبعه الشكر على الغفران. أو ربما نكون واعين بخطية ارتكبناها أو ضعف روحي يطاردنا ونريد أن نأتي لله بالاعتراف أولا حتى نتمتع بسلام الغفران.

أ. التعبُّد لله (التسبيح والحمد)

الله لا يحتاج إلينا ولا إلى أي شيء على الإطلاق، وتسبيحنا لا يزيد عليه وإذا لم نسبحه لا ينقصه أي شيء؛ لكن لأنه هو الخالق والحافظ لكل الأشياء فنحن مديونون له، ومن اللائق أن نعبده. إنه مستحق أن يأخذ المجد والكرامة والقدرة، وواجبنا أن نقدمها له: "أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة، لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخلقت" رؤ٤:١١.

التأمُّل في شخص الله وأعماله يساعدنا على تقدير عظمته والانحناء أمامه في إجلال وتقدير. قد لا ننتبه إلى جلال الله في الخليقة التي تحيط بنا، ربما لأن أذهاننا مشغولة بأمور الحياة ومشاكلها، أو لأننا لم ندرب أنفسنا على ذلك. يقول المرنم "عظيمة هي أعمال الرب مطلوبة لكل المسرورين بها" مز١١١:٢؛ وكلمة "مطلوبة" تأتي في ترجمات إنجليزية بمعنى التأمل والدراسة. ونحن إذ نفتح عيوننا وأذهاننا نفهم حديث الخليقة، فنرى السماوات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه. البحار والحدائق والحقول والطيور كلها تمجد الخالق العظيم. "في هيكله الكل قائل مجد" مز٢٩:٩. إلى جانب الخليقة المحيطة بنا، من اللائق أن نحمد الرب ونمجده على إبداعه في خلق الإنسان: "أحمدك من أجل أني امتزت عجبا. عجيبة هي أعمالك ونفسي تعرف ذلك يقينا" مز١٣٩:١٤.

عندما نقدر عظمة الله ونرى قبسا من مجده وندرك رهبته وجلاله يكون أنسب شيء نفعله هو أن نسجد أمامه، نعبده ونسبحه ونمجده. فإذا تدربنا على ذلك تكون علاقتنا مع الله فيها صحة ولياقة. نحن نقدر احترام الصغار لكبار السن، كما أننا إذا تواجدنا في محضر شخص "عظيم" بسبب مركزه أو إنجازاته نجد من المناسب أن نبدي الاحترام والتقدير له. والله عظيم في ذاته وفي فضائله، وعظيم في أفعاله، وإن طلب أن نسبحه فلأن هذا هو الصواب، وهو ما ينبغي أن تفعله الخليقة نحو خالقها وسيدها؛ وهذا سبب كاف لعبادتنا له.

لكننا نعبد الله أيضا لأنه فادينا، والتجاوب الطبيعي مع عمل الله في الفداء هو الحب والحمد والشكر والتوقير والإجلال وتسبيح الجالس على العرش والخروف المذبوح، "للجالس على العرش وللخروف البركة

والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين" رؤ٥:١٣. عندما تكون عبادتنا لله نابعة من تقديرنا وإدراكنا لشخصه وما عمله معنا لن تكون واجبا ثقيلا أو روتينا مملا، بل وقتا طيبا مجيدا وتسبيحا ملذا. "سبحوا الرب لأن الترنم لإلهنا صالح لأنه ملذ. التسبيح لائق" مز١٤٧:١.

العبادة المقبولة لله هي عبادة بالروح والحق. قال يسوع: "الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح. والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا" يو٤:٢٣-٢٤. العبادة التي يطلبها الله ليس فيها بطل أو رياء بل صحة ونقاء. إنها لا تعتمد على الماديات والأمور الخارجية، بل هي عبادة نابعة من الداخل، بكل الكيان، وبقلب موحد لله. العبادة هي تكريس كامل وتقديم الكل لله: الروح والعقل والجسد والعواطف وكل القوى، في نقاوة داخلية واستقامة في الحياة[٨]. كذلك فالعبادة الصحيحة هي سجود لله بالحق، وهذا يتطلب أننا نعبده بحسب ما تعلنه لنا الكلمة المقدسة عن شخص الله وصفاته وأفعاله. العبادة بالحق تقتضي أن نقترب إلى الآب في شخص المسيح فادينا، الذي قال: "أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي" يو١٤:٦. لقد فتح المسيح الطريق إلى الأقداس ودخل "إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا" عب٩:٢٤. عندما نأتي إلى الآب نأتي إليه في اسم المسيح، أي في استحقاقه، وفي اتحاد به بالروح القدس. والروح القدس يعيننا ونحن نصلي إذ يشفع فينا بأنات لا ينطق بها، وبه نصرخ يا أبا الآب.

من المهم أن لا تقتصر عبادتنا لله على وقت اجتماعنا مع بعض في الكنيسة والاجتماعات الروحية، بل أن تعكس حياتنا الخاصة أيضا التقدير لله من خلال التسبيح والحمد سواء بالترنيم أو بالصلاة. وأفضل طريقة للتدرّب على الحمد في صلواتنا هي أن نستخدم الكتاب المقدس في ذلك، وبصفة خاصة سفر المزامير، فنتعرّف على الأجزاء التي فيها تغنِّي بعظمة الله وبأعماله. نلاحظ من الكتاب أن التسبيح أو الحث عليه يكون عادة مصحوبا بذكر صفات وأعمال الله التي نسبحه عليها، وكثيرا ما نجد الصيغة: "احمدوا الرب على .."، أو باركوه لأنه .."، أو "اهتفوا .. لأن .."، وما شابه. إننا نسبح الرب على عظمته، نسبح اسمه لأنه قد تعالى، نسبح الله لأنه صالح وإلى الأبد رحمته، نسبحه لأنه حنان ورحيم، نسبحه لأنه بار وعادل. نسبحه لأنه صنعنا ونحن له. نسبحه لأنه فدانا ونحن ملكه. نسبحه لأنه يحبنا ويفرح بنا ويجد لذته معنا. ونسبحه لأننا نحبه ونفرح به ونجد تسبيحه ملذا.

أصلي أن يساعدنا الرب أن نرى عظمته ومجده في شخصه وأعماله وتعاملاته معنا، فتمتلىء قلوبنا وأفواهنا بحمده وتسبيحه دائما، ونقول مع المرنم "أسبح الرب في حياتي. وأرنم لإلهي ما دمت موجودا" مز١٤٦:٢.

ب. الشكر

التجاوب الطبيعي مع الله تجاه ما يعطينا من بركات وخيرات هو القلب الذي يفيض بالشكر والعرفان من أجل نعمه الكثيرة وعطاياه الوفيرة. إننا جميعا بدون استثناء نأخذ من غنى الرب في كل يوم، وإحساناته علينا لا تعد ولا تحصى، بل وُجودنا نفسه يعتمد عليه إذ به نحيا ونتحرك ونوجد، وكل نَفَسٍ نتنفسه وكل يوم نعيشه هو من جود الرب علينا. إن شكر الله وتقدير عطاياه لائق، كما أنه وصية من الرب لنا، "اشكروا في كل شيء. لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم" ١تس٥:١٨.

كثيرا ما يكون الشكر في حياتنا تفاعلا مع ما يحدث في حاضرنا: عند نجاح شخص .. ولادة طفل في العائلة .. شفاء من مرض .. علاوة في العمل .. وما شابه؛ وهذا جيد ومطلوب. لكن كم نشكر الله على البركات الروحية التي لنا في المسيح؟ إننا مهما شكرنا فلن نستطيع أن نقدم شكرا كافيا من أجل الخلاص الثمين وكل ما أنعم به الله علينا في المحبوب. ليتنا نرفع أعيننا نحو الرب لنرى مقاصد العلي وغنى بركاته ومجد ميراثه في القديسين؛ عندئذ سيجري الشكر والحمد من قلوبنا وأفواهنا كتجاوب تلقائي مناسب لما فعله الله معنا.

كذلك فإننا قد نعتبر ما لنا من بركات الزمن - مثل السكن والصحة والطعام والعائلة والعمل والأصدقاء - أمورا مفروغا منها ولا نشكر عليها، وفي هذا ننسى أن الله هو الذي يعطينا كل خير نتمتع به. قال موسى للشعب قبل دخوله أرض الموعد: "اذكر الرب إلهك أنه هو الذي يعطيك قوة لاصطناع الثروة" تث٨:١٨، ونحن يجب أن نذكر هذا ونحمد الرب على كل نعمه علينا.

ينبغي علينا أيضا أن نشكر الرب عندما يمنحنا طلباتنا ويستجيب تضرعاتنا، فلا نكتفي بالشعور بالفرح والعرفان، بل نخصص وقتا - كالوقت الذي نطلب فيه - لنشكر الرب على ما أعطانا. نحتاج أن نتدرب على أن "نعبّر" دائما لله عن شكرنا له.

مما يساعدنا على الشكر أن نخاطب النفس ونذكرها بحسنات الرب كما فعل المرنم حين قال: "باركي يا نفسي الرب وكل ما في باطني ليبارك اسمه القدوس. باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته. الذي يغفر جميع ذنوبك الذي يشفي كل أمراضك. الذي يفدي من الحفرة حياتك الذي يكللك بالرحمة والرأفة الذي يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل النسر شبابك" مز١٠٣:١-٥.

ت. الاعتراف

إن كنا قد آمنا بالرب يسوع فلا بد أننا جئنا إليه أولا بإفلاس تام وتوبة حقيقية وإيمان بعمله على الصليب لفدائنا، ومن ثم غفرت لنا الخطايا من أجل اسمه. إن التفكر في هذا ونحن في محضر الله من شأنه أن يساعدنا على الاتضاع أمامه والفرح بخلاصه. لكننا أيضا كمؤمنين إذ نسير في هذا العالم تتسخ أقدامنا من قذر الخطية؛ وعندما نخطئ نحزن روح الله القدوس، لذا يجب أن نأتي إلى الرب فاحصين أنفسنا ومعترفين بخطايانا؛ ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية.

إن الوعي بحضور الله القدوس يجعل الإنسان يرى ما بحياته من خطية، وهذا يقود إلى التوبة والانسحاق. هذا ما اختبره النبي إشعياء عندما رأى مجد الرب في الهيكل، فأدرك نجاسته أمام قداسة الله وطُهره، وصرخ "ويل لي إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وساكن بين شعب نجس الشفتين لأن عيناي قد رأتا الملك رب الجنود" إش٦:٣-٥، فطار واحد من السرافيم ومس شفتيه بجمرة من على المذبح للتطهير والغفران، فانتزع إثمه وكفر عن خطيته. نحن لا نرى الرب كما رآه إشعياء، لكننا نتعلم من اختباره ومن تعليم الكتاب كله عن رهبة قداسة الله التي في نورها تنكشف لنا خطايانا وتظهر الشوائب التي في حياتنا؛ والتجاوب اللائق مع الوجود في حضرة الله هو الانكسار والتوبة والاعتراف بالخطية والإقرار ببشاعتها. الاتضاع أمام الله أساس مهم للشركة معه، فهو يسكن مع المنسحق والمتواضع الروح، كما أنه يقاوم المستكبرين أما المتواضعون فيعطيهم نعمة[٩].

عندما أخطأ داود مع بثشبع أرسل الله ناثان النبي له[١٠]، وذكّره مرتين أن في ارتكابه للخطية احتقارا للرب ولكلامه: "لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عينيه" ثم يقول "والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني". رأى داود خطيته في الحال واعترف بها وقال "قد أخطأت إلى الرب". لم يلتمس لنفسه عذرا بل أقر بمعصيته، وقال في المزمور "لأني عارف بمعاصيّ وخطيتي أمامي دائما. إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك صنعت" مز٥١:٣-٤. لقد أخطأ داود إلى بثشبع وأوريا والطفل وأهل بيته والأمة الإسرائيلية كلها، لكنه فهم أن جرمه الكبير والخطير كان في خطئه إلى الله، لذلك جاء بتوبة حقيقية وروح منكسرة يطلب من الرب الرحمة والغفران والتطهير من الخطية والإثم. نحن أيضا إذ ندرك أن كل خطية نرتكبها، صغيرة كانت أم كبيرة، هي خطية ضد الله في المقام الأول، يدفعنا هذا إلى التوبة والاعتراف له.

هناك خطايا غير ملموسة يصعب قياسها، ربما تَعودنا أن نتعايش معها أو نتغافلها، مثل الأنانية والمادية والشهوة والحسد والغضب وعدم الاكتفاء والتذمر والكبرياء وما شابه. قد يكون عندنا مرارة وعدم غفران من نحو آخرين، ونركز على ما أخطأ فيه الغير ونتجاهل أو نبرر موقفنا الخاطئ. هناك أيضا خطايا لا تؤخذ بجدية بسبب قبولها في المجتمع أو شيوعها في الأفلام ووسائل الإعلام مثل الاستهانة باسم الله وتدنيسه، والتفوّه بكلمات غير مناسبة. كل هذه الأمور تحزن الرب، وينبغي علينا أن نفحص أنفسنا ونصلي ليكشف الله لنا نقصاتنا كما صلى داود: "اختبرني يا الله واعرف قلبي امتحني واعرف أفكاري وانظر إن كان فيَّ طريق باطل واهدني طريقا أبديا" مز١٣٩:٢٣-٢٤؛ ثم نتجاوب مع توجيه الروح القدس لنا.

عندما نقع في الخطية قد نشعر بالذنب ونتعهد أن نقاوم التجربة أكثر، لكن هذا لا يكفي. هل نتوقع من أحد أخطأ في حقنا أن يعالج الأمر بينه وبين نفسه ويحاول أن لا يكرر ما فعل؟ أوَ لا يجب الاعتذار للمُساء إليه؟ يجب علينا أن نعترف للرب بخطايانا، ونطلب غفرانه، ونعزم على أن نعيش بالتقوى، معتمدين عليه ليساعدنا حتى لا نقترف هذه الخطايا مجددا؛ والرب إله غافر الإثم وصافح عن الذنب، لا يردّ أبدا من يأتي إليه متضعا ومعترفا، بل يهبه غفرانا وعفوا وسلاما لأجل ابنه الذي حمل إثم جميعنا.

الاعتراف بالخطية أمر لازم بالنسبة لموقفنا تجاه الله، لكنه أيضا مهم لنا ولسلامنا إذ أن عدم الاعتراف يسبب الحزن والاكتئاب، أما الإقرار بالخطية فينتج عنه التمتع بالغفران ومن ثم الفرح والسلام، "من يكتم خطاياه لا ينجح ومن يقر بها ويتركها يرحم" أم٢٨: ١٣. اختبر داود هذا فقال "لما سكت بليت عظامي من زفيري اليوم كله"، لكنه اعترف بخطيته وغفر الله له، "قلت أعترف للرب بذنبى وأنت رفعت آثام خطيتي"، وكانت النتيجة أن عرف داود فرح الغفران، وترنم قائلا "طوبى للذي غفر إثمه وسترت خطيته" مز٣٢: ١-٥.

ث. الطلبة

الطلبة عنصر مهم في الصلاة إذ نأتي إلى الله باحتياجاتنا وآلامنا وكذا طموحاتنا. نرى في الكتاب أناسا طلبوا من أجل الشفاء، من أجل النجاح في مهمة، من أجل العون في الشدة، من أجل الإنصاف، من أجل الخلاص من الأعداء ... في الواقع إننا في إطار العلاقة مع أبينا السماوي نستطيع أن نأتي إليه بجميع احتياجاتنا – لا نستصغر ولا نستكبر أمرا؛ والله يعطي خيرات للذين يسألونه، وهو قادر أن يفعل أكثر جدا مما نطلب أو نفتكر. إن الإيمان بسيادة الله لا يعني الاستسلام للظروف التي نمر بها. فإذا كان هناك ضيق أو ظروف صعبة فواجبنا أن نأتي بها إلى الله طالبين أن يغيرها، إذا كان ذلك مناسبا.

عندما نمر بوقت صعب قد تسيطر المشاكل على الأذهان وتهيمن على الأفكار وتصبح هي محور الصلاة. من الطبيعي، ونحن تحت ثقل الألم والتجربة، أن نأتي إلى الله صارخين وطالبين المعونة؛ والله يعلم ضعفنا ويرثي لنا. لكن ينبغي أن نكون حذرين من أن نُبتلع في دوامة المشاكل؛ والأفضل هو أن نقضي بعض الوقت أولا في التفكّر في الله وفي قدرته وصلاحه وحكمته ومحبته. هذا يزيد ثقتنا في الرب، ويشجعنا ونحن نطلب منه، ويدفعنا لنلقي همومنا عليه.

تلعب أولوياتنا دورا كبيرا فيما نركز عليه في طلباتنا، وهناك حاجة ماسة إلى فحص الأولويات والدوافع إذا كنا نريد أن نعيش بالحقيقة لمجد الله وتحقيق مقاصده. يجب أن لا ننسى أننا جزء من الكل، وأن قصد الله في العالم أوسع جدا من رغباتنا الشخصية وأكبر بكثير من دائرتنا الصغيرة والجزء الذي يخص كل منّا. هذا لا ينفي اهتمام الله باحتياجاتنا وكل دقائق حياتنا، وإنما يوجهنا لأن نتضع أمامه لإتمام مقاصده العليا بالطريقة التي يراها، لمجده هو وليس لآخر، ولنطلب ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لنا.

إذا فحصنا صلواتنا، هل نجد أنها تقتصر على احتياجاتنا الزمنية المتعددة؟ أم أننا نطلب أيضا أن يزيدنا الرب حبا لشخصه، ونموا في معرفته، واتباعا لمثاله، ومحبة لشعبه، وتحملا لمن يسيئون إلينا؟ عندما يزداد الوعي بحضرة الله تتنقى الدوافع وتسمو الطلبات. "إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض" كو٣: ١-٢.

عندما نصلي يجب أن لا ننشغل بما قضاه الله منذ الأزل، ولا نتخيل أنه يمكن لنا رؤية الأمور كما يراها الرب السرمدي من أعالي سماه، لكن سيزاح الستار عما سيحدث في حينه. إننا نصلّي في إطار العلاقة مع أبينا السماوي، فنأتي إليه بالثقة في قدرته ومحبته نحو أبنائه، ونعلن عن احتياجنا واتكالنا عليه، ونلقي رجاءنا بالتمام على نعمته. وقد علمنا الرب يسوع أن نصلي بلجاجة فلنفعل هذا ولا نفشل.

أحيانا نتوقع أن يستجيب الله لنا ويحقق طلباتنا بطريقة معينة وفي الوقت الذي نريده، وغالبا ما تكون رغبتنا أن يعمل الله في الحال؛ وإن لم ننل ما طلبناه قد تخيب توقعاتنا ونظن أن الله بعيد عنا أو أنه لا يسمعنا أو لا يستجيب لنا. أعترف أني كثيرا ما أحسست أن الرب يتمهل كثيرا وأضيق من طول الانتظار. لكن من منا يتصور أبا صالحا حكيما يستجيب لمطالب صغيره دائما وفي الحال؟ أعتقد أن جميعنا سيجد هذا غير منطقي، ولا نتوقع حدوثه. ومع ذلك فإننا كثيرا - ولو في عقلنا الباطن - ننتظر هذا من الله! قد نظن ونحن نطلب أننا نعرف كل ما هو لخيرنا، لكن الله يعمل لخيرنا الحقيقي كما يراه هو؛ ولنتذكر أن الله لا يدلل أولاده دلالا يفسدهم، فهو لا يعطينا عطايا كثيرة دون أن نحتاجها أو نكون مهيئين لأخذها؛ لذلك فلنستودع أنفسنا لهذا الإله الأمين، وننتظره يفعل بحكمته وفي توقيته هو.

ج. الصلاة من أجل الآخرين

الصلاة من أجل الآخرين أمر مهم في علاقاتنا ببعض في جسد المسيح؛ والتضرع من أجل الغير يمثل جزءا هاما من الصلوات المذكورة في الكتاب المقدس. صلى الرب يسوع من أجل التلاميذ ومن أجل الذين يؤمنون به بكلامهم؛ وهو يشفع فينا دائما أمام الآب. كذلك كان الرسول بولس يصلي دائما من أجل الكنائس والأفراد، كما طلب من المؤمنين في رومية أن يجاهدوا معه في الصلوات من أجله إلى الله لكي ينقذ من المقاومين في اليهودية، ولكي تكون خدمته مقبولة عند القديسين''. ولأهمية الصلاة من أجل الشعب قال صموئيل: "وأما أنا فحاشا لي أن أخطيء إلى الرب فأكف عن الصلاة من أجلكم بل أعلمكم الطريق الصالح المستقيم" ١صم١٢:٢٣.

إنها بركة كبيرة لنا وللآخرين عندما نشعر باحتياجاتهم، ونتقدم بها إلى عرش النعمة، ثم نلاحظ الله يعمل في حياتهم. هذا يزيد من شركتنا بعضنا مع بعض ويشجعنا في نمونا الروحي. كذلك علينا أن نصلي من أجل الذين يسيئون إلينا ويضطهدوننا. لقد غفر الله لنا ويجب أن يكون عندنا القلب المتسامح والغفور؛ والصلاة هي أفضل مكان فيه تصفى النفوس وتُلقى المشاعر السلبية بعيدا.

غالبا تنحصر الصلاة من أجل الغير في عائلاتنا والقريبين منا؛ وإن كان هذا أمرا طبيعيا لكننا نحتاج أن نوسع دائرة اهتمامنا لتشمل الكنيسة المحلية والعامة وكذلك بلادنا وعالمنا باحتياجاته الكثيرة والمتعددة. قد يساعدنا على الصلاة من أجل الأماكن المختلفة في العالم أن نتعرف على الاحتياجات الموجودة فيها؛ وكلما عرفنا عن أمور محددة كلما زاد اهتمامنا بالصلاة والمتابعة.

كما ذكرت في الطلبة لأجل أنفسنا، علينا أيضا أن نفحص صلواتنا من أجل الآخرين، ونرى إذا ما كانت تقتصر على الأمور الزمنية والمادية أم أن اهتمامنا الأول من أجلهم هو بالروحيات. كان الرسول بولس يشكر من أجل التقدم الروحي للآخرين، ويتضرع أن يعطيهم الله روح الحكمة والإعلان في معرفته وينير أذهانهم للفهم الروحي، ونحن أيضا ينبغي أن نفعل هذا.

٦ الإرشاد وسيادة الله

كلنا يتخذ قرارات يوميا، وتتباين هذه القرارات في أهميتها وتأثير تبعياتها علينا وعلى آخرين من حولنا. من وقت لآخر نجد أنفسنا عند مفترق طرق ونواجَه بضرورة اتخاذ قرار مهم، وقد تنتابنا الحيرة ويملأنا التردد ونشعر أن اتخاذ القرار أمر صعب إذ لا نعلم دائما ما هو الصالح لنا، كما أننا نجهل التبعيات التي يقود إليها مسار معين. ربما يكون أمامنا عدة خيارات كلها حسن، لكننا لا ندري أيا منهم هو "الأحسن". في مثل هذه الأوقات يرفع المؤمن قلبه إلى الله العالِم بكل شيء والمتحكم في زمام الأمور ليرشده ويعطيه حكمة تساعده في الوصول إلى قرار صائب. إلى جانب احتياجنا الماس للإرشاد يتوق من عرف نعمة الرب المخلصة أن يعيش حياة مرضية عند الله، وعندما يكون أمام قرار مهم أو اختيار صعب ينشغل بالسؤال: "ما هي إراداة الله لي في هذا الموقف؟" و"كيف أعرف خطة الله في حياتي؟" وأسئلة أخرى من هذا القبيل.

لا يقتصر مجال الإرشاد على اتخاذ القرارات التي نواجهها عند مفترق الطرق، فالإرشاد جزء مهم في علاقتنا بالرب، ونحن نحتاج إلى هدايته ورعايته في كل أمورنا ولا سيما في حياتنا الروحية لفهم وتطبيق كلمة الله التطبيق الصحيح، وكذلك في خدمتنا للسيد وكرازتنا للآخرين.

لقد وعد الرب بأن يرشدنا ويقودنا في هذه الحياة، "أعلمك وأرشدك الطريق التي تسلكها. أنصحك عيني عليك" مز٣٢:٨. أيضا "الرب صالح ومستقيم. لذلك يعلم الخطاة الطريق. يدرب الودعاء في الحق ويعلم الودعاء طرقه .. من هو الإنسان الخائف الرب. يعلمه طريقا يختاره" مز٢٥:٨، ٩، ١٢. الوعود بالإرشاد في الكتاب المقدس معظمها يرد في سياق تطبيقات روحية للرجوع إلى الله والتدرب في الحق وتعلم طرق الرب؛ "الرب راعي .. يهديني إلى سبل البرّ من أجل اسمه" مز٢٣:١، ٣. هذا أيضا واضح في مفهوم إرشاد الروح القدس وقيادته للمؤمنين، "لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله" رو٨:١٤. والانقياد بالروح هو عكس العيشة حسب الجسد، فالذين ينقادون بالروح، بالروح يميتون أعمال الجسد. ويعمل الروح القدس فينا لتجديد الذهن وتقديس الحياة، وهو يغيِّرنا من مجد إلى مجد لنشابه الابن المبارك، وسيصل بنا إلى بيت الآب آمنين.

من ناحيتنا ينبغي أن نصوّب أعيننا نحو ذات الهدف: أن ننمو في حياة القداسة ونعيش في خدمة السيد طالبين مجده في كل حين وفي كل الظروف. عندما نحيد عن هذا الهدف يعلمنا الرب ويؤدبنا ويوبخنا حتى نرجع ونصبو نحوه ونطلب ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله.

ليس معنى ما سبق أن الرب لا يهتم بتفاصيل حياتنا ودقائقها. إنه أبونا المحب ونحن نعيش في حماه؛ وهو راعينا الصالح الذي يهدينا الطريق[١]؛ وصورة الراعي فيها الحماية والتضحية والإمداد، إلى جانب القيادة في المسار الآمن. وفي الحقيقة إن كل ما يعمله الرب في حياة المؤمن لينميه ويقدسه ينعكس عليه في اتخاذ قراراته والتفكير في أموره بما يسر الله ويرضيه.

١. **كيف أعرف إرادة الله لحياتي؟**

من المفيد أن نتذكر هنا ما ذُكر سابقا عن إرادة الله وأنها ترد بمعان مختلفة في الكتاب المقدس. هناك تمييز بين إرادة الله السائدة والتي تعبر عن قضائه في كل ما يحدث وسيادته عليه، وإرادة الله المعلنة في وصاياه وما يطلبه الرب منا.

عندما نسأل "كيف أعرف إرادة الله لحياتي؟" غالبا ما يكون السياق هو معرفة "إرادة الله" في أمورنا الخاصة: ماذا أعمل .. أين أعيش .. هل سأتزوج .. ومن أتزوج؟! وما شابه. ويصبح السؤال ملحا عندما يريد شخص أن يعرف إذا كان الله يدعوه لخدمة معينة أو للتفرغ لعمل الرب. السؤال لمعرفة إرادة الله يعبّر عن رغبة في طاعة الله وعمل ما يرضيه، لكن ما الذي نريد أن نعرفه تحديدا؟

هناك تفكير يفترض أن الله رسم لكل منا خطة معينة "مثالية" بها أحسن الخيارات، مثل المهنة الأمثل لي، والشخص المناسب للارتباط به، والمكان الأفضل لأعيش فيه، وغير ذلك من الأمور (خطة أ)، ويعتبر أن مسئوليتنا هي أن نطلب من الله ليكشف لنا هذه الخطة كي نسير فيها ونكون عاملين مرضاته. إذا أخذنا بهذا الافتراض قد نخشى أن نحيد عن تلك الخطة أو نخطئ معرفتها فتكون العواقب وخيمة، أو على الأقل

نفكّر أنه إذا لم يتطابق اختيارنا مع ما في خطة الله فلن يكون ذلك الأفضل لنا (خطة ب)، ونرجو أن يرجعنا الله في وقت لاحق إلى خطته المثالية مرة أخرى. هناك عدة مشاكل في هذا الافتراض، فمن ناحية هو يُعقّد الحياة ويضع أمامنا معضلة "اكتشاف" ما لم يعلنه الله لنا. كذلك فهو يتواءم مع طريقتنا نحن في التفكير لكنه لا يتناسب مع سرمدية الله وقضائه وسيادته على كل الأمور؛ فلماذا نفكر أن الله رسم لكل منا خطة افتراضية، وهو في حكمته وصلاحه قضى بغيرها، وهي التي تحدث فعليا، وتحتوي اختياراتنا؟!

الله له خطة كاملة يحققها بسيادة تامة لأجل مجده؛ وكل دقائق حياتنا بما فيها من قرارات واختيارات هي جزء من هذه الخطة. إنها خطة تشمل كل التاريخ، وهدفها واضح ومعلن في الكلمة المقدسة "إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السماوات وما على الأرض في ذاك الذي فيه نلنا نصيبا معينين سابقا حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته" أف١:٩-١١. إن حياتنا هي قطعة صغيرة في هذه الصورة الكبيرة التي فيها يعمل الله بسيادته، محققا الفداء والخلاص في شخص المسيح، وداعيا لنفسه شعبا خاصا يعمل به وفيه نحو التحقيق الكامل للخلاص في الأبدية المجيدة حيث يملك المسيح للأبد، و"تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب" في٢:١٠-١١. هذا ما يجب أن ننشغل به أكثر من أي شيء آخر؛ "اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم" مت٦:٣٣.

بينما يحقق الله قصده الأزلي ويقودنا بعنايته ورعايته من خلف الستار حتى يصل بنا إلى المرفأ الأمين، لا يتعامل معنا كآلات بل كمخلوقات عاقلة، إذ خلقنا على شبهه وأعطانا القدرة على التفكير والتقييم والاختيار، كما منحنا مواهب وإمكانيات لنستخدمها. الله لا يفتح لنا نافذة على المستقبل لنرى ما سيحدث في حياتنا، ولا يخبرنا، بطريقة ما، عما يجب أن نفعله في كل موقف نطلب معرفة إرادته فيه. من ناحيتنا ينبغي أن نقوم بمسئوليتنا في اتخاذ قراراتنا ونحن معتمدين على الرب في كل أمورنا، ولا نفكر أنه لكي نرضى الله علينا أن نصل بطريقة ما إلى معرفة ما قضى الرب به لنعمله.

الله "أب" صالح وحكيم، يريدنا أن نكون ناضجين، وهو يعطينا الفرصة أن نختار وندخل في تجارب تصقلنا، وهذا يكون تحت حمايته وسيادته. نحن كآباء نشجع أولادنا على اتخاذ قرارات، ولا نفرح بأن ننشئ أولادا غير مدربين على صنع القرار، فكم بالحري أبونا السماوي؛ إنه يدربنا في النضج الروحي، ويعمل في كل الأشياء نحو خيرنا الأعظم: أن نكون مشابهين صورة ابنه[٢]. يجب ألا نجزع من هذا التدريب، بل نتيقن من وعود الرب لنا بالخير والرجاء: "عرفت الأفكار التي أنا مفتكر بها عنكم يقول الرب أفكار سلام لا شر لأعطيكم آخرة ورجاء" إر٢٩:١١.

لقد أعلن الرب كل ما يسره بالنسبة لحياتنا وسلوكنا في الكلمة المقدسة؛ ونحن مدعوّن لا لنكتشف ما لم يعلن، بل لأن "نفهم" مشيئة الله، و"نعمل" مشيئة الله، و"نختبر" إرادة الله[٣]؛ والافتراض في هذا كله أن إرادة الله هذه معلنة، والمطلوب منا أن نعرفها ونفهمها من كلمة الله، ونعمل بها، ونعيشها اختباريا. الله يريدنا أولا أن نأتي إليه بالتوبة والإيمان بالمسيح لغفران الخطايا، فنعرفه ونكون في شركة مع جلاله؛ وأيضا أن نتعلم من الكلمة المقدسة كيف نسلك بما يرضيه؛ "اسلكوا كأولاد نور. لأن ثمر الروح هو في كل صلاح وبر وحق. مختبرين ما هو مرضي عند الرب" أف٥:٨-١٠.

إن لم يكن هدفنا في الحياة هو طلب مجد الله والسلوك بما يرضيه في حياة القداسة حسب ما أعلنه لنا، فليس هناك معنى لمحاولة "اكتشاف إرادة الله" بالنسبة للعمل أو الزواج أو غير ذلك من الأمور. ينبغي ألا نفصل طلب الإرشاد في أمورنا الخاصة عن هدف حياتنا الأسمى. ومع أهمية الأمور الخاصة التي نطلب الإرشاد من أجلها، إلا أنها تعتبر ثانوية بالنسبة لمشيئة الله المعلنة في الكلمة المقدسة. يجب أن يكون هدفنا أن تخدم هذه الأمور الزمنية قصد الله السامي في أن نعيش حياة التقوى والقداسة، وننمو في معرفة الله، ونعمل على نشر الإنجيل، ونستعد للقاء السيد، ليكون الكل لمدح مجد نعمته.

في الواقع إن الخطوة الأولى التي تساعدنا في اتخاذ قراراتنا في أمورنا الخاصة بما يرضي الله هي أن نعرف إرادته المعلنة في الكتاب المقدس، ونعمل نحو تحقيقها في حياتنا، ونجعلها الإطار العام الذي يحكم اختياراتنا. وإذا فعلنا هذا سنستطيع أن نستبعد كل ما يتعارض مع وصايا الله وما لا يؤول لمجده، كذلك ستنفتح بصيرتنا للتجاوب مع إرشاد الله لنا ونحن نتخذ تلك القرارات.

٢. إرادة الله المعلنة فى الكتاب المقدس

من الناحية الشاملة، نتعلم إرادة الله من خطته الأزلية التي يحققها زمنيا لخلاص البشرية ليجمع كل شيء في المسيح، وهذا نجده في الكتاب المقدس بجملته. عندما نرى حياتنا في إطار عمل الله الشامل يدفعنا ذلك نحو أهداف عليا لمجد اسمه.

من الناحية التفصيلية، يمكننا معرفة إرادة الله لحياتنا من خلال الوصايا الصريحة والتعليم المباشر، ومن خلال تعاملات الله مع شعبه وما يوضحه ذلك من أمور تُسرّ الله وأخرى تغضبه، وأيضا من مثال وحياة الابن المبارك الرب يسوع المسيح. والكتاب المقدس كله نافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البر لكي يكون إنسان الله كاملا متأهبا لكل عمل صالح[٤].

التعليم المباشر:

الكتاب المقدس به تعليم صريح عما يطلبه الله من الإنسان وعن كيفية السلوك بالتقوى في مخافة الرب ورضاه. كل وصايا الله تعبر عن مشيئته من نحونا وما يريدنا أن نكون عليه. إنها سراج لأرجلنا ونور لسبيلنا. تشمل الوصايا حياة الإنسان كلها بما في ذلك دوافعه وطموحاته وأهدافه وأولوياته وتطلعاته وكل ما يشبعه ويتلذذ به. مهما كان نضجنا الروحي فإننا نحتاج أن نزداد ونمتلئ من معرفة مشيئته، وأن نتدرب في طاعته؛ "طرقك يا رب عرفني. سبلك علمني. دربني في حقك وعلمني" مز٢٥:٤.

إلى جانب الوصايا المحددة، نجد في الكتاب المقدس خطوطا عريضة عن إرادة الله لحياتنا، فالله خلقنا لمجده والتمتع به[٥]، وهو اختارنا لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة[٦]. إن حياة القداسة تمجد الرب، وهي من أهم الأولويات بالنسبة لما يطلبه الله منا، "هذه هي إرادة الله قداستكم" ١تس٤:٣.

لخّص شخص عدة أجزاء تعلمنا عن إرادة الله قائلا: إرادة الله هي أن نكون قديسين، حكماء، ناضجين، فرحين، مصلين، وخاضعين. مسئوليتنا هي أن نصبو نحو هذه الأهداف ونعمل على تحقيقها بطاعتنا لوصايا الرب المقدسة، وطلب مجده في كل دقائق حياتنا، والتلذذ به دائما، والنمو في حياة النعمة والتقوى. هذا يتطلب الاهتمام بقراءة كلمة الله بانتظام وتطبيقها في حياتنا فنتعلم كيف نعيش كأبناء الله الحياة المقدسة المرضية أمامه.

عندما سُئل الرب "يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس"، قال: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك" مت٢٢:٣٧-٣٩، ثم عقب بالقول: "بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء" مت٢٢:٤٠. إن الالتزام بالمحبة وطاعة الوصايا يرتبطان ببعضهما، فإذ نحب الله نطيعه، كما أن طاعته يجب أن تكون بدافع المحبة لله والآخرين. قد تبدو الوصية بمحبة الله بسيطة في تطبيقها، لكن في الواقع نحن لا نحب الرب بالكلية والشمولية التي يطلبها منا، وكلما نمونا في النعمة وفي معرفة الله ننمو أيضا في محبتنا لشخصه وطاعتنا لوصاياه.

تعاملات الله مع شعبه:

نتعلم الكثير عما يسر الله ويرضيه من خلال أعماله وتعاملاته مع شعبه وشرحه لمعنى الأحداث والمغزى منها. فمثلا نتعلم من حياة إبراهيم أن الله يسر بالثقة فيه وبطاعة وصاياه؛ كما نتعلم من حماقة شاول أن الله يسر بالطاعة أكثر من الطقوس؛ ومن سقوط داود في الخطية ندرك أن في ارتكاب الخطية احتقارا لله ولكلامه. كذلك في تعاملات الله مع شعبه من خلال النبي هوشع نتعلم عن محبة الله الغامرة الغافرة الحنونة والمترفقة، وأنه يريدنا أن نتوب ونرجع إليه إذا ضللنا الطريق.

ندرك أيضا من تعاملات الرب يسوع مع الخطاة التائبين أنه يتحنن على المتضعين والمنكسري القلوب ويغفر خطاياهم ويشجع إيمانهم، لكنه يكره رياء الفريسيين وتكبرهم وبرهم الذاتي.

ما سبق هو بضعة أمثلة قليلة ترينا أننا نتعلم إرادة الله من خلال علاقته بالبشر في الأحداث المدونة بالكلمة المقدسة.

مثال الرب يسوع:

كان الرب يسوع يفعل ما يسر الآب ويرضيه في كل حين[٧]، وأعلن الآب مسرته بابنه الحبيب في القول: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" مت١٧:٣؛ فإذا أردنا أن نسر الآب ونعمل إرادته ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا نسلك نحن أيضا[٨]. وإذ نقرأ الكلمة المقدسة بتدقيق نتعلم كيف عاش الرب وكيف أطاع. فيما يلي أذكر لمحات قليلة من حياة الرب:

كان دائما يطلب مجد أبيه، وأطاع طاعة كاملة ..
عاش حياة البر كاملة وتمم كل الوصايا ..
أحب للمنتهى، وضحى بحياته من أجل من أحب ..
جال يصنع خيرا ويكرز ببشارة الملكوت ..
قصبة مرضوضة لم يقصف وفتيلة مدخنة لم يطفئ..
لم يوجد في فمه مكر.. بل كانت كلمات النعمة تخرج من فمه ..
إذ شُتم لم يكن يشتم عوضا وإذ تألم لم يكن يهدد بل كان يسلم لمن يقضي بعدل ..

اتسمت حياة الرب يسوع على الأرض ـ من التجسد إلى الصليب ـ بالألم وإنكار الذات، فقد تخلى عن مجده وأخذ صورة جسد تواضعنا وأطاع حتى الموت موت الصليب[٩]. ونحن مدعوون ليكون فينا هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضا. وقد علمنا الرب صراحة أن تبعيته تتطلب الاتضاع وإنكار الذات وحمل الصليب[١٠]؛ وإن فعلنا هذا سنختبر ليس فقط شركة آلامه بل أيضا نصرة حياته وقوة قيامته، كما نشترك معه في مجده.

حياة الرب يسوع هي المقياس الكامل لنا، ومهما تقدمنا في حياتنا الروحية فإننا بعيدون جدا عن هذا الكمال. أصلي أن يساعدنا الرب أن نتمثل بشخصه فننمو في حياة القداسة والنضج "إلى قياس قامة ملء المسيح" أف١٣:٤.

عندنا إذن المصدر الغني الذي يعلمنا إرادة الله لحياتنا ويساعدنا في عملها، كذلك فإن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة[١١]. ليتنا نطلب لأنفسنا ما طلبه الرسول بولس لأهل كولوسي أن نمتلئ من معرفة مشيئة الله في كل حكمة وفهم روحي، ونسلك كما يحق للرب في كل رضى مثمرين في كل عمل صالح ونامين في معرفة الله[١٢]. هذا هو الهدف الأسمى لحياتنا، وهو هدف عال وصعب المنال، لكننا لا نفعل هذا بدون الرب وعونه، فالله أعطانا روحه ويجعل وصاياه في دواخلنا ويكتبها على قلوبنا ويمكّننا من حفظها[١٣]. وإذا تعثرنا في الطريق فباب الرجاء مفتوح لنا دائما إذ نأتي للآب تائبين وهو يقبلنا بأذرع مفتوحة في شخص ابنه.

٣. إرشاد الله لنا في أمورنا الخاصة:

أفضل ما يهيئنا لاتخاذ قرارات صائبة واختيارات جيدة هو العلاقة القريبة بالله، والتي تنمو عن طريق دراسة الكلمة والصلاة والشركة مع المؤمنين وممارسة كل وسائط النعمة؛ وهذه بدورها تزيد من قدرتنا على التفكير الناضج القادر على اتخاذ قرارات حكيمة.

المباديء التي يعطيها لنا الكتاب المقدس هي جزء كبير من عملية اتخاذ القرار بما يرضي الله، بل إنها تستمر معنا بعد اتخاذ القرار كي نتصرف بالتقوى في الموقف الذي نكون فيه أيا كان. لكن الكتاب لا يزودنا بالتفاصيل الدقيقة لكل خطوة نخطوها، ولا يعطينا تعليمات صريحة لمواقف محددة مثل "هل ألتحق بكلية التجارة أو الهندسة؟". والمسئولية التي تقع على عاتقنا هي أن نطبق بحكمة المباديء الموجودة في الكتاب المقدس على ظروفنا، معتمدين على الروح القدس لفهم التطبيق المناسب.

أحيانا يكون السؤال عن معرفة إرادة الله هو في الحقيقة محاولة للتخلص من مسئولية القيام بدورنا في التفكير وتقييم الأمور واتخاذ القرار. لقد عهد الله لنا بمسئولية في التصرف، ومنحنا امتياز القدرة على أخذ القرار، وزوّدنا بوسائل وإمكانيات؛ ويجب أن نقوم بدورنا ولا نتملص من مسئوليتنا. لا يعني هذا أن نحاول تدبير أمور حياتنا باستقلالية عن الله، بل ينبغي أن نعمل واجبنا متكلين عليه وطالبين منه الحكمة والعون والإرشاد. "توكل على الرب بكل قلبك وعلى فهمك لا تعتمد. في كل طرقك اعرفه وهو يقوم سبلك" أم٣:٥-٦.

عند اتخاذ القرارات غالبا ما نكون مدركين لمحدوديتنا، وقلة خبرتنا، واحتياجنا للمعونة لنصل إلى قرار جيد لنا أو لعائلاتنا. ماذا نفعل عمليا إذن عند الوقوف أمام قرار؟ وكيف نتمتع بإرشاد الله لنا؟

من الناحية السلبية، علينا أن **نتجنب نهائيا** قراءة الكف والفنجان والأبراج وكل وسائل التنجيم، كذلك يجب عدم اللجوء إلى من يدّعون معرفة الغيب أو الاتصال بعالم الأرواح. من المهم ألا نستخف بهذه الأمور وألا نشترك فيها على سبيل التسلية، فهي لا ترضي الله ولا يستخدمها أبدا لتوجيهنا، كما أنها خطرة على سلامتنا الروحية ويجب الابتعاد عنها تماما. إن كنا نريد أن نعمل إرادة الله فلا نلجأ لوسائل لا يُسرّ بها الله[١٤].

يلجأ بعض الناس إلى فتح الكتاب المقدس بطريقة عشوائية لعلهم يجدون رسالة من الله لتوجيههم في اتخاذ قرار، وربما يؤدي ذلك إلى فهم غير صحيح للنص، فقد نتأثر بالظروف التي نمر بها ونفسر الكتاب بحسب رغبتنا، وقد يقود ذلك إلى قرار خاطئ يسبب لنا تشويشا في الفكر. بالأحرى يجب أن نفهم أجزاء الكتاب المقدس في السياق الذي كتبت فيه، ثم نستخلص التطبيق لحياتنا.

في ظروف معينة، كان الله يتعامل مع شعبه في القديم بوسائل مباشرة وملموسة، فقد قاد الرب شعبه في البرية بسيره أمامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم الطريق، وليلا في عمود نار ليضيء لهم[١٥]؛ كذلك كان رجال الله يسألونه عن أمور محددة والرب يجيبهم عن طريق الأوريم والتميم[١٦]. استجاب الرب طلبة جدعون عندما وضع علامة الجزة للتأكد إذا ما كان الرب يخلص إسرائيل بيد جدعون "كما تكلم"!، قد يُظهر هذا الطلب ضعفا بشريا، لكن الله يعرف جبلتنا ويعلم ضعفنا، وبالفعل أزاح الرب الخوف عن جدعون من خلال العلامات. بالإضافة إلى ذلك كانت القرعة تُلقَى لتحديد مشيئة الرب في أمر، كما حدث في تقسيم الأرض[١٧]. استخدمت الأحلام والرؤى أيضا في العهد القديم لقيادة الشعب وتتميم مقاصد الله، وفي العهد الجديد ورد ذكر الأحلام وظهور الملائكة بخصوص ميلاد المسيح وحفظه في الطفولة. كذلك حلمت زوجة بيلاطس وتألمت من أجل "البار" وحذرت زوجها عند محاكمته للرب يسوع. أما عن الرؤى المذكورة في العهد الجديد فهي أساسا ترتبط بانتشار الكنيسة ونموها.

ليس معنى أن الله استخدم تلك الطرق في القديم أننا نتوقع أن يتعامل الرب معنا اعتياديا بمثلها، فالله كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه؛ كما أن الإعلان - الذي كان تدريجيا - هو كامل الآن. إلى جانب هذا فإن الأمور تغيّرت بعد حلول الروح القدس في يوم الخمسين، فبعد ذلك اليوم لا نقرأ عن استعمال الطرق التي نراها في العهد القديم. إن الروح القدس يرشدنا إلى جميع الحق من خلال الكلمة المقدسة، وهذا يشمل التطبيق في الحياة اليومية التي يجب أن تسير حسب الحق أيضا.

قد تبدو الوسائل الملموسة سهلة وجذابة، لكن إن لم تكن ما يريد الله أن يستخدمه الآن في إرشادنا، فاللجوء إليها لن يفيد، وقد لا تساعدنا للوصول إلى قرار صائب بل ربما تعرقل التمتع بإرشاد الله؛ فلو ظن شخص أن الله يقوده بصوت مسموع أو أمر آخر ملموس يكون الأمر قد انحسم بالنسبة له، وبالتالي يغلق كل باب للبحث والتفكير والاستشارة. نحن نحتاج بالفعل إلى صوت الله وكلمته، لكن هذا نحصل عليه من الكتاب المقدس إذ ينير الروح القدس عقولنا لفهمه ويساعدنا في تطبيق تعليمه.

بدون شك لا يليق أن نحدّ الله في الطرق التي يستخدمها في الإرشاد، لكن لا نتوقع أن يكون الطبيعي أن يرشدنا الله بطرق ملموسة؛ وإن حدث هذا ينبغي أن نتحقق أننا نميز إرشاده بطريقة صحيحة.

من الناحية الإيجابية، لا يمكن أن يكون إرشاد الله لنا في أي أمر متعارضا مع تعليم الكتاب المقدس. لذلك عندما نحتاج أن نتخذ قرارا يجب علينا أولا أن نمتحن الأمر أمام إرادة الله المعلنة، معتمدين على روح الله القدوس ليوضح لنا من الكلمة المقدسة المبادىء المتعلقة بالموضوع؛ وإذا كان أمامنا مسار يتعارض مع كلمة الله، مثل الارتباط بشخص غير مؤمن، أو الاشتراك في عمل غير نزيه، فيجب رفضه للتو وبدون تردد.

في بعض المواضيع، لا يعطينا الكتاب المقدس أمرا أو نهيا صريحا بخصوصها، وإنما يعلمنا أن الأمر يترك للضمير. ومع النمو في محبة الله، ومعرفة إرادته من خلال كلمته المقدسة، تزداد حساسيتنا لشخصه وإرشاده، وينضج تقييمنا الروحي للأمور لنقرر ما هو للبنيان لنا وللآخرين، ونستطيع أن نفرق بين ما يتناسب مع أبناء الله وما لا يتناسب.

قد يصعب علينا بمفردنا تقييم بعض القضايا ومعرفة ما يُسرّ الله بالنسبة لها، مثل الإجهاض وقتل الرحمة؛ ومن الحكمة أن نستعين بمرشدين لنا أو ببعض الكتابات المسيحية التي كتبها مؤمنون متخصصون في المجال المعين لتساعدنا في بلورة موقفنا بما يتفق مع الفكر الكتابي.

قد يؤثر التواجد في ظرف معين على موضوعيتنا في التقييم، لذلك من المستحسن أن نفكر مسبقا في القضايا المختلفة، ونحدد موقفنا منها بما يتفق مع الكلمة المقدسة؛ وبذلك نكون مهيّئين بمبادئ كتابية عندما نصل إلى النقطة التي تتطلب قرارا.

فيما يلي أذكر بعض الأمور التي تساعد في عملية اتخاذ القرار:

الصلاة والصوم:

قبل الشروع في اتخاذ قرار كبير أو خطوة مهمة في حياتنا، نحتاج أن نأتي إلى الرب بالصلاة، ونقضي أوقاتا في الشركة معه؛ نطرح الأمر أمام عرشه، ونطلب أن يقودنا بروح قدسه لما يرضيه ويمجده، وأن يزودنا بالحكمة السماوية ونحن نقيّم الاختيار الذي أمامنا؛ "إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيّر فسيعطى له" يع١:٥.

يساعد الصوم مع الصلاة على أن نكون في الإطار المتضع المناسب أمام الله لفحص الذات وتنقية الدوافع والتجاوب مع عمل الروح القدس في إرشادنا.

الذهن المجدد

عندما وعد الله بالإرشاد في مز ٣٢ وجّهنا ألا نتوقع أن تكون قيادة الرب لنا مماثلة للطريقة التي نقود بها الحيوانات التي لا تفهم؛ فهي تحتاج إلى لجام وزمام لقيادتها، وتسير طوعا لمن يقودها بدون أي دور تلعبه في ذلك؛ "لا تكونوا كفرس أو بغل بلا فهم" مز٣٢:٨. أما الإنسان فقد خلقه الله على شبهه وحباه نعمة العقل والتمييز؛ ويقودنا الرب في معظم الأحيان بإعطائنا الحكمة والفطنة والفهم. الله يعاملنا باعتبار ورفعة، ليس كشخص يقود فرس أو بغل. نحن مسئولون أن نستخدم العقل والمنطق في محضر الله للتفكير في العواقب وتقييم الأمور في ضوء عطايا الرب والمواهب والإمكانيات التي منحها لنا. من الحكمة أن نستخدم الفكر أكثر من الإحساس والعواطف في اتخاذ القرارات، وليس معنى هذا أن ليس لهما دور، فالروح القدس يتعامل مع الإنسان بكليته، لكن لأن العواطف والأحاسيس يتأثران بسهولة بعوامل كثيرة، ومن الممكن أن يتقلبان بسرعة، فيجب أن لا يُعتَمد عليهما بقدر ما نعتمد على تمييز الفكر أولا.

ينبغي أن نمتحن الأمور بالذهن المجدد الذي يشغله مجد الله ويريد إرضاءه ويرغب في خدمته. من المهم أن نمتحن دوافعنا ونحن نقوم بالبحث والتقييم، ونسأل أنفسنا أسئلة ثاقبة لنعرف لماذا نريد أن نسير في مسار معين. على سبيل المثال يمكننا أن نتساءل: هل سيساعدني الأمر في النمو في حياتي الروحية لأشابه الرب يسوع؟ ما الذي سيشجعني في خدمة الله وتمجيده؟ هل أنا مائل وراء رغبات ملحة أو عوطف جارفة؟ هل المال هو الدافع الأكبر؟ أو حب الظهور؟ وغير ذلك من الأسئلة. وبينما نفعل هذا نصلي أن يختبرنا الله ويفحص دواخلنا ويهدينا في طريق البر.

من الأمور التي تعرقل قدرتنا على اتخاذ القرار الصحيح التعجل وعدم التحلي بالصبر إذ نريد حلولا سريعة بدون تأنّي. ولا أقصد بهذا أن نتواكل، لكن أن نكون صبورين ونتخذ الوقت الكافي للبحث والتقييم، وننتظر الرب.

نحن لسنا بالكمال الذي يبغي دائما ما هو لمجد الله، ومهما بلغنا، فحكمتنا محدودة ونضجنا به نقصات؛ من ثم يدعونا الله أن نجدد أذهاننا (كل قوانا من فكر وضمير وعواطف ..)؛ ومع نموّنا الروحي سنجد أن رغباتنا تتطابق مع إرادة الله المعلنة لنا في الكتاب، وأن تقييمنا للأمور يتميز بالصحة والصواب.

سيادة الله على ظروف حياتنا (العناية الإلهية)

كل ما يتم في الكون يخضع لسيادة الله، ولا شيء يحدث في حياتنا عن طريق الصدفة. كل ما حبانا الله من مكونات الشخصية ومن مواهب وقدرات هو من عطاياه، كما أن نشأتنا وما مررنا ونمر به من ظروف وما سيحدث في المستقبل، الكل تحت تحكمه. إنها لبركة ونعمة كبيرة أن يسود الله على

ظروف حياتنا، فهو يعرفنا جيدا، أكثر مما نعرف أنفسنا، وهو أبونا المحب الذي يعمل لخيرنا، وله حكمة في كل ما يحدث، لكن هل من الممكن أن نجد في ظروفنا ما يحسم بعض القرارات التي نتخذها؟

ربما نجد في الظروف التي نمر بها بعض المؤشرات التي تساعدنا على التقييم والاختيار، كما أن بعضها قد يؤدي إلى استثناء بعض الاتجاهات تلقائيا. لكن من المهم أن نتريث في الحكم قبل البت في موضوعٍ بناء على الظروف المحيطة، ونطلب الحكمة من الله، ونمتحن المسار الذي نريد أن نسلكه في ضوء المباديء التي في الكلمة المقدسة. من السهل أن ينتهي المرء إلى تفسير خاطيء لما يجري حوله مثل ما حدث عندما كان شاول يطارد داود؛ فقد دخل شاول إلى كهف لكي يغطي رجليه، وكان داود ورجاله جلوسا في مغابن الكهف. وهنا اعتبر رجال داود هذا مؤشرا أن الرب يدفع شاول ليد داود، وقالوا لداود أن يقتل شاول. لكن داود علم أن هذا ليس من قِبَل الله لأن شاول مسيح الرب، ولم يكن عند داود أمر صريح ليفعل ذلك.

من ناحية أخرى نجد في سفر أستير مثالا يوضح كيف نستفيد من الظروف التي يوجدنا الله فيها. أوصى مردخاي الملكة أستير أن تدخل للملك وتتضرع إليه وتطلب منه لأجل خلاص شعبها، لكنه لم يجزم بأن وجود أستير في القصر معناه أن الرب سيخلص شعبه عن طريقها، وإنما قام بمسئوليته، ووجَّه أستير إلى أنه "ربما" أوجدها الله في ذلك المكان ليستخدمها في هذه المهمة، فقال لها: "من يعلم إن كنت لوقت مثل هذا وصلت للملك" أس٤:١٤. كان على أستير أن تقوم بواجبها وتأخذ القرار الصائب وتدخل إلى الملك من أجل شعبها، وقد حثها مردخاي ألا تفكر في نفسها بل تضع مصلحة شعب الله أولا. وبالفعل بعد صوم ثلاثة أيام دخلت أستير إلى الملك ومد لها قضيب الذهب، وكانت هذه هي البداية لخلاص شعب الله ونجاته من الدمار.

إذن من الجيّد أن نعتبر ظروف حياتنا، ونتجاوب مع الفرص التي يضعها الله أمامنا، ونقيّم ما نمر به في ضوء تعليم الكتاب، عالمين أن لا شيء يخرج عن سيادة الله، وأنه يعمل في جميع الأشياء لخيرنا.

طلب المشورة

قد يتطلب الأمر أن نستشير أناسا ناضجين روحيا واجتماعيا لمساعدتنا في أخذ القرار. يعلمنا الكتاب أنه من الحكمة أن نسمع المشورة[١٨]. حسنٌ أن نتكلم مع غيرنا ولا سيما ممن يعرفوننا جيدا، ونسمع آراءهم ونقيّم الموضوع في ضوء ما نسمع. لكن علينا مسئولية أن نقيّم المشورة نفسها، ونكون حكماء في التطبيق.

يمكن أن نسأل المشورة من أناس متخصصين من خارج الكنيسة لمعرفة حقائق عن بعض الأمور، لكن من المهم أن نستشير - في الأساس - أناسا مؤمنين لهم فكر المسيح ومستنيرين بالروح القدس، يستطيعون أن يرشدونا بما يتوافق مع كلمة الله.

بعض الأشخاص في الكنيسة يعطون رسائل للآخرين، إما بآيات من الكتاب المقدس أو برسائل عامة عن الحياة. قد يطلب البعض أن يعرفوا إرادة الله في أمر ما عن طريق الرسائل، فهذه الطريقة تبدو سهلة، تعطينا نتيجة سريعة، وتريحنا من العناء والتردد. لكن مرة أخرى إذا كنا نريد بالرسائل أن نعرف شيئا في المستقبل، فهذا لا يتفق مع فكر الكتاب المقدس، ولا نجد توجيها فيه للقيام بمثل هذه الممارسة.

من ناحية إعطاء آيات من الكتاب أو رسالة تشجيع مضمونها كتابي، فيجب علينا جميعا أن نشجع بعضنا بعضا بكلمة الله. مما لا شك فيه أن البعض عندهم موهبة وحكمة ونعمة للتشجيع والتوجيه، لكن اعتبار الأمر موهبة من الروح القدس للبعض "لإعطاء رسائل مباشرة من الله" فيه خطورة، وقد يقود إلى التشويش.

ما سبق لا ينفي أن الله يستخدم الآخرين في إرشادنا؛ بل من الحكمة أن نستشير الآخرين. قد يرى أحد أعضاء الكنيسة موهبة في شخص ويوجهه لاستخدامها في مجال معين، أو يرصد أحد الإخوة خطرا يحيط بنا وينبهنا بخصوصه. كل هذه الأمور حسنة، والكتاب يشجعنا على الانفتاح للتوجيه والإنذار من بعضنا البعض، فنبني ونُبنى في شركة جسد المسيح.

من المفيد اعتبار ما سبق ونحن نتخذ قراراتنا، لكن لا توجد أي وصفة للإرشاد نستطيع بموجبها أن نعرف ما يجب أن نقرره بالنسبة لأي أمر يخصنا، وإنما القرار هو للشخص المعني ليأخذه بحكمة وبمسئولية. إذا كنا على يقين أن الأمر من حيث المبدأ يتفق مع وصايا الله وإرادته المعلنة، وطالما لا يوجد توجيه واضح من الرب لاتجاه معين، فلنا الحرية أن نختار بحكمة، ولا نربك أنفسنا عما إذا كان اختياري حسب إرادة الله أم لا، فلو كان الرب يريدنا أن نلتزم بأمر لأعلنه لنا. نحن نكون عاملين إرادة الله إذا التزمنا بوصاياه. كذلك لا نقلق بالنسبة لإرادة الله القضائية فلا يمكن أن نكون خارجها. علينا أن نصلي إلى الله ليعطينا الحكمة ويرشدنا في اتخاذ القرار، ونقوم بمسئوليتنا في تقييم كل المعطيات لنصل إلى قرار سديد، ثم نترك الأمر بين يدي الله ليحقق كل مشيئته في حياتنا، واثقين في محبته نحونا وسيادته الحكيمة على كل أمورنا.

قد ندرك أننا لم نحسن الاختيار؛ ربما يكون السبب هو الانقياد وراء عواطفنا دون تقييم الأمور ذهنيا، أو عدم النضج الروحي أو الاجتماعي. في أحيان كثيرة نجد أننا نعاني من تبعيات أخطائنا، لكن في نفس الوقت نحن نعلم أن إلهنا المحب يعرف ضعفنا، وهو يستخدم كل شيء ليعلمنا ويساعدنا في مسيرتنا، فلنثق فيه ولا نقلق من جهة المستقبل وما يخبئه، لأن المستقبل في يد أب محب حكيم، وسيقودنا إلى شاطيء الأمان. المهم هو أن نكون نحن مستعدين للتعلم من أخطائنا، ونصلي ليوجهنا الرب في الظروف التي وصلنا إليها، وليساعدنا على التقدم والنضج.

ليس معنى التعرض لصعوبات والمرور بضيقات أننا بالضرورة أخطأنا القرار. قد يسمح الرب بدخولنا في ضيقات لينقينا وينشيء فينا الصبر والتحمل، أو لكي يعلمنا دروسا هامة في حياتنا. فليساعدنا الرب أن ننمو في النضج والتمييز، ونتجاوب مع ما يعلمنا إياه من خلال قيادته لنا.

٤. بعض نواحي التطبيق:

أتطرق هنا باختصار لبعض نواحي التطبيق مع التركيز على اعتبارها في ضوء سيادة الله.

أ. الزواج:

خلق الله الإنسان ذكرا وأنثى، وباركهما في علاقة زوجية مقدسة. الأمر الطبيعي هو أن يتزوج المرء؛ لكن هناك أيضا أمثلة في الكتاب عن أناس عاشوا حياتهم لخدمة الرب بدون ارتباط كالرسول بولس. نتعلم أيضا من ١كو٧ أن الامتناع عن الزواج قد يكون بدعوة من الله للتفرغ للخدمة. قد لا تتزوج فتاة لأنها لم تتقابل مع شخص مؤمن مناسب لها، وفي طاعة للرب لا تقدم على الزواج من غير مؤمن (تقول بعض الإحصائيات في الغرب أن عدد المؤمنات يفوق عدد المؤمنين، وبالتالي يؤثر هذا على فرصة الفتيات المسيحيات في الزواج)؛ وهناك أسباب أخرى لعدم الزواج. الله يعلم احتياج كل شخص، وهو يدبر الأمور بحكمته الكاملة، كما أنه يعطي أبناءه حياة غنية بالاختبار والشبع سواء في الزواج أو بعيدا عنه.

اختيار شريك الحياة قرار بالغ الأهمية، ومن الحكمة أن يطلب الشخص الإرشاد فيه. هناك أفكار كثيرة عن الزواج تحيط بنا، وقد تتأثر قيمنا بما نكتسبه من المجتمعات القريبة منا، أو ما نتعرف عليه من خلال وسائل الإعلام سواء في الشرق أو الغرب؛ لذلك نحتاج أن ندرس ما يقوله الكتاب في أمر الزواج، ونمتحن قيم المجتمع أمام كلمة الله، ونجعل الكلمة المقدسة المرجع النهائي الذي يحسم لنا الأمور.

يعلمنا الكتاب المقدس أن الزواج يكون بين رجل واحد وامرأة واحدة، كما أن العلاقة بينهما يجب أن تُبنى على المحبة والاحترام المتبادل القائم على المساواة بين الرجل والمرأة، وإن اختلف الدور الذي يقوم به كل منهما. عندما خلق الله المرأة خلقها معينا نظير الرجل، وليس هناك أي تفرقة بينهما في الموقف أمام الله "ليس ذكر ولا أنثى لأنكم جميعا واحد في المسيح يسوع" غل٣:٢٨. كذلك نتعلم من كلمة الله أن الزواج بين رجل وامرأة هو النطاق الذي يمارس الجنس فيه، وأي انحراف عن هذا ليس بحسب مشيئة الله. يجب أن يتزوج المؤمن مؤمنة[١٩]، وأسباب هذا الأمر واضحة في العهد القديم إذ كان الله ينهي شعبه عن مصاهرة الشعوب الأخرى لأنهم يميلون قلوبهم وراء آلهتهم[٢٠]. نفس المبدأ ينطبق اليوم، فارتباط المؤمن بغير المؤمنة، أو المؤمنة بغير المؤمن، يؤدي إلى ابتعاد عن الله، أو على الأقل إلى صعوبات في النمو الروحي كما أنه يؤثر على كيان العائلة وتربية الأولاد في خوف الرب.

أعطانا الله مثالا للعلاقة بين الزوج والزوجة في علاقة المسيح بالكنيسة التي أحبها وبذل نفسه لأجلها؛ والكنيسة بدورها عليها أن تخضع لعريسها في محبة وفرح. هذا هو مثال الكمال الذي يجب اتباعه، لكن بسبب ضعفنا كبشر لا يخلو الزواج المسيحي من الصعوبات. ومما يسبب إحباطا في الزواج الإقدام عليه بتوقعات غير عملية بالنسبة للحياة العائلية وما ننتظر أن يحققه الطرف الآخر في حياتنا. هناك فراغ في حياة الإنسان لا يستطيع أن يملأه سوى الرب ليتمتع الشخص بالشبع والاكتفاء الدائمين، وإذا تصورنا أن شريك الحياة يمكنه أن يملأ هذا الفراغ فإننا نضع حملا كبيرا عليه، كما أن هذا يساهم في تفاقم المشاكل وحرمان أنفسنا من النمو نحو الشبع بالرب والتمتع به.

إن إرادة الله هي في الالتزام بالزواج مدى الحياة أما الطلاق فيكرهه، فلا نلجأ إليه لحل مشاكلنا الزوجية؛ إن ذلك في الواقع لا يكون حلا بل تدميرا للزواج. عندما نقبل على الزواج من المهم أن نُرسِّخ في عقولنا وقلوبنا الفكرة بأن الطلاق لا مكان له في حياتنا، وأن الزواج ليس فيه مرحلة تجريبية لنكتشف هل ينجح أم يفشل. إننا نحن الذين نجعل الزواج ناجحا بالعمل البناء والمحبة المضحية؛ وعندما نسعى لعمل مشيئة الله في وصاياه ونتبع مثال الرب يسوع في حياتنا، نستطيع أن نرتقي بالزواج، ونساعد الأولاد على النمو في النعمة، كما نتغلب على الصعوبات بالتوجه الصحيح والتعاون مع بعضنا البعض. لو طبقنا وصايا الرب - بالنسبة لعلاقاتنا بالغير - أولا على شريك الحياة ستختلف الأحوال وتنمو العلاقة الزوجية في المحبة والنضج والبناء. في اعتقادي أن معظم حالات الطلاق تنتج عن استسهال الأمر وقلة المجهود الذي يبذل لتنمية العلاقة الزوجية، كما أن أنانية أحد الأطراف، أو كليهما، تلعب دورا كبيرا في ذلك. ما أدرجته في موضوع الطلاق ليس تغطية شاملة لهذا الموضوع الحساس، ولا يشمل بعض الظروف الصعبة التي يعاني منها البعض في علاقات قد تكون بالحقيقة قمعية وخطيرة، أو ظروف تخرج عن نطاق موضوع الكتابة.

عندما يشرع أحد في الزواج، ويبغي أن يكون ذلك بحسب إرادة الله، عليه أن يلتزم بكل تعليم الكتاب عن هذا الأمر، ويقوم بدوره في التفكير والبحث مع الاعتماد على الله وطلب الحكمة والإرشاد منه. إن القدرة على الاختيار هي نعمة منحها الله لنا فلا نكون سلبيين بل نتخذ مسئوليتنا بجدية.

رأينا أن الله في سيادته يهيمن على كل الأمور، وهو المتحكم في ظروف حياتنا. وفي أمر الزواج، كغيره من الأمور، لا يمكن أن ننحرف عن قضاء الله، لكن يجب علينا أن نتصرف بمسئولية بما تعلنه إرادة الله في وصاياه. قد نخفق في هذا كما فعل داود في علاقته مع بثشبع، لكن الله يستخدم كل الظروف حتى التي بها عيب أو نقص أو خطية لتحقيق مقاصده؛ ولاحقا ولدت بثشبع سليمان لداود، ومنه جاء المسيح؛ لكن هذا ليس ذريعة لنا لنفعل ما نشاء في تجاهل لأوامر الله، ونلاحظ أن داود لم يُعفَ من تحمل نتيجة عمله الفاحش.

بعد الالتزام بتعليم الكتاب يستطيع الشخص المقدم على الزواج أن يحدد لنفسه الأمور الجوهرية التي يبغيها في الطرف الآخر، وكذا الأشياء التي يتمناها لكن يمكن التنازل عنها، فغالبا لا يوجد الشخص الذي تتوفر فيه كل المواصفات التي نطلبها. من المهم اعتبار التقارب الفكري والاجتماعي والثقافي، وكذا انسجام الميول والاتجاهات، إلى جانب التواصل الأمين والصريح. قد يكون مجديا في مرحلة التعارف أن يصلي الاثنان ويدرسان الكتاب المقدس معا. كل هذه الأمور تساعد على معرفة الشخص الآخر، وإذا ما كان مناسبا للارتباط به.

من الحكمة أن نشرك الأهل في قرارنا والاستفادة من خبراتهم، فالزواج يؤثر على العائلة ككل، ويجب أن لا نفكر بانعزالية في الأمر، فهذا لا ينشئ المناخ الصحي للعائلة الجديدة؛ وعلى الأهل أن يكونوا مرنين، ويراعوا رغبات أولادهم، ويكون الكل منفتحا لإرشاد الرب. كثيرا ما يعلو صوت المشاعر على صوت العقل في هذا الموضوع الحساس، لكن يجب أن نعطي الفكر المتجدد الأولوية في القرار، مع عدم إهمال المشاعر.

إن الرب يريد منا أن نكون أتقياء، نمجده في علاقاتنا، فلنسعَ كي تسود المحبة عائلاتنا، ونجعل منها مناخا صحيا لتربية الأبناء في خوف الرب وإنذاره، وتكون بيوتنا مرحبة بالآخرين لبناء الكنيسة.

ب. <u>محل الإقامة:</u>

منذ زمن ليس ببعيد كان الشخص يسكن في المنطقة التي تربى فيها، وكان التنقل للفئة القليلة التي يستلزم عملها الانتقال من مكان لآخر، أما الآن فقد اختلف الوضع، وكثيرون يتركون مكان إقامتهم ويذهبون إلى موضع آخر في نفس البلد أو خارجها، ربما للبحث عن عمل أفضل أو لتحسين ظروف المعيشة أو لأسباب أخرى. في هذا الأمر أيضا علينا أن نوجه أولوياتنا ودوافعنا نحو مجد الله ومحبته وخدمته. وكما ذكرنا سابقا علينا أن نصلي ونطلب من الله الحكمة والإرشاد ليساعدنا في تقييمنا للأمور. أذكر هنا موقفا عشته أنا وعائلتي من حيث مكان الإقامة:

من مدة طويلة كنا نعيش في أبو ظبي وجاء الوقت لنتركها بعد أن عشنا هناك فترة من الزمن. كان الاختيار أمامنا هو إما أن نذهب إلى أستراليا حيث كنا مُنحنا قبولا للهجرة، أو نرجع إلى بريطانيا حيث كنا نسكن قبلا. لم تكن الأمور واضحة لنا إطلاقا فقد كانت هناك إيجابيات وسلبيات في كل من الاختيارين. كنا نصلي ونطلب إرشاد الله لنا، وكنت أرغب أن أعرف بطريقة واضحة أين "يريدنا" الله أن نذهب. كان هذا يسبب لي قلقا كبيرا وحيرة مستمرة، وأحيانا كنت أود - لو كان ممكنا - أن يخبرني الله "أين سنكون عندما نترك أبوظبي"، فكما لو كنت أريد أن أرتفع فوق محدوديتي لأرى الأمر كما يراه الله! وفي أحيان أخرى كنت أتمنى أن يعاملني الله كالآلة، وبطريقة أو أخرى يقول لنا ماذا نعمل ويريحنا من هذه المسئولية؛ لكن الرب لا يتعامل معنا هكذا. في النهاية قررنا الذهاب إلى بريطانيا بحسب المؤشرات التي لدينا والظروف التي نمر بها. هل كانت هذه إرادة الرب لنا بمعنى ما حتم به؟ نعم. فهذا ما حدث! هل كان يمكن أن أعرف هذا مسبقا؟ بالطبع لا! لكن أثق أن الله بالرغم من ضعفي وجهلي كان يستجيب الصلاة بالتوجيه والإرشاد.

إن الخطأ الذي وقعت فيه آنذاك هو ما أريد أن نتجنبه جميعا؛ وأرجو أن نسعى نحو التطبيق الصحيح لسيادة الله ومسئولية الإنسان. فالله سيد عال، وكذلك يتعامل معنا في واقع زماننا كأناس مسئولين، يرشدنا ويعلمنا بل ويسير معنا، وياليتنا نتمتع بهذه المزايا دون قلق عن المستقبل، وبدون أن نحاول أن نفكر في الأمور من منظور الله، لأننا سنفشل في ذلك إن حاولنا، وقد نصاب بالإحباط والتشويش والحيرة. الأصوب هو أن نقوم بمسئوليتنا في التفكير الذي يطلب مجد الله، ونقيم الأمور بالذهن المتجدد، ونتخذ قرارتنا ونحن طالبين الحكمة والمعونة من الرب في كل أمورنا.

ت. <u>العمل</u>

الله نفسه عمل ومازال يعمل ويتمم كل مقاصده الأزلية. قال الرب يسوع "أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل" يو٥:١٧. ليس العمل لعنة نتجت عن السقوط إنما هو بركة وامتياز، وقد منح الله الإنسان نعمة الاشتراك في العمل، وعهد له مسئولية الاهتمام بالخليقة وبالعالم. إننا بالعمل نطيع الله ونمجده.

من الجانب الآخر، تأثر العمل بالسقوط وأصبح به مشقة، وبعرق الجبين يأكل الإنسان خبزه؛ ومع ذلك يجد الإنسان متعة في العمل والإبداع والتطوير، فالعمل حسن، وهو جزء من إنسانيتنا، وله تأثير إيجابي علينا. يحتاج العالم إلى شتى مجالات العمل النزيه، سواء في الهندسة أو الموسيقى أو الطب أو الأعمال الحرفية أو القيام بخدمات معينة؛ فكلها لازمة للاهتمام بعالم الله الذي وكّلنا عليه. يشير الكتاب إلى شتى أنواع العمل، ونجد بين رجال الله القديسين الراعي والطبيب وصانع الخيام والساقي وغير ذلك.

تزودنا كلمة الله بمباديء عن كيفية القيام بالعمل؛ فيجب أن نتجنب الكسل والأنانية والطمع والأولويات الخاطئة، ونتحلى بالقيم التي يجب أن تميز الشخص المؤمن في عمله، مثل الأمانة والشفافية والصدق والاجتهاد والإنصاف. نتعلم أيضا من الوصايا الخاصة بعلاقة الأسياد بالعبيد مباديء يصلح تطبيقها على علاقة أصحاب العمل أو الرؤساء بالموظفين.

بالنسبة لنوعية العمل، علينا أن نستبعد الأعمال التي تكون مشينة أخلاقيا، أو مبنية على الاختلاس، أو التي لا تبني البشرية كالقمار مثلا. كثيرا ما يقودنا الرب في مجال العمل عن طريق ما وهبنا من مهارات وقدرات وكفاءات، وينبغي أن نبحث عن العمل الذي يتناسب معها ونستعمل كل ما أعطانا الله بأحسن ما يمكن. كذلك عند اختيار العمل ينبغي أن نضع في الاعتبار واجبنا لتوفير الاحتياجات لأنفسنا وللعائلة ولتعضيد خدمة الرب، بالإضافة إلى واجبنا في الاشتراك في بنيان المجتمع والعطاء لمن له احتياج.

غالبا ما يبدأ الاتجاه المهني من الحداثة ولا سيما عند اختيار المواد التي ندرسها. تساهم المواهب الطبيعية والقدرات الشخصية التي أعطانا الله إياها في تشكيل توجهاتنا، وعندما يأتي الوقت لنقرر الكلية

التي نلتحق بها أو التدريب المهني الذي نتجه إليه من المهم أن نأخذ في الاعتبار ما نجيده ونتفوق فيه ونتمتع بعمله. أحيانا يدرس الشخص في مجال ويتوجه للعمل في مجال آخر، وليس هناك عيب في ذلك، فالله يعطينا حرية فيما نفعل ونختار.

ربما يتجه أحد إلى عمل يحبه ويتقنه ثم يجد أنه يتطلب ساعات طويلة من العمل تبتلع وقته، فلا يجد الفرصة للنمو في الحياة الروحية وتعضيد عمل الرب والاشتراك في الحياة الاجتماعية. وإن كان الشخص رب أو ربة عائلة فغالبا ما يؤثر هذا على باقي أفراد الأسرة ونوعية الحياة التي يعيشونها. ينبغي أن نسأل أنفسنا لماذا نحن في هذا العمل؟ هل هو العمل الوحيد المتاح، والذي به أسدد الاحتياجات الأساسية؟ قد يكون هذا هو الواقع؛ وإن كان كذلك من المهم ترتيب الأولويات بدقة فيما تبقى من الوقت لمجد الله. لكن قد نكون منساقين وراء الماديات ومتأثرين بمن حولنا في التطلع لنمط حياة قد لا يكون في الواقع له أهمية كبيرة. لا يضع الرب لنا قوانين فاصلة في هذه الأمور لكنه أعطانا مباديء واضحة عن حياة الاكتفاء، وطلب ملكوت الله وبره في المقام الأول؛ وكل منا عليه مسئولية لفحص الدوافع وترتيب الأولويات.

مهما كان العمل الذي نقوم به، فمن واجبنا أن نعمله بأحسن ما نستطيع كما للرب، ونسلك بالتقوى فيكون لنا تأثير إيجابي في مكان العمل، ويرى زملاؤنا ومن نتعامل معهم أعمالنا الحسنة ويمجدوا أبانا الذي في السماوات. كذلك علينا مسئولية أن نضيء العالم بسلوكنا اللامع وبالمشاركة بالإنجيل ليأتي الكثيرون من الظلمة إلى نور المسيح.

ث. الخدمة

الكنيسة هي جسد المسيح، ويستخدم الله الكنيسة للقيام بعمله على الأرض بقوة الروح القدس الساكن في أبنائه. لذلك فكل مؤمن عليه مسئولية في خدمة الرب لبنيان الكنيسة ونشر خبر الإنجيل. لقد أعطانا الرب مواهب الروح لنستخدمها في خدمته، ولا يصح أن نكون خاملين بل يجب أن نكون مستعدين ومتأهبين لكل عمل صالح.

مما لا شك فيه أن الله يدعو أشخاصا لخدمته بطريقة خاصة، مثل التفرغ لعمل الرب، أو الذهاب لمكان آخر للكرازة بالإنجيل، أو القيام بعمل معين في حقل الرب. في هذه الحالة سيوجهنا الرب بسيادته لهذا الأمر. قد يستخدم آخرين من المؤمنين لتوجيهنا، أو يحرك ضمائرنا ونحن نسمع عن احتياج ما نكون مؤهلين للقيام به، وقد يعرفنا دعوته بطرق أخرى. على الفرد مسئولية للصلاة وتكريس النفس وفحص الذات ومشاركة الغير حتى يتيقن أن ما ينوي القيام به هو بالفعل استجابة لدعوة من الرب وطاعة لشخصه.

٧

الخلاص وسيادة الله

ذكرنا سابقا أن الخلاص له بعد أزلي يتضمن مشورة الله المثلث الأقانيم وتدبيره للفداء، وبعد زمني يشمل التحقيق التاريخي لعمل المسيح الفدائي الكامل، وكذا عمل الروح القدس في تخصيص فوائد الفداء وتحقيق الخلاص في حياة الإنسان. هذا الأخير هو ما نركز عليه الأفكار في هذا الفصل.

اختلف العلماء في موضوع سيادة الله في الخلاص، وبداية أقول أني لا أزيد هنا شيئا على الحوارات التي جرت والكتب التي نشرت في هذا المجال؛ وبينما أريد أن أكتب عن الناحية التطبيقية لكن لا بد من ذكر الأساسيات أولا.

نتدرج في الموضوع باعتبار النقط التالية:

١. اعتراضات حول سيادة الله في الخلاص

٢. بعض القضايا المتعلقة بسيادة الله في الخلاص

أ. فساد الطبيعة البشرية وعجز الإنسان روحيا
ب. عمل نعمة الله في القلب
ت. تحقيق الخلاص في حياة الفرد
ث. عقيدة الاختيار
ج. حفظ الله لمختاريه
ح. مطلب العدل

٣. مسئولية الإنسان

أ. موقف الإنسان من خبر الإنجيل
ب. المثابرة في الحياة المسيحية
ت. الكرازة

٤. التطبيق الكتابي

٥. كلمة من الواقع عن سيادة الله في الخلاص

١. اعتراضات حول سيادة الله في الخلاص:

أهم الاعتراضات يتلخص في الآتي:

أولا: يفترض البعض أن سيادة الله في الخلاص تتعارض مع حرية إرادة الإنسان ومسئوليته من جهة التوبة والإيمان، وهي أمور مذكورة بوضوح في الكتاب المقدس.

ثانيا: يقول البعض إذا سلمنا بسيادة الله في الخلاص فهذا يضفي شكا على عدالة الله؛ وغالبا ما يُوجَّه هذا الاعتراض نحو عقيدة الاختيار، إذ يُقال: إن كان الله اختار البعض للحياة الأبدية فكيف يكون هذا عدلا؟ وما هو ذنب الآخرين الذين لم يُختاروا؟

ثالثا: يفترض البعض أن الاعتقاد بسيادة الله في الخلاص يُثبِّط من العزيمة للكرازة، بل ويجعلها غير لازمة.

٢. بعض القضايا المتعلقة بسيادة الله في الخلاص:

لكي نجيب على الاعتراضات السابقة نبدأ ببعض القضايا التي شغلت العقول منذ زمن بعيد وتخص موضوع سيادة الله في الخلاص، وسنتعرض لها باختصار:

أ. فساد الطبيعة البشرية وعجز الإنسان روحيا

رأينا في فصل "في البدء" أن فساد الطبيعة البشرية هو من نتائج سقوط أبوينا في الخطية. لقد تغيّرت طبيعة الإنسان نتيجة للسقوط، فآدم كان حرا ليفعل الصلاح، وكانت لديه الإمكانية أن لا يخطيء إذا اختار ذلك، لكنه بعد السقوط فقد البراءة وفقد معها القدرة على أن يعيش حياة البر بدون خطية. هذه هي الحالة التي يولد فيها كل إنسان يأتي إلى العالم من أبوين بشريين؛ "هأنذا بالإثم صوّرت وبالخطية حبلت بي أمّي" مز٥١:٥.

عندما يصف الكتاب حالة جميع البشر - الروحية أو الأخلاقية - لا نجد مدحا للإنسان بل العكس، فمن البداية "رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم" تك٦:٥. وإن كنا نقرأ بعد ذلك أن نوح كان رجلا بارا كاملا في أجياله[1]، لكن هذا يسبقه القول "وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب"، والنعمة هي التي أثمرت البر فيه. لم يكن نوح بالكمال الذي يرضي الله من دون النعمة، وإذ نتابع القراءة لأصحاح ٩ من التكوين نعرف ما أصاب الإنسان من فساد. هكذا يصف إرميا النبي حالة الإنسان الداخلية بالقول: "القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس من يعرفه" إر١٧:٩.

في الموعظة على الجبل، وصف الرب الإنسان الطبيعي عامة بالشر: "فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه" مت٧:١١. كذلك أشار الرب يسوع إلى فساد الطبيعة البشرية عندما قال: "لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى فسق قتل سرقة طمع خبث مكر عهارة عين شريرة تجديف كبرياء جهل" مر٧:٢١-٢٢.

هذا الفساد يعمّ البشر أجمعين. جميعنا يولد في حالة من الخطية. كلنا خطاة، وكلنا يخطيء؛ "لأنه ليس إنسان لا يخطيء" ١مل٨:٤٦. يقول المرنم "لا تدخل في المحاكمة مع عبدك فإنه لن يتبرر قدامك حيّ" مز١٤٣:٢.

يشرح الرسول بولس عمومية الخطية بتفصيل في الأصحاحات رو١:١٨-٣:٢٠، مبيّنا أن كل الناس، يهودا ويونانيين، خطاة مذنبون أمام الله، يستحقون دينونة الله العادلة. أيضا كتب الرسول في بداية الأصحاح الثاني من رسالته إلى أهل أفسس وصفا واضحا لحالتنا اليائسة:

> "وأنتم إذ كنتم أمواتا في الذنوب والخطايا التي سلكتم فيها قبلا حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية الذين نحن أيضا جميعا تصرفنا قبلا بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضا" أف٢:١-٣.

نلاحظ أن الرسول بولس يشمل نفسه (قبل الإيمان) في هذه الحالة العامة للبشر بدون المسيح، فالإنسان الساقط العاصي ميّت بالذنوب والخطايا، يتحكم فيه العالم والشيطان وشهوات الجسد، فيسلك في الخطية عاملا مشيئات الجسد والأفكار. ولأن الخطية بشعة جدا وجسيمة فهي تثير غضب الله المقدس بطريقة مرعبة حقا[2]؛ "لأن غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس وإثمهم" رو١:١٨. لكن هناك طريق للحياة والتمتع بسلام الله وهو الإيمان بابن الله؛ "من يؤمن بالابن له حياة أبدية. والذي لا يؤمن بالابن لن يرى الحياة بل يمكث عليه غضب الله" يو٣:٣٦.

ليس الإنسان فاسدا فحسب لكنه أيضا عاجز روحيا، لا يملك القدرة الروحية على أن يصلح نفسه أو يأتي من ذاته لله ليصلحه. صحيح أن الإنسان بعد السقوط ما زالت لديه القدرة على عمل الصلاح خارجيا - بالنسبة لأخيه الإنسان أو بالنسبة للعالم الذي يعيش فيه - لكن أي عمل صالح نعمله به نقص وليس كاملا نقيا بما يتناسب مع قداسة الله. الإنسان الطبيعي الذي لا يعرف الله لا يفعل الصلاح بالدافع النقي الذي ينشد محبة الله من كل القلب ويطلب فعل ما يرضيه؛ "قد صرنا كلنا كنجس، وكثوب عِدَّة كل أعمال برّنا، وقد ذبلنا كورقة، وآثامنا كريح تحملنا" إش٦٤:٦.

علّم الرب يسوع عن عدم المقدرة الروحية عندما قال: "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني وأنا أقيمه في اليوم الأخير" يو٦:٤٤، وأيضا "لا يقدر أحد أن يأتي إليّ إن لم يعط من أبي" يو٦:٦٥. تعبير "لا يقدر أحد" يفيد العمومية بدون استثناء، لكن من هذا العموم هناك البعض الذين يجتذبهم الآب كعطية منه للابن.

الإنسان حسب الجسد لا يريد الله ولا يرغب فيه، بل يهتم بأمور العالم واهتمامه هذا عداوة لله، لكن كل من يسكن فيه روح الله يهتم بأمور الله[٣]. بدون الولادة الروحية لا يستطيع الإنسان أن يحب الله أو يهتم بالروحيات. هذا ما علمنا الرب إياه في حديثه مع نيقوديموس، موضحا أن الولادة الجسدية (حتى لو كانت في عهود الأمة اليهودية) لا تنفع لدخول ملكوت الله لأن "المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح" يو٣:٦.

بالإضافة إلى ما سبق، يصف الكتاب بداية الحياة الروحية في الإنسان بصورٍ لا يقدر الشخص أن يساهم فيها مثل الولادة الروحية والخلق والإحياء. إنها أعمال من اختصاص الله، وهو وحده يستطيع أن يفعلها.

الخلاصة نجدها في الجزء التالي:

"لأننا قد شكونا أن اليهود واليونانيين أجمعين تحت الخطية. كما هو مكتوب أنه ليس بار ولا واحد. ليس من يفهم. ليس من يطلب الله. الجميع زاغوا وفسدوا معا. ليس من يعمل صلاحا ليس ولا واحد .. الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله " رو٣:٩-١٢، ٢٣.

يستعمل الرسول هنا اقتباسات من العهد القديم ليلخص ما قاله قبلا في هذه الرسالة عن عمومية الخطية، فالجميع أخطأوا ويقعون تحت دينونة الله[٤]. هذا واقع لا ينكر؛ يشملني ويشملك وليس هناك استثناء – ولا واحد! كذلك يؤكد الرسول فساد الطبيعة البشرية والعجز الروحي في الإنسان، فالجميع زاغوا وفسدوا، ولا يقدر الإنسان حتى أن يفهم ما أصابه، ولا يستطيع أن يصلح نفسه أو يطلب الله من ذاته – ليس ولا واحد. لقد فقد الإنسان الرغبة الأصلية في أن يكون مع الله. وبالرغم من أن الإنسان بعد السقوط لم يفقد القدرة على صنع القرار إلا أنه فقد القدرة على أخذ قرارات روحية صحيحة تماما[٥]، لذلك لا يستطيع من ذاته أن يختار المسيح. إنه لا يقدر أن يغير ميوله للخطية ومحبة الذات إلى البر ومحبة الله[٦].

عند اعتبار حالة الإنسان الساقط اليائسة قد نسأل مع التلاميذ فمن يستطيع أن يخلص؟ أجاب الرب: "هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع" مت١٩:٢٦. هذا يقودنا إلى:

ب. عمل نعمة الله في القلب

يوجه الرسول بولس أفكارنا في أف٢:٤-١٠ إلى عمل نعمة الله في القلب، فبعدما عرض صورة اليأس والضياع بالنسبة لكل إنسان في حالته الطبيعية، يذكر بوضوح أن معالجة مشكلة الإنسان وإنقاذه مما هو عليه هو عمل الله بالكامل:

"الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبّنا بها، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح. بالنّعمة أنتم مخلّصون. وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويّات في المسيح يسوع ليظهر في الدهور الآتية غنى نعمته الفائق باللطف علينا في المسيح يسوع" أف٢:٤-٧.

والتركيز في هذا الجزء هو على أن هذا العمل ينبع من غنى رحمة الله ونعمته ولطفه ومحبته؛ وقد استُخدمت كلمات قوية لتأكيد ذلك مثل "غنيٌّ في الرحمة"، "محبته الكثيرة التي أحبنا بها"، "ليظهر غنى نعمته الفائق باللطف علينا". هذا الفكر يتكرر في أجزاء متعددة من كلمة الله، ونتخذ كمثال آخر ما جاء في الرسالة إلى تيطس:

"لأننا كنّا نحن أيضا قبلا أغبياء غير طائعين ضالّين مستعبدين لشهوات ولذات مختلفة عائشين في الخبث والحسد ممقوتين مبغضين بعضنا بعضا. ولكن حين ظهر لطف مخلصنا الله وإحسانه لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا حتى إذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية." تي٣:٣-٧.

نلاحظ هنا أيضا الحالة التي كنا جميعا عليها، وكيف تدخل الله بلطفه وإحسانه ورحمته ونعمته ليمنحنا الخلاص. إن نعمة الله جوهرية لخلاص الإنسان، وبدونها لا يوجد لأحد منا رجاء.

"لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" أف٢:٨-٩.

قد يراود أحدنا الفكر أنه لم يكن يوما هاربا من الله أو غير راغب فيه؛ ومن المعقول أن يبدو الأمر كذلك، فبعضنا ولدوا في بيوت مسيحية وتمتعوا بنعمة الله من الصغر وتعلموا عن محبته التي أظهرها في المسيح وتربوا في خوف الرب وإنذاره. وقد يختلط الأمر علينا ويظن الواحد أنه بالطبيعة يميل إلى أمور الله أو أنه يحب الصالح روحيا من ذاته، والواقع أن النشأة في بيت مسيحي هي ذاتها نعمة من الله الذي يعمل بسيادة كاملة وبطرق مختلفة في حياة مختاريه، فالبعض ينعم الله عليهم بالنشأة في بيت مسيحي ليتعرفوا به من صغرهم ويقروا بالإيمان في وقت لاحق، والبعض الآخر ممن لم ينشأوا في بيوت مسيحية يشهدون عن ترتيب العناية الإلهية في حياتهم وكيف قادهم الله إلى الإيمان بيسوع مخلصا شخصيا.

البداية هي دائما من الله؛ الإنسان ضال والراعي يبحث عنه ليأتي به إلى الحظيرة؛ الإنسان بعيد والله يجتذبه إليه. أثارت كلمة "يجتذب" في يو٦:٤٤ جدلا حول ما تعنيه، ويخفف البعض من معنى الكلمة بشرحها أن الله يحبّب الإنسان في المجيء إليه، أو يجعل لرسالة الإنجيل جاذبية ليكون قبولها محببا، أو أن عمل الله هو من قبيل النصح وللإنسان أن يقبل أو يرفض. أوضح أحد المفسرين أن الكلمة المستخدمة لا تفيد مجرد الإيماء بالمجيء، أو النصح، بل "الجذب". ونفس الكلمة مستعملة في يو٢١:٦، ١١ عن جذب الشبكة، وفي أع١٦:١٩ مترجمة "جروهما"، وفي أع٢١:٣٠ مترجمة "جروه". ويشرح كاتب التفسير أن في تلك الأجزاء تدل الكلمة على فعل قوي جدا نستطيع أن نقول أنه لا يمكن أن يقاوَم. صحيح أن الإنسان يقاوم، لكن مقاومته عديمة الجدوى. ويسترسل قائلا إن هناك اختلاف بين جذب الشبكة بالسمك واجتذاب خاطيء، لأن الله في حالة الخاطيء يتعامل مع كائن مسئول. إنه يؤثر بنفوذه على الفكر والإرادة والقلب وكل الشخصية، وهذه أيضا تبدأ في القيام بمهمتها حتى أن المسيح يُقبَل بإيمان حي[٧].

ت. **تحقيق الخلاص في حياة الفرد**

الله هو الذي يضمن تحقيق الخلاص بالكامل في حياة الفرد بنعمته السائدة. ليس معنى هذا أن الإنسان خامل في الأمر، لكن الروح القدس يعمل في قلب الإنسان وفكره وإرادته بطريقة عجيبة حتى إنه يصبح راغبا في الله ويَقبل المسيح طوعا واقتناعا ليس قسرا إو إكراها.

يعتمد تحقيق الخلاص في حياة الفرد على شخص المسيح والعمل الذي أكمله بالصليب؛ وكل بركة روحية يباركنا الله بها هي ثمر لعمل المسيح الفدائي، ونحن نتمتع بها في المسيح وسيط عهد النعمة وضامنه[٨]. لا يمكن أن توجد علاقة مع الله بعيدا عن الرب يسوع، لذلك فالاتحاد بالمسيح جوهري للتمتع ببركات الخلاص، ويتحقق هذا الاتحاد في حياة الفرد بواسطة الروح القدس الذي يحيينا، ويحل فينا، ويمدنا بكل البركات الروحية إذ يأخذ من المسيح ويعطينا[٩].

ما يلي هو فكرة بسيطة مختصرة عن تطبيق الفداء في حياة الفرد بعمل الروح القدس؛ وتشمل السباعية التالية:

الدعوة
التجديد
الرجوع إلى الله بالتوبة والإيمان
التبرير
التبنّي
التقديس
التمجيد

الترتيب المذكور هو ترتيب منطقي وليس زمني، فالعملية التي بها يتحقق عمل الخلاص في قلوب وحياة الخطاة مترابطة، وهذا واضح من رو٨:٢٩-٣٠: "لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه، ليكون هو بكرا بين إخوة كثيرين. والذين سبق فعيّنهم، فهؤلاء دعاهم أيضا. والذين دعاهم، فهؤلاء برَّرهم أيضا. والذين برَّرهم، فهؤلاء مجَّدهم أيضا".

يقول أحد أساتذة علم اللاهوت: "نحن لا ننسى أن عمل تطبيق نعمة الله في حياة الفرد الخاطيء هو عملية تتميّز بالوحدة، لكننا نؤكد الحقيقة أن هناك أجزاء مختلفة يمكن تمييزها في هذه العملية، وأن تطبيق الفداء يتتابع في ترتيب منطقي محدد، فالله لا يعطي كمال الخلاص في عمل واحد. ولو كان فعل هذا لما أدرك أبناء الله في دواخلهم عمل الفداء بكل جوانبه وبكماله الإلهي. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أننا غالبا ما

نستخدم التعبيرات التي تُستعمل لوصف أجزاء اختبار الخلاص المختلفة بمحدودية أكثر مما نجدها في الكتاب المقدس"[١٠].

الدعوة:

الدعوة العامة للإيمان بشخص الرب يسوع المسيح معلَنة في الكلمة المقدسة، وهي مقدمة للجميع؛ وبالرغم من أن كثيرين يسمعون الدعوة لكن ليس الكل يؤمنون. أما الدعوة التي تصل للداخل وتنتج ثمرا بعمل الروح القدس لخلاص النفس فهي "الدعوة الفعالة".

تعبيرات "الدعوة العامة" و"الدعوة الفعالة" غير موجودة حرفيا في الكتاب المقدس، إلا أن الفكرة موجودة فيه، مثلما جاء في مَثَل الدعوة إلى عرس ابن الملك، والذي انتهى بالقول "كثيرون يدعون وقليلون ينتخبون" مت٢٢: ١٤. لكن في أغلب الأحيان، عندما تُذكر "الدعوة" في العهد الجديد فإنها تعبِّر عن الدعوة الفعالة، ويستدل على ذلك من الوصف الذي توصف به: إنها دعوة عُليا سماوية مقدسة، بحسب قصد الله ونعمته، فيها يدعو الله مختاريه لشركة ابنه يسوع المسيح[١١]. "ترتبط (هذه الدعوة) بسبق التعيين من ناحية، وبالاتحاد بالمسيح والتبرير والتمجيد من الناحية الأخرى"[١٢]. وتولّد الدعوة الفعالة في المدعو تجاوبا معها بواسطة عمل الروح القدس الداخلي في الشخص إذ يبدأ فيه حياة روحية (التجديد أو الميلاد الثاني). كانت ليدية كغيرها تسمع كلام الرسول بولس وفتح الرب قلبها لتصغي إلى ما كان يقول، وآمنت بالرب.

التجديد:

التجديد[١٣] (Regeneration)، أو الميلاد الثاني، هو عمل روح الله القدوس الداخلي لبداية حياة روحية في الشخص الميت روحيا؛ والله وحده بنعمته يقوم بهذا العمل بالكامل، ولا يساهم الإنسان بشيء فيه، لأنه لا يستطيع: "ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مخلصون". هناك تعبيرات أخرى في الكتاب عن هذا العمل مثل الميلاد من فوق أو الميلاد من الروح وأيضا الخليقة الجديدة[١٤].

تتم الولادة من الروح في أعماق الإنسان، وقد يدرك تأثيرها في الحال أو في وقت لاحق. "الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من الروح" يو٣: ٨. وبالميلاد الجديد يتغلب الإنسان على الفساد والعجز الروحي، ويميل إلى أمور الله، فيُقبل إلى المسيح بالإيمان، الذي هو أيضا عطية الله[١٥]. "الميلاد الثاني يُنهض في الشخص حياة روحية تجعله يرى يسوع في حلاوته التي لا تقاوم"[١٦].

الرجوع إلى الله بالتوبة والإيمان - (Conversion) :

هذه الخطوة تتم عندما يتجاوب الإنسان مع دعوة الله بالتوبة والإيمان. يدرك الإنسان هذا الاختبار في أعماقه – في ذهنه وضميره - ويتأثر به كل كيانه، وتتغيّر نظرته للحياة في اتجاه سماوي: من الاهتمام بأمور الجسد للاهتمام بأمور الروح. قد يكون هذا الاختبار لحظيا أو تدريجيا.

وكما أن الله سيد على كل شيء فهو سيد في هذا الأمر أيضا، فالتوبة والإيمان هما عطاياه[١٧]، لكن الإنسان من جهته لا يكون خاملا، بل عليه مسئولية يجب أن يقوم بها. سنتوسع عن مسئولية الإنسان لاحقا.

يأتي الإيمان بسماع الخبر والخبر نجده في كلمة الله[١٨]؛ وموضوع هذا الخبر السار هو شخص يسوع المسيح ابن الله وعمله الفدائي الكامل. عندما يسمع الناس الكلمة يرفضها البعض، وبعض آخر يقبل الكلمة سطحيا ولا يدوم هذا التأثير كثيرا، أما التربة الجيدة التي أعدها روح الله القدوس فتثمر فيها الكلمة إذ يدرك الشخص تعاسته في الخطية واحتياجه الماس للمخلص، فيحزن على الخطية ويتوب عنها[١٩] ويأتي بثقة وإيمان في المسيح؛ وبالإيمان يتبرر الشخص ويتمتع بغفران خطاياه.

الإيمان الحي الخلاصي هو علاقة شخصية بالرب يسوع نفسه، إذ يحل المسيح بالإيمان في القلب[٢٠]، ويصاحب هذا الإيمان تغيير في الحياة والسلوك، يظهر في برٍّ يزيد عن برّ الكتبة والفريسيين الذي كان يعتمد على الطقوس والتطبيق الخارجي لوصايا الله. المؤمن الحقيقي لا يتخذ المسيح مخلصا شخصيا فحسب، بل يلتزم بالولاء والخضوع التام له كملك وسيد على حياته.

التبرير:

كل البشر مذنبون مدانون أمام عدالة الله، ومحكوم عليهم بالموت. كيف يمكن إذن أن يتبرر الإنسان؟ الآيات التالية تبيّن كيف أظهر الله برّه وعدله في تبرير الخطاة:

- "متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون بارا ويبرر من هو من الإيمان بيسوع" رو٣:٢٤-٢٦.
- "الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا حسب غنى نعمته" أف١:٧.
- "جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه" ٢كو٥:٢١.
- "كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة هكذا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارا" رو٥:١٩.
- "ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبرا وقداسة وفداء" ١كو١:٣٠.

أظهر الله عدله في تبرير الخطاة بتقديم ابنه كفارة لخطاياهم. لقد حمل الرب يسوع خطايانا، وتحمل بدلا عنا جزاءها العادل بموته على الصليب لأجلنا؛ وبدمه المسفوك دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداء أبديا. بهذه الذبيحة الكفارية البديلة تم إيفاء العدل الإلهي وتحققت كل متطلبات الناموس الجزائية، فزال الغضب ورضي الله، وتم الفداء؛ وكل من يؤمن بالابن يتمتع بغفران الخطايا، فيتخلص من ذنبها ويُفدى من عبوديتها ويتحرر من سلطانها. هذا الغفران بدم المسيح غفران كامل، ويشمل كل الخطايا ماضيا وحاضرا ومستقبلا؛ لذلك عندما يخطيء المؤمن فإنه لا يقع تحت غضب الله ودينونته، ولا يحتاج إلى تبرير من جديد؛ إلا أن خطيته تحزن قلب الآب، كما تحزنه هو، لذلك يأتي إلى الله معترفا تائبا فيتمتع بتأكيد الغفران.

ومع غفران الخطايا هناك جانب آخر للتبرير، فيه يحظى المؤمن ببر إيجابي أمام الله، البر الذي يأتي بالطاعة الكاملة لوصايا الله. ما من أحد عاش حياة البر الكامل سوى الرب يسوع المسيح البار؛ وكل من يتحد بالمسيح بالإيمان لا يحسب الله له خطاياه بل يحسب له بر المسيح[٢١]. "الرب برنا" إر٢٣:٦، ٣٣:١٦. وإذ يرانا الآب متحدين بالمسيح البار- موضوع سروره - ينظر إلينا بعين الرضا والسرور، ويحظى الشخص المبرر بالمصالحة والسلام مع الله، ويتمتع بالبنوة وميراث الحياة الأبدية[٢٢].

الخلاصة أن الإنسان يتبرر أمام الله مجانا بنعمته بالإيمان في شخص المسيح، وفي التبرير يصدر الله حكم قضاء بأن الشخص مبرر، أي أن خطاياه قد غفرت ولم يعد مذنبا ولا تقع عليه أي إدانة، كما يُحسب له بر المسيح الذي بحياته ومماته أوفى كل متطلبات الناموس[٢٣]. بالإيمان يعي الشخص في داخله أنه مُبرّر، عُفي عنه وتحرر من الذنب، وأنه مقبول عند الله في المسيح. ولا يجعل التبرير الإنسان مستقيما بمعني النقاء الداخلي، لكن الله يكمل عمله في المؤمن المبرَّر بإحداث التغيير في الداخل بتقديس الروح القدس. قبل أن ننتقل للكلام عن التقديس نتوجه لبركة التبني التي يمنحها الله للمؤمن المبرَّر.

<u>التبني:</u>

عند التبني - في الدوائر المدنية - يؤخذ طفل من خارج العائلة ويصبح قانونيا ابنا فيها، يتمتع بمزايا البنوة بالكامل. كذلك التبني في المفهوم الروحي هو اتخاذ الله الآب للمؤمن المبرّر ابنا في المسيح، فيصبح عضوا في عائلة الله ويتمتع بشركة ميراث القديسين وكل بركات البنوية. بركة التبني وبركة الميلاد الروحي يرتبطان ببعضهما ولا يمكن الفصل بينهما. هذا واضح من يو١:١٢-١٣: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه. الذين ولدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله". وتعبر كلمة "سلطان" في ع١٢ عن حق قانوني (بالبنوية) يُعطَى للمولودين روحيا، الذين قبلوا المسيح بالإيمان[٢٤].

نعمة التبني هي امتياز عظيم، وشرف يفوق استيعابنا؛ هكذا كتب الرسول يوحنا: "انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أبناء الله" ١يو٣:١. التبني يرفع علاقتنا بالله إلى أسمى درجة إذ نأتي إليه أبا سماويا في حب وود وثقة البنين، وبالروح القدس الساكن فينا نخاطبه "يا أبانا"؛ ويساعدنا الروح القدس في إدراك بنوتنا إذ يشهد لأرواحنا أننا أبناء الله[٢٥]. ما أحلى هذا النداء وما أروعه! إن الله السيد العظيم ملك الملوك ورب الأرباب الساكن في نور لا يدنى منه أحبنا وبررنا وجعلنا أبناء له! "أقدر أقوله أبويا"، كما تقول الترنيمة.

إننا في المسيح نتمتع بحرية البنين، ومع المسيح - أخينا البكر المتقدم في كل شيء - أصبحنا ورثة أيضا، "ورثة الله ووارثون مع المسيح". لكن بنوتنا هذه تختلف عن البنوة الأزلية للابن الحبيب الوحيد الذي هو في حضن الآب، والذي جعله وارثا لكل شيء. لقد تنازل الابن الحبيب وتجسد ليتمم الفداء، ليرفعنا - نحن الذين لا نستحق - إلى مقام عظيم، وفي كرمه لا يستحي أن يدعونا إخوة[٢٦].

التقديس:

"يمكن أن يعرّف التقديس بأنه تلك العملية المجيدة والمستمرة التي يعملها الروح القدس، إذ يُخلّص الخاطيء المبرر من تلوث الخطية، ويجدِّد كل طبيعته إلى صورة الله، ويمكّنه من القيام بأعمال صالحة"[٢٧].

أحيانا تُذكر كلمة "التقديس" بمعنىً يفيد عملا لا يتكرر، يعمله الله عند بداية الحياة المسيحية كما هو الحال في الدعوة والتجديد والتبرير والتبني. في هذه الحالة يعني التقديس الفرز لله، مثلما جاء في الآية "لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا" ١كو٦:١١. كذلك نجد في الكتاب المقدس أن كلمة "قديسين" تطلق على المؤمنين، غالبا عند مخاطبتهم في بداية الرسائل[٢٨]. و"تعبر هذه الكلمة عن الامتياز والمسئولية في دعوة كل مسيحي وليس عن إنجاز يحصل عليه البعض القليل المختار"[٢٩].

هناك ارتباط بين وضع المؤمنين كقديسين (أو مقدسين - أع٢٦:١٨) وعملية التقديس المستمرة التي تجعل حياتهم تتطابق مع ما هم عليه بالنعمة. الميلاد من الروح هو المرحلة الأولى في التقديس إذ يُعطَى الشخص حياة جديدة ويتحرر من عبودية الخطية ليبدأ في اتجاه آخر مقدس، ثم يستمر الروح القدس في تقديسه لتكون حياته متطابقة مع إرادة الله المعلنة في وصاياه، ومن ثم يشابه صورة الرب يسوع الذي صار لنا من الله برا وقداسة وفداء.

عند التجديد نولد أطفالا روحيا، لكن يجب أن لا نظل هكذا، بل ننمو في النعمة ومعرفة الرب، وننضج نحو الكمال. يحثنا الكتاب كثيرا على السلوك كما يليق بقديسين. إن أردنا حقا أن نتمتع بقرب الله فعلينا أن نتبع القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب، وهذا يتضمن نقاوة القلب وطهارة النفس وتغيّر السلوك ليتجه الكل لمحبة الله وخدمته وتمجيده.

إن استمرار المولود من الله في الخطية أمر غير معقول أو مقبول: "كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأن زرعه يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطيء لأنه مولود من الله" ١يو٣:٩. ليس معنى هذا أن إمكانية الخطأ غير موجودة بعد الولادة الجديدة، وإنما مثلما يقول أب مؤمن لابنه: "يا بُني نحن لا نشتم في هذا البيت لأن اسم الرب دعي علينا"، هكذا فإن من وُلد ولادة جديدة لا يستطيع أن يستمر في الخطية كنمط حياة، لأن الله لم يدعنا للنجاسة بل في القداسة. إن دعوتنا السماوية تتطلب منا حياة القداسة: "نظير القدوس الذي دعاكم كونوا أنتم أيضا قديسين في كل سيرة. لأنه مكتوب كونوا قديسين لأني أنا قدوس" ١بط١:١٥-١٦. لكن عندما نخطيء لا نفشل لأن لنا شفيع عند الآب، يسوع المسيح البار، وإن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم[٣٠].

كذلك فحياة الخطية تناقض السبب الذي لأجله حمل المسيح خطايانا: "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر" ١بط٢:٢٤، وفي رومية ٦ يؤكد الرسول بولس على نفس الموضوع إذ يقول "نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها". إن المؤمن إذ يتحد بالمسيح في موته، يموت معه الشخص الذي كانت تتحكم فيه الخطية وتستعبده – أي الإنسان الطبيعي بدون النعمة المحيية – "عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نستعبد أيضا للخطية" ع٦؛ والذي مات يتحرر من سلطان الخطية ليحيا لله.

عندما يولد شخص من الروح، لا يتخلص من الطبيعة الخاطئة، لكنه يتخلص من سلطانها ويصبح الوقوع في الخطية أمرا محزنا وليس اهتماما بها وميلا طبيعيا لها. طالما نحن في هذا الجسد، هناك صراع بين الجسد والروح، "اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد. وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون ما لا تريدون" غل٥:١٦-١٧. هناك فرق بين الوقوع في الخطية والتلذذ بها. الطبيعي أن يكون عند المؤمن رغبة في إرضاء الله وعمل البر دائما، لكنه يتعرض لحرب روحية تشن عليه؛ فالعالم يضع أمامه ما يبهر، وإبليس يقاومه، والشهوات الجسدية تحاربه[٣١]؛ وقد يعمل ما لا يريد عمله، لكنه وإن سقط يقوم.

واجبنا هو أن نطيع وصايا الله في مواجهة أعدائنا الروحيين، فينبغي أن لا نحب العالم، وأن نقاوم إبليس، وأن نميت أعمال الجسد بالابتعاد عن الدنس والنجاسة والسلوك الردي. ومن الناحية الإيجابية، علينا أن نحب الله، ونضع كلمته في قلوبنا حتى لا نخطيء إليه، ونسلك حسب الروح مكمِّلين القداسة في خوف الله. كلما زرعنا للروح تزيد رغبتنا في إرضاء الله وتضعف رغبتنا في إرضاء الجسد[٣٢]. الحياة المسيحية حياة جهاد، لكنها أيضا حياة فرح حقيقي وسرور غامر ورجاء مجيد، والغلبة هي لنا إذ يعظم انتصارنا بالذي أحبنا.

بينما علينا واجب ومسئولية بالنسبة للنمو الروحي، لا نستطيع أن نقوم بذلك في استقلال عن الله، فالمسيح الذي نتحد به بالإيمان هو مصدر تغذيتنا؛ وبالروح القدس الذي يسكن فينا نميت أعمال الجسد، وبه نسلك ونثمر لمجد الله؛ وهو ينير عقولنا لنفهم الكلمة المقدسة، ويساعدنا في تطبيقها، ويعضدنا في محاربتنا للعدو، ويعطينا القوة للتغلب على الخطية. كذلك يؤدبنا الآب لتقويمنا وذلك للمنفعة لكي نشترك في قداسته.

لا يَكمُل التقديس في صورته النهائية ونحن هنا على الأرض. عندما ننتقل لنكون مع الرب، فإذ تنفصل الروح عن الجسد يجعلها الله كاملة القداسة. يقول الكتاب عن أرواح الذين ماتوا في المسيح أنهم "أرواح أبرار مُكمَّلين" made perfect عب١٢:٢٣. ليس ذلك فقط لكن القداسة في كمالها تشمل الجسد أيضا، لذلك تكتمل عملية التقديس ويبدأ التمجيد عند فداء أجسادنا في القيامة[٣٣]، فعند مجيء ربنا يسوع المسيح في المجد يقوم الذين رقدوا في الرب بأجساد ممجدة تتحد بأرواحهم، ويتغيّر المؤمنون الأحياء. "سيغير (الرب) شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء" في٣:٢١. لن يكون في السماء شيء دنس[٣٤]، ولن يكون هناك احتمال السقوط في الخطية مرة أخرى، بل سنُحفظ في حالة القداسة؛ وهذا يتماشى مع وعد الحياة الأبدية للمُخَلَّصين.

التمجيد:

التمجيد في الأساس أمر مستقبلي[٣٥]، لكن يمكن القول بأن التمجيد يبدأ هنا في حياة المؤمن إذ أن الله الذي أحيانا مع المسيح أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع؛ كذلك فإننا إذ نتغيّر إلى صورة المسيح فإننا نتغيّر من مجد إلى مجد[٣٦]. "إن التقديس هو بداية المجد، والمجد هو اكتمال التقديس"[٣٧].

لا يستطيع أحد أن يسبر أغوار الأمجاد المستقبلية، أو يبدأ في إدراك أبعادها؛ "إننا ننظر الآن في مرآة في لغز لكن حينئذ وجها لوجه. الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت" ١كو١٣:١٢. هناك الكثير الذي لا نعرفه عن الميراث الذي لنا والأمجاد التي تنتظرنا، وعلينا أن ننتظر بصبر؛ لكننا "نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو" ١يو٣:٢.

خلاصة هذه السباعية إن عمل الروح القدس في المختارين لتخصيص الخلاص لهم هو عمل كامل، إذ يضع الروح بذرة الحياة فيهم، ويستمر في تغييرهم إلى صورة الرب يسوع وحفظهم بالتمام، وفي النهاية سيحيي أجسادهم المائتة ويدخلهم إلى المجد الأبدي. إنه خلاص كامل شامل، في الماضي والحاضر والمستقبل[٣٨].

ث. عقيدة الاختيار

لا بد أن نتطرق إلى عقيدة الاختيار ونحن نتحدث عن سيادة الله في الخلاص، وعقيدة الاختيار هي واحدة من أكثر العقائد التي أثارت الجدل على مر العصور. ومع أن الكتاب لا يخبرنا بتفاصيل كثيرة بخصوص هذه العقيدة إلا أنه يعلمنا عن الاختيار بوضوح لا يمكن تجاهله، وأي شخص يؤمن بالكتاب المقدس ويدرسه يعرف هذا.

يتحدث الكتاب عن اختيار مرتبط بأمة محققا في الأمة الإسرائيلية، أو بوظيفة مثل اختيار هرون للكهنوت وداود للمُلك، لكني أخص الحديث هنا عن الاختيار للخلاص مثلما جاء في ٢تس٢:١٣ "وأما نحن فينبغي لنا أن نشكر الله كل حين لأجلكم أيها الإخوة المحبوبون من الرب أن الله اختاركم من البدء للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق"[٣٩]. ولا يعتمد اختيار الله "في أي سياق" على الاستحقاق، حتى لا يكون لأحد فخر، وكل ما قضى به الله هو حسب قصده ومسرة مشيئته. لم يكن اختيار الله لإسرائيل مبنيا على أي فضل فيهم، إنما يخبرنا الكتاب بوضوح أن سبب اختيارهم هو محبة الرب إياهم. أحبهم فضلا. أحبهم لأنه أحبهم[٤٠]! وعندما اختار الرب يسوع تلاميذه فعل ذلك بسيادة كاملة وقال لهم "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم

وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم" يو١٥:١٦؛ كذلك الاختيار للخلاص لا يعتمد على أي استحقاق أو أي عمل نعمله وإنما هو اختيار بالنعمة حسب مسرة مشيئته، "اختارنا فيه قبل تأسيس العالم .. إذ سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه حسب مسرة مشيئته" أف١:٤-٥.

عقيدة الاختيار للخلاص أعمق مما يستطيع العقل البشري أن يستوعب، فهي ترتبط بمحبة الآب الأزلية الأبدية للابن، وإعطائه منذ الأزل شعبا ليكون الابن فاديا ورأسا له، وهم يكونون ملكه، يحبونه ويعبدونه للأبد. من أعطاهم الآب للابن هم المكتوب اسمهم في سفر الحياة منذ تأسيس العالم، وهم الذين يعمل الروح القدس فيهم، ويمنحهم بنعمته حياة جديدة في المسيح. أعلن الرب يسوع عن هذه العطية من أبيه في مرات عدة، وما يلي بعض الأمثلة: "كل ما يعطيني الآب فإلي يقبل .."، و "كل ما أعطاني الآب لا أتلف منه شيئا .." يو٦:٣٧، ٣٩. وأيضا "أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل .." يو١٠:٢٩. كذلك نلاحظ الاستعمال المتكرر للتعبير "الذين أعطيتني" في صلاة المسيح الشفاعية – إنجيل يوحنا أصحاح ١٧. في هذه الصلاة لا يسأل الرب من أجل العالم بل من أجل الذين أعطاهم الآب له.

يذكر الكتاب تعبيرين يرتبطان ببعضهما، وهما الاختيار (Election) وسبق التعيين (Predestination)، ونجدهما معا في أف١:٣-١١. يقول الرسول في ع٤ إن الله اختارنا فيه (أي في المسيح) قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة، ثم يتابع في ع٥ "إذ سبق فعيننا للتبني بيسوع المسيح حسب مسرة مشيئته". وفي ع١١ يقول "الذي فيه أيضا نلنا نصيبا معينين سابقا حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته". يعبر "سبق التعيين" عن أن الله قضى بالمصير النهائي لكل إنسان، أما الاختيار للخلاص فيعتبر جزءا من سبق التعيين، ويعبّر عن أن الله بحسب مسرة مشيئته اختار منذ الأزل أناسا لينعم عليهم بالخلاص في المسيح يسوع بدون أي استحقاق فيهم[٤١].

يتحدث الكتاب عن الاختيار وسبق التعيين ببساطة شديدة كقضايا مسلم بها، فبالإضافة للآيات السابقة، نجد لوقا يتحدث عن الذين آمنوا بالقول: "وآمن جميع الذين كانوا معينين للحياة الأبدية" أع١٣:٤٨. كما كتب الرسول بولس عن أمر الاختيار: "عالمين أيها الإخوة المحبوبون من الله اختياركم. إن إنجيلنا لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضا وبالروح القدس وبيقين شديد" ١تس١:٤-٥. لكن أكثر الأجزاء وضوحا بالنسبة للتعليم عن الاختيار نجده في الأصحاح التاسع من رسالة رومية، إذ بعد أن عبر الرسول بولس عن حزنه الشديد لعدم إيمان "إخوته أنسبائه حسب الجسد"، شرح في رسالته أن السبب في إيمان البعض وعدم إيمان البعض الآخر يكمن في قصد الله في الاختيار. ويُثبت الرسول حجته بالرجوع إلى البداية، إلى اختيار إسحق كابن الموعد وليس إسماعيل، كذلك إلى اختيار يعقوب وليس عيسو، حيث يقول إن هذا الاختيار كان قبل أن يولدا أو يفعلا خيرا أو شرا "لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار، ليس من الأعمال بل من الذي يدعو" رو٩:١١. يسترسل الرسول ليجيب على الاعتراضات التي قد ترد للعقل، وهي نفس الاعتراضات التي تطرح في كل عصر عن هذا الموضوع. يقول الرسول: "ألعل عند الله ظلما. حاشا"؛ ثم يوضح أن الأمر لا يتعلق بالاستحقاق وإنما يعتمد على رحمة الله ومشيئته من الأول للآخر، فيرجع بنا إلى قول الله لموسى "إني أرحم من أرحم وأتراءف على من أتراءف"؛ وبالوحي يصل الرسول للنتيجة أنه "ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل لله الذي يرحم".

يقول البعض إن الرسول يتحدث في هذا الجزء عن اختيار لمهمة أو عمل أو خدمة؛ لكن علينا أولا أن نلاحظ سياق الكلام في رو٩:١-٥ وهو عن الإيمان بالمسيح من عدمه، كما أن الأصحاح التالي يبدأ بالآية: "أيها الإخوة إن مسرة قلبي وطلبتي إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص". من الناحية الأخرى لو كان الكلام ليس عن الخلاص لما كان هناك داع لتوقع الاعتراضات المذكورة، وبصفة خاصة الاعتراض: "فستقول لي. فلماذا يلوم بعد. لأن من يقاوم مشيئته". وقد عقب الرسول على هذا الاعتراض الأخير بأنه ليس من اللائق بالمخلوق أن يجاوب خالقه، موضحا أنه ليس من المعقول أن تعترض الجبلة على جابلها فيما يصنع: "بل من أنت أيها الإنسان الذي يجاوب الله. ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتني هكذا. أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان" رو٩:٢٠-٢١. هذا لا يعني أن الله يمنعنا من التفكير والتساؤل، ولكن كما يقول أحد العلماء معلقا على هذا الجزء، إن هناك أسئلة تنبع من الإيمان مثل تلك التي سألها أيوب وإرميا في محاولة لفهم طرق الله في التعامل معهم، وهناك نوع آخر من الأسئلة يحاول الإنسان فيه أن يضع الله في قفص الاتهام ويحاكمه؛ مثل هذا الإنسان يوبخه بولس هنا[٤٢]. بدون شك هذه العقيدة صعبة علينا وهناك ما لا نفهمه عن الاختيار لأن الله لم يعلن لنا كيف أو لماذا اختار

من اختار؛ ولكونه الخالق فهو ليس تحت أي اضطرار ليعلن لنا أسبابه، ونحن يجب أن لا نتمرد على أحكامه أو نتشكك في عدالته.

ج. حفظ الله لمختاريه

كما أن بداية الحياة المسيحية هي من الله، كذلك يحفظ الله أبناءه في نعمته إلى النهاية؛ إنه قادر أن يحفظنا غير عاثرين ويوقفنا أمام مجده بلا عيب في الابتهاج. هذا ما تؤكده لنا الكلمة المقدسة بوضوح في أجزاء كثيرة.

نبدأ ببعض وعود الرب يسوع بحفظه لمن أعطاهم الآب له، إذ قال:

- "خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد" يو١٠:٢٧-٣٠.
- "هذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئا بل أقيمه في اليوم الأخير" يو٦:٣٩.

هذه الوعود تعطينا الثقة بأن الرب يسوع يحفظ من هم له "إلى الأبد"، وهو الآن يجلس عن يمين العظمة في الأعالي شفيعا لهم، "فمن ثَمَّ يقدر أن يخلص أيضا إلى التمام الذين يتقدّمون به إلى الله إذ هو حيٌّ في كل حين ليشفع فيهم" عب٧:٢٥. "في تلك الأقداس العليا يحمل الرب على قلبه وفوق كتفيه أسماء مختاريه مقدما صلواتهم مقرونة برائحة بخور شفاعته العطر طالبا على الدوام حفظهم من الشرير"[٤٣]. إن ظهور فادينا الآن أمام وجه الله لأجلنا يملأ النفس اطمئنانا وسلاما، فهو يضمن خلاصنا وحفظنا من الشرير إلى أن نلقاه في مجده.

يؤكد أيضا الرسول بطرس حفظ الله للمؤمنين في رسالته الأولى إذ يقول:

> "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ في السماوات لأجلكم أنتم الذين بقوة الله محرسون بإيمان لخلاص مستعد أن يعلن في الزمان الأخير" ١بط١:٣-٥.

هنا يقدم الرسول الحمد لله الذي حسب رحمته الكثيرة يبدأ في حياة الشخص بالولادة الجديدة، فالله الذي أقام ربنا يسوع من الأموات أحيانا معه وأقامنا معه. وقيامة يسوع هي مصدر الرجاء، وفيها الضمان لذلك الميراث الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ في السماوات لأجلنا. إن التأكد من حفظ ميراثنا في السماوات لا يشجعنا ولا يملأنا رجاء حيا إلا إذا كنا على يقين من الوصول إليه والحصول عليه! لكن تؤكد لنا كلمة الله في هذه الآيات أننا نحن أيضا محروسون بقوة الله في الإيمان إلى أن نقتني ميراثنا ونحصل على الخلاص الكامل عند مجيء ربنا يسوع المسيح. وذِكر الإيمان هنا يدل على أننا لسنا محروسون قسرا، وإنما يعمل الله فينا كأناس عاقلين ويحفظنا بقوته في الإيمان.

الله يبدأ عمله في قلب المؤمن بالروح القدس، ولا يمكن أن يترك العمل غير كامل، بل يستمر الروح القدس في تقديس المؤمنين، ويضمن تغييرهم من مجد إلى مجد. كتب الرسول بولس: "واثقا بهذا عينه أن الذي ابتدأ فيكم عملا صالحا يكمّل إلى يوم يسوع المسيح" في١:٦. هكذا نتعلم أيضا من السلسلة الذهبية في رو٨:٢٩-٣٠، كما يطلق البعض عليها، أن الأمر لا ينتهي عند الدعوة والتبرير بل يكمل الله عمله حتى التمجيد. يتابع الرسول بولس في الأصحاح الثامن من الرسالة إلى أهل رومية، مبيّنا يقينه الشديد من جهة حفظ الله للمختارين في سؤاله: "من سيشتكي على مختاري الله؟" لا يستطيع أحد أن يؤذي المختارين لأن أمانهم يرتكز على تبرير الله لهم وعلى المسيح المنتصر الذي يشفع فيهم. وذات اليقين يظهر في ختام الأصحاح بالقول "إني متيقّن"، أن لا شيء يمكن أن يفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا.

لقد أعطانا الله عربون الروح القدس، وفي ذلك دليل قاطع على التزامه بعمله في المؤمن للنهاية. "العربون" الذي يدفعه شخص عند شراء بيت يدل على جدّيته ونيّته على دفع الكل لاحقا. لكن البشر قد يخفقون في هذا، لسبب أو لآخر، أما الله فهو عالم بكل شيء ولا يتردد فيما يفعل، كما أنه قادر أن يكمل للنهاية. "لأنه مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النعم وفيه الآمين لمجد الله بواسطتنا. ولكن الذي يُثبّتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضا وأعطانا عربون الروح في قلوبنا" ٢كو١:٢٠-٢٢.

بالإضافة للتأكيدات السابقة، هناك جزء أحاول أن أتذكره دائما لما فيها من حجّة قوية تبعث الطمأنينة والراحة بالنسبة للمستقبل، وهو ما جاء في الرسالة إلى أهل رومية:

"ولكنّ الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا. فبالأولى كثيرا ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب. لأنه إن كنّا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيرا ونحن مصالحون نخلص بحياته" رو٥:٨-١٠.

تشجعني عبارة "فبالأولى كثيرا" المذكورة مرتين في هذا الجزء! إن محبة الله نحونا لن تتغيّر، لأنها لا تعتمد على أي شيء فينا، بل أحبنا الله ونحن خطاة، ضعفاء، مستحقين الموت. الله يعرف كل شيء عنا؛ يعرفنا في أسوأ حالاتنا، ومع ذلك أحبنا، ومحبته هذه ثابتة للنهاية. فما هو مستقبلنا إذن ونحن الآن أبناء أحباء متبرّرون بدم المسيح؟ هل يتركنا الله؟ لا يمكن! تقول الآية: "فبالأولى كثيرا ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب". بالإضافة، فالله الذي صالحنا لنفسه بموت ابنه بعد أن كنا أعداء له، سيكمل العمل في شخص الابن المقام الحي إلى أبد الآبدين، وسنتمتع بخلاص تام عندما يأتي الرب في مجده ويأخذنا إليه: "فبالأولى كثيرا ونحن مصالحون نخلص بحياته". كل هذا يدعونا إلى الفرح في الرجاء، و"الرجاء لا يخزي، لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا" رو٥:٥.

هناك من يدّعون الإيمان لكن لم يحدث تغيير حقيقي في حياتهم. قال الرب "ليس كل من يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السماوات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السماوات". فإن ظَلّ هؤلاء بدون إيمان حقيقي مثمر تكون النتيجة أنه في ذلك اليوم يصرح الرب لهم "إني لم أعرفكم قط. إذهبوا عني يا فاعلي الإثم" مت٧:٢١، ٢٣. كذلك وصف الرسول يوحنا بعض المعلمين الكذبة قائلا: "منّا خرجوا لكنهم لم يكونوا منّا لأنهم لو كانوا منّا لبقوا معنا لكن ليُظهَروا أنهم ليس جميعهم منّا" ١يو٢:١٩؛ وقال عنهم الرسول بولس بأن "لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها" ٢تي٣:٥. ليست هذه هي نوعية المؤمن الذي سيظل في النعمة، ما لم يتغيّر الوضع. ليس معنى هذا أن المؤمن لا يزلّ. قال أحد العلماء: "نحن نؤمن أن المسيحي الحقيقي يمكن أن يسقط بطريقة خطيرة وجسيمة، لكن لا نعتقد أنه يمكن أن يسقط كلية ونهائيا"[٤٤].

من الآيات التي تتخذ حجة ضد عقيدة ثبات المؤمن (حفظه وثباته معا) ما جاء في عب٦:٤-٦

"لأن الذين استُنيروا مَرَّة، وذاقوا الموهبة السماوية، وصاروا شركاء الروح القدس، وذاقوا كلمة الله الصالحة وقوات الدهر الآتي، وسقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضا للتوبة، إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهّرونه"

لا أنكر أن هذا الجزء صعب، وقد اختلف العلماء في تفسيره، وأكتفي هنا بما كتبه القس غبريال رزق الله في شرح الرسالة للعبرانيين، فهو يعتبر أن كلام الرسول هو وصف للمسيحين الحقيقيين، وأنه لا يتنافى مع تعليم الكنيسة بشأن ثبات المؤمنين الذي يبنى على كلام المسيح في يو١٠:٢٧-٣٠. يشرح القس غبريال الجزء من يوحنا بأن "المسيح يتكلم عن خرافه الذين أعطوا له من الآب ويحقق ثباتهم وحفظهم من الناحية الإلهية المحضة. ثباتا وحفظا يؤكدان عدم إمكانية سقوطهم أي ارتدادهم للهلاك". أما في الرسالة إلى العبرانيين، يتكلم الرسول "عن هؤلاء الخراف بعينهم إنما من ناحية المسئولية الشخصية وإذا ذكرت المسئولية الشخصية وجب التحذير من السقوط"[٤٥].

إن سيادة الله في الحفظ لا تتعارض مع إعطاء كل ما يلزم من تحذير لكي يقوم المؤمن بواجبه، ويثابر في الجهاد المسيحي. في الواقع يتابع الرسول بأنه حتى لو كان يتكلم هكذا بالتحذير ضد الارتداد فإنه على يقين أن المؤمنين الذين يكتب إليهم يثبتون في إيمانهم للخلاص؛ "ولكننا قد تيقّنا من جهتكم أيها الأحباء أمورا أفضل ومختصة بالخلاص، وإن كنا نتكلم هكذا" عب٦:٩.

إذن، من الجانب الإلهي وسيادة الله في الخلاص، تؤكد لنا كلمة الله أنه لا أحد يخطفنا من يد الآب، ومن جانب المسئولية الشخصية، تحثنا نفس الكلمة على أن نثبت ونتحذر ونتنبّه إلى ما نسمعه، ونتمسّك ببداءة الثقة ثابتة إلى النهاية.

ح. **مطلب العدل**

ربما أكثر الاعتراضات شيوعا بالنسبة لسيادة الله في الخلاص، هو القول بأنها تضفي شكا على عدالة الله. وبالرغم من أنه لا يصح لنا أن نقيّم عدل الله بمقاييسنا لأنه ليس نظيرنا، لكننا نجد في كلمة الله ما يساعدنا ونحن نعتبر هذا الأمر. سنتطرق لموضوع العدل من عدة زوايا:

أولا: نيابة آدم عن الجنس البشري. معظمنا، إن لم يكن كلنا، يعترف بأن عقاب الله على آدم بالموت بسبب عصيانه لا يمس عدالة الله بشيء. لكن ربما يكون التعليم بحكم الله على جميع الناس بالدينونة بسبب خطية آدم صعب الاستيعاب. يقول الكتاب:

"كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة" رو٥:١٨.

يتكرر هذا الفكر في رو٥:١٢-١٩، إذ نقرأ

- "بخطية واحد مات الكثيرون" ع١٥
- "الحكم من واحد للدينونة" ع١٦
- "بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد" ع١٧
- "بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة" ع١٩

وفي مطلع هذه الفقرة يقول الرسول:

"من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع" ع١٢

من الآيات السابقة يتضح أن خطية آدم كان لها تأثير سلبي علينا جميعا، فبخطيته جُعلنا خطاة، وصار علينا الحكم بالدينونة، واجتاز الموت إلى جميعنا. يفسر البعض عبارة "إذ أخطأ الجميع" في ع١٢ أنها تشير إلى خطايا الناس الفعلية بإرادة حرة تماما دون التأثر من قريب أو بعيد بخطية آدم. هذا التفسير يتعارض مع السياق هنا، والذي يعلل دخول الخطية والموت إلى العالم بالإنسان الواحد وبخطية الواحد. كذلك إذا كان هذا الأمر صحيحا فكيف لم يستطع ولا واحد على مر العصور والسنين أن يستخدم إرادته الحرة استخداما حسنا ويمتنع عن ارتكاب الخطية تماما؟ يقول آخرون إنها الخطايا الفعلية التي يقترفها الجميع إذ أنهم ورثوا طبيعة الخطية من آدم. بالفعل إن الكل يخطيء لأننا ورثنا طبيعة الخطية من آدم، لكن السياق يشير إلى دخول الخطية إلى العالم واجتياز الموت للجميع بخطية الواحد. هذا معناه أننا في اتحاد بآدم أخطأنا معه وحُكم علينا بالموت معه. يتابع الرسول في توضيح الفكرة في عددي ١٣-١٤ بأن كل من عاشوا في الفترة بين آدم وإعطاء الناموس الموسوي لم تكن خطاياهم تعدّيا على وصية معينة أعطيت لهم، كما كان الحال في موقف آدم وحواء، ولم تكن تعدّيا على الناموس الذي لم يكن قد أعطي بعد. وإذا لم تكن الخطية تعديا على وصية أو ناموس فإنها لا تحسب ولا تعاقب، فلماذا مات هؤلاء؟ ما يفهم من الجزء أنه عندما أخطأ آدم، فيه أخطأ الجميع، ولذلك اجتاز الموت إلى جميع الناس، ومن ثم ملك الموت على هؤلاء أيضا.

تطرق الرسول بولس إلى فكرة النيابة أيضا في الرسالة الأولى إلى كورنثوس حيث يتكلم عن إنسانين، من خلالهما ينظر الله إلى البشر: آدم الإنسان الأول ترابي. هو رأس البشرية، وكان يمثلنا في جنة عدن، وفيه أخطأ الجميع ويموت الجميع. والإنسان الثاني – آدم الأخير - الرب من السماء، يسوع المسيح. هو رأس الخليقة الجديدة المفدية وممثلها، وببره صارت الهبة لجميع الناس لتبرير الحياة وفيه يحيا الجميع[٤٦].

يقول المعترض أنه ليس من العدل أن يكون آدم ممثلا لنا ويوقعنا في هذا المأزق الكبير! يقدم التوضيح التالي ردا على هذا الاعتراض، وهو مستخلص من كتاب عن الاختيار:

تفترض فكرة النيابة أن الله حكم علينا بالذنب من أجل خطية آدم لأنه كان ممثلا لنا بالعدل والإنصاف. قد يقول قائل لكننا لم نختر آدم ممثلا عنا! لنفترض أنه كانت لدينا الحرية الكاملة لننتخب من ينوب عنا في جنة عدن، هل كان ذلك يرضينا؟ إننا نريد أن نختار نحن من يمثلنا للتأكد من أنه سيعمل ما نرغب فيه وأنه سيكون دقيقا في تمثيلنا. لكن حتى لو اخترنا نحن من يمثلنا قد لا يلتزم بتحقيق رغباتنا، وهذا يتضح ممن يمثلوننا في الأحزاب السياسية فقد يعدوا بشيء ويفعلوا غيره. في الحقيقة أنه لا يوجد وقت في تاريخ البشرية كنا فيه نمثل تمثيلا دقيقا أكثر من جنة عدن. من المؤكد أننا لم نختر من ينوب عنا، لكن من اختاره لم يكن

أي إنسان أو ملك عادي، إنما الله القادر على كل شيء، وهو يختار بكمال مطلق، واختياره منزه عن الخطأ. إذا اخترنا نحن من يمثلنا قد نخطيء الاختيار وقد لا يمثلنا بدقة، لكن آدم ناب عنا بدون أي خطأ في تمثيله لنا، ليس بناء على كماله هو، لكن على أساس اختيار الله الكامل. لهذا لا يصح أن نجادل بأن آدم لم يكن اختيارا موفقا للنيابة عنا.

قد نفترض أننا إذا كنا مكان آدم لما فعلنا مثله ولما كنا اتخذنا قرارا يهوي بالبشرية إلى الدمار. مثل هذا الافتراض غير محتمل لأن الله في كماله لا يخطيء في اختياره لمن ينوب عنا. ربما نعتبر أنه حتى إذا كان آدم مثلنا بدقة كاملة فذلك ليس عدلا في ضوء جسامة المخاطرة. وهنا نسأل السؤال الذي طرحه بولس الرسول "ألعل عند الله ظلما؟ حاشا". ومع ذلك فما زلنا نعارض، ونفترض أننا ضحايا أبرياء أمام حكم الله. هذه الأفكار تؤكد الدرجة الكبيرة لسقوطنا، وأننا نفكر كأولاد آدم! إنها تظهر بوضوح أننا مُثلنا بدقة في آدم[٤٧].

بالإضافة إلى ما سبق فإن فكرة النيابة أساسية بالنسبة لخطة الفداء إذ يعلمنا الكتاب أنه كما متنا في آدم هكذا نحيا في المسيح؛ وها هي الآيات التي ذكرت أجزاء منها قبلا ترينا مقابلة ومماثلة:

- "ولكن ليس كالخطية هكذا الهبة. لأنه إن كان بخطية واحد مات الكثيرون فبالأولى كثيرا نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين" ع١٥
- "وليس كما بواحد قد أخطأ هكذا العطية. لأن الحكم من واحد للدينونة. وأما الهبة فمن جرى خطايا كثيرة للتبرير" ع١٦
- "لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد فبالأولى كثيرا الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح" ع١٧
- "كما بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة" ع١٨
- "كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة هكذا أيضا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارا" ع١٩

كان آدم "مثال الآتي" رو٥:١٤؛ أي مثال (type / pattern / figure) يشير إلى المسيح. في الجزء رو٥:١٢-١٩ يشرح بولس بتدقيق أن آدم كان يشير للمسيح في أن كُلا منهما رأس لآخرين ونائب عنهم، وما فعله الواحد (وإن كان الفعل يختلف تماما) يشترك فيه وفي نتيجته من هم في اتحاد به. في نفس الوقت يشرح الرسول الاختلاف بين آدم وفعله المشين الذي أودى بنا جميعا للموت من ناحية، وبين المسيح وطاعته وبره وما يتمتع به من هم في اتحاد به من فيض النعمة وعطية البر. فإذا رفضنا نيابة آدم، كيف نقبل نيابة المسيح عنا؟

__ثانيا:__ هناك اعتراض آخر يقول أنه إذا كنا نولد بطبيعة خاطئة فكيف نكون مسئولين عما نفعل، ولماذا نحاسب؟ يمكن الرد على ذلك بناء على ما سبق، فالله لم يخلقنا بضعف روحي، وعندما طلب الطاعة من آدم كانت عنده المقدرة على أن يطيع، كما أن الله حذره من نتيجة العصيان. لكن آدم أخطأ، وفي آدم أخطأ الجميع، وما أصابنا هو نتيجة وعقاب تلك الخطية الأولى، عقاب الله على جنس بشري احتقر سلطانه وتمرّد عليه. وإن كنا عاجزين عن أن نوفي مطالب الله العادلة فهذا لأننا أخطأنا في آدم، "ليس أن آدم أكل الحصرم وضرست أسناننا، لكن التعليم الكتابي هو أننا في آدم أكلنا الحصرم جميعا ولذلك تضرس أسناننا"[٤٨].

إذا كنا نعرف أننا خطاة عاجزين عن أن نفعل أي شيء بالنسبة لخلاصنا، أليس الأولى أن نعترف بعجزنا ونطلب المعونة من الطبيب الأعظم ليخلصنا ويحررنا؟ إنه واجبنا البشري أن نطلب المعونة، ونتجاوب مع عمل نعمة الله. (سنتحدث عن مسئولية الإنسان لاحقا).

__ثالثا:__ الاختيار وعدالة الله. العدل يقضي بأن النفس التي تخطئ هى تموت. جميعنا مذنبون، نستحق قصاص الله العادل، ولا أحد منا يستحق الرحمة؛ وليس من حق أي واحد أن يطالب بها (نطلب الرحمة لكن لا نطالب بها كحق لنا). فإذا وقع عدل الله علينا جميعا فليس الله بظالم، وإذا أنعم على البعض بالخلاص فليس هناك أيضا ظلم في ذلك، بل رحمة ونعمة من الله للبعض، وما يأخذه البعض الآخر هو العدل. النعمة ليس فيها

اضطرار أو التزام وإلا فلا تكون نعمة. لكن هذه النعمة لا تنقص من عدل الله بالنسبة للمنعم عليهم، لأن الغفران يقوم على عمل المسيح الكفاري وإيفاء العدل الإلهي بالنسبة للخطية.

يوضح المثل الذي قاله الرب في مت٢٠:١-١٦ أن الله له مطلق الحرية أن يدعو من يشاء ويهبهم ما يشاء. عندما تذمر الذين عملوا طول النهار على رب البيت لأنه ساواهم بمن عملوا ساعة واحدة، أجابهم رب البيت: "يا صاحب ما ظلمتك. أما اتفقت معي على دينار. فخذ الذي لك واذهب. فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بما لي" ع١٣-١٥. لقد احترم رب البيت اتفاقه مع الفعلة الأولين تماما. لم يظلم أحدا. لكنه في الوقت ذاته أظهر كرما ورحمة نحو الآخرين وأعطاهم أجر نهار كامل. الله له الحق أن ينعم على من يشاء بما يشاء، وليس من حقنا أن نعترض أو نتذمر، فهو الله والكل ملكه وله، وهو "لا يظلم" أحدا في كل ما يفعل. إن الله في رحمته يحتمل بأناة كثيرة شر المعاندين ولا يوقع العقاب في الحال، وما يجب على كل إنسان أن يعتبره هو مسئوليته أن يتوب ويرجع إلى الله.

يعتقد البعض أن عقيدة سبق التعيين تفيد أنه كما يعمل الله في مختاريه ليأتي بهم للخلاص ويعطيهم حياة أبدية فإنه يتدخل بطريقة فعالة لمنع البعض من الإيمان لأنهم مرذلون، وترتكز هذه الفكرة على قول الكتاب "قسى الرب قلب فرعون"، وما أشبه. هذا الفكر مرفوض من أساسه إذ أنه يجعل الله فعالا في الشر (عدم الإيمان)، ثم يعاقب الإنسان على ما فعله، وحاشا!

يرينا الكتاب في الأصحاح الأول من رومية أنه عندما يرفض الإنسان معرفة الله تكون النتيجة أن الله يسلمهم إلى حماقتهم وطرقهم الشريرة كجزء من عقاب الله لهم. وفي خروج ٩ نقرأ أن فرعون قسى قلبه ورفض كلام الإله الحي وعاند في ست ضربات، ثم قال الرب لموسى أن يُبلِغ فرعون بالقول "لو كنت أمد يدي وأضربك وشعبك بالوبأ لكنت تباد من الأرض. ولكن لأجل هذا أقمتك لكي أريك قوتي ولكي يخبر باسمي في كل الأرض. أنت معاند بعد لشعبي حتى لا تطلقه" خر٩:١٦-١٧. تفيد كلمة "أقمتك" في هذا السياق أن الرب لم يفنه بل تركه يعيش[٤٩]، والغاية من ذلك أن يظهر الله مجده عندما يخلص شعبه من قساوة فرعون وتَجبّره. إن صحوة الضمير هي نعمة من الله، وعندما يتكرر العناد ويصرّ الإنسان على الخطأ ضد الله يتبلد ضميره ويقسو قلبه. وإذ يذكر الكتاب أن الله قسّى قلب فرعون فهذا معناه أنه تركه لعمل الشر الذي يبغيه ولم يغيّر قلبه بنعمته. لقد كان قضاء الله أن يُترك فرعون لقساوته ضد خالقه ولا يمنّ عليه بالرحمة، "إنه يرحم من يشاء ويقسي من يشاء".

الخلاصة هي أن البعض يحظون بنعمة لا يستحقونها، إذ يعمل الله بفاعلية في المختارين ويجذبهم إليه؛ أما الآخرون فلا يمنّ الله عليهم بهذه النعمة، بل يتركهم لشرهم وبُعدهم عنه؛ وهم ينالون استحقاقهم العادل؛ وهذا أيضا تحت سيادته.

أخيرا لا نفكر أننا أكثر عدلا من الله، فالله عادل وليس فيه أي ظلم، بل إنه هو مقياس العدل ذاته. لن يقول أحد في النهاية إن ما تم ليس عدلا. فمن سيتعرض للقصاص سيأخذ جزاء عادلا وسيستد كل فم. إن العجب وكل العجب ليس في أن البعض ينالون جزاء عادلا لكن أن البعض يرحمون من الجزاء العادل، وأن المسيح تحمل العقاب على الصليب بدلا عنهم. لكن إذا كان مطلبنا أن جميع البشر يأخذون جزاء استحقاقهم العادل فسنهلك جميعا، ولو أراد الإنسان أن يعتمد إيمانه بالمسيح على حرية إرادته بدون تدخل من الله بنعمته لما خلص أحد. ليس من اللائق أن نحاول إملاء حدود على الله بالنسبة لسيادته في خلاصنا. إن الله ليس السبب في خطيتنا وحالتنا الساقطة، إنما هو الذي قدم فداءً بنعمته، وبيّن محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا.

إنّ إدراكنا لنعمة الله يملأ القلب خشوعا ورهبة ودهشة، فقد اختارنا الله ليس لأي شيء فينا، وجعلنا موضوع محبته، وأحيانا مع المسيح، وبررنا أمامه، بل وجعلنا أبناء له لنتمتع بالقرب منه، وسيحفظنا إلى يوم مجيئه بلا عثرة، ليكون الكل لمدح مجده.

التفاصيل السابقة من شأنها أن تساعدنا على إدراك تعاليم الكتاب وتقدير نعمة الله والخضوع لسيادته. لكن من الناحية العملية فالمطلوب منا أن نقوم بواجبنا ونتجاوب مع كل ما يطلبه الله منا في كلمته المقدسة؛ وينبغي عدم اتخاذ سيادة الله أو أي عقيدة أخرى ذريعة للتخاذل. هذا ينقلنا إلى النقطة التالية:

٣. مسئولية الإنسان

يتعامل الله مع البشر بطريقة تتناسب معهم كأناس عاقلين مسئولين، فيدعو الإنسان للتوبة والإيمان والاجتهاد والثبات، بدون أن يتخلى الله عن سيادته. وكما رأينا في التطبيقات السابقة كذلك هنا أيضا، نحن لا نستطيع أن نفهم بالكامل العلاقة بين مسئولية البشر وسيادة الله. لكن عندما نكون أمام أمر يتعلق بمسئوليتنا يجب أن لا نتخاذل أو نتواكل بل نقوم به على محمل الجد بدون أن نشغل أنفسنا بقضاء الله.

كتب جون ستوت: "يعاملنا الكتاب المقدس بصورة ثابتة كأشخاص مسئولين أخلاقيا. ويضع علينا ضرورة الاختيار، فإما أن نختار "الحياة والخير أو الموت والشر"، "الله الحي أو الأصنام"، وهو يحضنا على الطاعة ويحتجّ علينا عندما نعصي. وقد ناشد يسوع أورشليم المتمردة لتعترف به وتقبله. وقال، مخاطبا المدينة، "كم مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، فلم تريدوا" مت٢٣:٣٧. وهكذا عزا عمى أورشليم الروحي، وارتدادها، ودينونتها الآتية، إلى عنادها"[٥٠].

أذكر هنا بعض دوائر مسئولية الإنسان الخاصة بالخلاص:

أ. موقف الإنسان من خبر الإنجيل

تُقدَّم الدعوة للتوبة والإيمان للجميع، وعلى الإنسان مسئولية الاستجابة لهذه الدعوة؛ وما يلي أمثلة على ذلك. الرب يدعو: "التفتوا إليّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض" إش٤٥:٢٢. وحثّ بطرس الجموع في عظته يوم الخمسين: "توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" أع٢:٣٨. كذلك عندما سأل حافظ السجن في فيلبي بولس وسيلا "ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص؟" قالا "آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك" أع١٦:٣١.

كل إنسان مسئول أن يسمع ويتجاوب مع الكلمة المقدسة بالرجوع إلى الله بالتوبة والإيمان في شخص المسيح ليخلص من الغضب ويتمتع بالغفران والحرية والشركة مع الله.

كتب شخص مقالة على الإنترنت معلقا على الآية الأخيرة السابقة، ومعترضا على التعليم الإنجيلي، بالقول أنه لو كان ذلك التعليم يتفق مع الكتاب المقدس لقال بولس للسجان: "عليك أن لا تفعل شيئا، فأنت ميت في الخطية، والميت لا يستطيع أن يفعل شيئا، وإن لم يجددك الله فأنت ستهلك!" في الواقع هذا تشويه للتعليم الإنجيلي بالنسبة للتطبيق؛ فقد رأينا أنه لكي نلتزم بالكتاب لا بد أن نقبل - في آن واحد - سيادة الله وكذا تعامله في الزمان مع الإنسان بإعطائه مسئولية وواجبات يقوم بها. ويجب على الإنسان أن يتجاوب مع الرسالة التي يسمعها ويتفاعل مع الكلمة بالتوبة والإيمان، في اتضاع واتكال على روح الله القدوس. "اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم" عب٤:٧.

ب. المثابرة في الحياة المسيحية

يجب على كل مؤمن أن يمارس وسائط النعمة - مثل دراسة الكلمة والصلاة والشركة مع المؤمنين – بهدف النمو والجهاد الروحي والمثابرة في الحياة المسيحية. وبينما نفعل هذا ينبغي أن نتجنب نقيضين: فمن ناحية لا يصح أن نقلل من عمل المسيح الكامل ونظن أننا بالجهاد الروحي نضيف شيئا يساهم في قبولنا لدى الله، أو أننا بمجهودنا وحده نستطيع أن نثبت للنهاية. من الناحية الأخرى يجب ألا نستخف بالنعمة. إذا كنا نحسب أنفسنا مؤمنين لكننا نحيا ونسلك كخطاة، ولا يوجد فرق بيننا وبين أهل العالم، فيجب أن ننتبه ونتحذر. عندما يخاطبنا الله في الكلمة المقدسة من جهة واجبنا ومسئوليتنا فهو يعطينا وصايا وارشادات وتحذيرات؛ وما يلي أمثلة على ذلك:

- "فقط عيشوا كما يحقّ لإنجيل المسيح حتى إذا جئت ورأيتكم أو كنت غائبا أسمع أموركم أنكم تثبتون في روح واحد مجاهدين معا بنفس واحدة لإيمان الإنجيل" في١:٢٧.
- "فإن كنتم قد مُتّم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض. لأنكم قد مُتّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله" كو٣:١-٣.
- "انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم إيمان في الارتداد عن الله الحي. بل عظوا أنفسكم كل يوم ما دام الوقت يدعى اليوم لكي لا يُقسَّى أحد منكم بغرور الخطية. لأننا قد صرنا شركاء المسيح إن تمسكنا ببداءة الثقة ثابتة إلى النهاية" عب٣:١٢-١٤.

- "اتبعوا السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب، ملاحظين لئلا يخيب أحد من نعمة الله. لئلا يطلع أصل مرارة ويصنع انزعاجا فيتنجس به كثيرون" عب١٢:١٤-١٥

تعلمنا الكلمة المقدسة أن حفظ الله لمختاريه حقيقة لا جدال فيها، لكن هذه الحقيقة لا تُعطى بانفصال عن مسئوليتنا في الإيمان والمثابرة في الحياة الروحية. كذلك فالإيقان باختيار الله وثبات المؤمنين لا يجعل التحذيرات التي يوجهها لنا الله افتراضية؛ ويجب علينا أن نفحص أنفسنا ونتجاوب مع الكلمة بالإيمان والثبات. إننا بالإيمان والجهاد والمثابرة نبيّن أننا مقدرين للنعمة والثمن الذي دفع لفدائنا، وأن إيماننا إيمان حقيقي ومثمر. "لأنكم قد اشتريتم بثمن فمجدوا الله في أجسادكم وأرواحكم التي هي لله" ١كو٦:٢٠.

لقد أعطانا الرب مواعيد بالحفظ، وكذلك تحذيرات من السقوط والضعف الروحي. وعلينا أن نتدرب على تمييز الوقت الذي نحتاج فيه أن ننظر إلى المواعيد ونتخذ منها ملجأ للراحة والطمأنينة، والوقت الذي فيه يجب أن نراعي التحذيرات، ونعمل ما يلزم في ضوئها. قد نخشى ألا نكمل مسيرتنا حسنا، فيملأ الخوف قلوبنا وننزعج. في مثل هذه الأوقات سنجد في مواعيد الله بالحفظ بلسما مريحا، وبها نتشجع ونتقوى. أما إذا كنا غير مقدرين لجسامة الخطية، وغير مهتمين بحياة التقوى، فيجب أن نتحذر.

ت. الكرازة

أمر الرب يسوع تلاميذه أن يذهبوا إلى العالم أجمع ويكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها[٥١]، بذلك تكون الكرازة ضرورية بل ومسئولية على الكنيسة لأنها أمر الرب. بيّن الرسول بولس أيضا أهمية الكرازة بقوله "كيف يدعون بمن لم يؤمنوا به. وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به. وكيف يسمعون بلا كارز" رو١٠:١٤، واعتبرها ضرورة موضوعة على عاتقه إذ قال: "لأنه إن كنت أبشر فليس لي فخر إذ الضرورة موضوعة عليّ. فويل لي إن كنت لا أبشر" ١كو٩:١٦. كذلك يحثنا الرسول بطرس أن نكون مستعدين دائما لمجاوبة كل من يسألنا عن سبب الرجاء الذي فينا بوداعة وخوف[٥٢]. وكلما كانت نعمة الله تأسرنا ومحبته تدهشنا كلما أصبح تخبير الآخرين عن صنيع الرب ورحمته بنا أمرا ملحا.

يجب أن نعتمد في الكرازة على الله وليس على حكمتنا أو قدرتنا على الإقناع. لا نستطيع نحن أن نغيّر الخطاة، لكننا أداة يستخدمها الله، وهو يفعّل ما أعطانا من قدرات في تحقيق العمل. الله هو الذي يُحيي، والنتيجة النهائية في العمل الكرازي تعتمد عليه. الإيقان بسيادة الله يساعدنا ألا نفشل ونحن نكرز للآخرين، إذ أن عمل الله لا يعتمد على بلاغتنا، ولا يعرقله مدى الضعف الروحي الذي يصل إليه الإنسان الخاطيء، فالله قادر على تغيير أقسى الخطاة. كذلك تشجعنا الثقة في سيادة الرب على الصلاة بدون تراخ من أجل البعيدين حتى يفتح الرب الأعين المغلقة ويغيّر القلب الحجري ويقيم الخطاة من موتهم الروحي.

٤. <u>التطبيق الكتابي</u>

سيادة الله في الخلاص ومسئولية الإنسان الشخصية يذكران كلاهما في الكتاب المقدس، وأحيانا في نفس الآية مثل قول الرب يسوع "كل ما يعطيني الآب فإليّ يقبل ومن يقبل إليّ لا أخرجه خارجا" يو٦:٣٧. أحيانا نركّز على الجزء الأخير فقط ونتجاهل الجزء الأول؛ وليس هناك خطأ في استخدام الجزء الخاص بمسئولية الإنسان عندما ندعو أحدا ليقبل إلى المسيح. لكن لا نستطيع أن نسقط الحقيقة أن كل ما أعطاه الآب لابنه فإليه يُقبل[٥٣].

كذلك في الآية "وأما نحن فينبغي لنا أن نشكر الله كل حين لأجلكم أيها الإخوة المحبوبون من الرب أن الله اختاركم من البدء للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق" ٢تس٢:١٣، يقدم الرسول بولس الشكر لله لاختياره المؤمنين في كنيسة تسالونيكي وتقديس الروح لهم، وهذا هو الجانب الإلهي، ثم يذكر التجاوب البشري من ناحية التسالونيكيين وهو تصديق الحق.

من الناحية السلبية، خاطب الرب اليهود في إنجيل يوحنا قائلا "لا تريدون أن تأتوا إليّ" يو٥:٤٠، وقال الرب أيضا "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب" يو٦:٤٤. يعلق جون ستوت على هاتين الآيتين بالقول "لماذا لا يأتي الناس إلى المسيح؟ هل لأنهم لا يقدرون؟ أم لأنهم لا يريدون؟ لقد علّم يسوع كلا الأمرين. وفي التعبيرين "لا يقدر" و"لا يريد" يكمن الجمع بين الحقيقتين الراسختين: السيادة الإلهية والمسئولية البشرية، وإن ظهرتا كأنهما متناقضتان. ولكن مهما كانت الطريقة التي نعبر بها عن ذلك، فلا يجوز أن نحذف أيّا من الأمرين"[٥٤].

كذلك يؤكد الكتاب المقدس حفظ الله لمختاريه، كما يدعوهم للاجتهاد والمثابرة في الحياة المسيحية. من الناحية الإلهية، الله قادر أن يحفظنا غير عاثرين ويوقفنا أمام مجده بلا عيب في الابتهاج، وهو يكملنا ويثبتنا ويقوينا ويمكننا[٥٥]. ومن الناحية البشرية يقول "اجتهدوا لتوجدوا عنده بلا دنس ولا عيب في سلام .. احترسوا من أن تنقادوا بضلال الأردياء، فتسقطوا من ثباتكم. ولكن انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح. له المجد الآن وإلى يوم الدهر أمين" ٢بط٣:١٤، ١٧-١٨.

أيضا نجد الجمع بين سيادة الله ومسئولية الإنسان في الآيات:

"إذا يا أحبائي كما أطعتم كل حين ليس كما في حضوري فقط بل الآن بالأولى جدا في غيابي تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" في٢:١٢-١٣.

هنا يذكّر الرسول أهل فيلبي بطاعتهم في الماضي، ويحثهم على أن يقوموا بمسئوليتهم في الحاضر ويهتموا بنموهم الروحي، مبدين بذلك تقديرهم لعمل الخلاص، ومن ثم يتممونه بخوف ورعدة. لكن عندما يقوم الإنسان بمسئوليته فإنه يتجاوب مع عمل الله الداخلي في القلب، إذ يؤثر الله عليه بنفوذه ويجعله يريد أن يعمل الصالح.

إذن حيث أن الكتاب يعلمنا كُلاً من "سيادة الله" و"مسئولية الإنسان" فيجب أن نقبلهما معا. فإذا لم نفهم كيف يمكن أن يكون الإنسان مسئولا في تصرفاته بينما هناك معينون للحياة الأبدية، يجب ألا يصل بنا هذا إلى النتيجة أن الله لا يعيّن أو أن الإنسان غير مسئول، لكن علينا أن ندرب عقولنا على قبول الحقيقتين معا، ونبحث عن التطبيق لكل منهما في النطاق الكتابي. هذا ليس هروبا ولكنه الحق الواجب.

لكي نطبق التعليم عن سيادة الله في الخلاص بطريقة صحيحة علينا أن نراعي كيفية التطبيق في الكتاب المقدس؛ وهنا نستبعد نقيضين في موضوع الاختيار:

١. التسليم بالاختيار بطريقة تجرد الإنسان من كل مسئولية. هذا الفكر لا يتفق مع الكتاب المقدس الذي يعلمنا أن الله العلي ليس بعيدا عنا بل يتفاعل معنا كأشخاص عاقلين مسئولين، وهو يتمم مقاصده بطرق تتناسب مع الإنسان كشخص وليس كآلة، وعلى الإنسان أن يقوم بمسئوليته الكاملة دون تهرّب. لا ينفع أن يعيش غير المؤمن حياته متجاهلا الله وغير متجاوب مع رسالة الإنجيل معولا على أنه إذا كان مختارا فسيأتي الله به للإيمان. هذا بالطبع تفكير خاطيء يظهر عدم فهم لكلمة الله، ولا يوجد مثل هذا التطبيق فيها. الواجب على الإنسان لو كان بعيدا هو أن يرجع إلى الله بالإيمان والتوبة.

٢. النقيض الآخر يعطي الإنسان الكلمة الأخيرة في خلاصه، ويستند أصحاب هذا الفكر على جزءين في الكتاب المقدس، هما:

- "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معا للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده. لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرا بين إخوة كثيرين. والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضا. والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضا. والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضا" رو٨:٢٨-٣٠.
- "بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتغربين .. المختارين بمقتضى علم الله السابق في تقديس الروح للطاعة ورش دم يسوع المسيح" ١بط١:١-٢.

بناء على الآيات السابقة وما جاء فيها عن معرفة الله وعلمه السابق يقول البعض أن الله عرف سابقا من هم الذين سيأتون إليه بالإيمان ومن ثم اختارهم للخلاص. في الواقع هذا التعليل يرفض الاختيار بمعناه الطبيعي، وهو غير مقبول للأسباب الآتية:

أولا، لا يمكن أن نقول بالدليل القاطع أن تعبير "الذين سبق فعرفهم" في رومية ٨ يعني علم الله بمن سيؤمنون من محض إرادتهم. في الواقع هذا الاستنتاج قليل الاحتمال لأن كلمة "عرفهم" ترد كثيرا في الكتاب عن المحبة والمعرفة الحميمة، وليس عن معرفة "أمر" عن شخص؛ كما أنها تفيد التخصيص والاختيار في بعض الآيات[٥٦]. استُعمِل تعبير "معروفا سابقا قبل تأسيس العالم" في ١بط١:١٩-٢٠ عن عمل المسيح الفدائي ليس كأمر عرف الله عنه بل أنه في مشورة الله وقصده الأزلي قبل تأسيس العالم.

بدون شك أن الله في سيادته يرى كل شيء ويعرف من هم الذين يؤمنون، لكن هذا لا ينفي أن الله هو الذي يعطيهم الإيمان.

بالإضافة إلى ما سبق، ترتبط العبارة "لأن الذين سبق فعرفهم" بالقول "الذين هم مدعوون حسب قصده"، وهنا نجد وضوحا عن أن دعوة الله ليست مبنية على أي شيء في الإنسان بل "بحسب قصده"، فكيف نفهم شيئا مخالفا في نفس السياق ليرجع الأمر للإنسان؟ كذلك فإن كان الله يبرر الذين دعاهم فلا بد أن هذه الدعوة هي دعوة فعالة يكون نتيجتها الإيمان الذي به يتبرر الإنسان، وإلا فيصعب فهم الجزء كله. يقول أحد علماء الكتاب: "إذا كان كل من يدعوهم الله داخليا يبررون، وكل من سبق الله فعينهم يدعون داخليا، فما يتبع ذلك هو أن سبق معرفة الله يشمل أكثر من مجرد أن الله كان على علم سابق بقرار الإنسان الحر الذي يتخذه. بالتأكيد إن الله يعرف منذ الأزل من سيتجاوب مع خبر الإنجيل ومن لن يتجاوب، لكن مثل هذه المعرفة ليست مجرد ما يراه متفرج غير فعال. الله يعلم منذ الأزل من سيدعوه داخليا. وكل الذين يدعوهم داخليا هؤلاء يبررهم أيضا"[٥٧].

من ناحية أخرى، لم يرد في الكتاب إطلاقا أن الإيمان هو الأساس الذي بني عليه الاختيار، وإنما نجد مرارا وتكرارا أن الاختيار هو بحسب قصد الله ومشيئته ونعمته، مما يؤكد سيادة الله في الاختيار.

أخيرا، فإن علم الله السابق وقضائه يرتبطان ببعض، "فالقضاء السابق يجعل الحوادث محققة الوقوع والعلم السابق يراها محققة الوقوع وهو مبني على القضاء السابق فيعلم الله الحوادث لأنه قضى حدوثها"[٥٨]. إن كلاهما فيه تأكيد للأحداث تحت سيادة الله؛ وإذا كان الإيمان متروكا للإنسان بحرية مطلقة عندئذ لا يمكن تأكيد حدوثه، وبالتالي لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم الله أو تعيينه أو اختياره. وإذا سلمنا بأن الإيمان متروك للإنسان بحرية تامة بعيدا عن قضاء الله فهذا سينتهي بنا إلى أن الأمور تعتمد على الإنسان وتخرج عن سيادة الله، وهذا غير مقبول. كذلك فإني أرى أن التعليل السابق يحافظ على استخدام كلمات الكتاب من الاختيار وسبق التعيين، لكنه يسلبها المعنى الطبيعي؛ فإذا أمعنا التفكير في هذا التفسير نجد في واقعه أن الله لم يختر أحدا ولم يعين أحدا وإنما من يؤمنون بذواتهم هم المخلصون.

كيف إذن نستفيد من التعليم عن سيادة الله في الخلاص، وكيف نطبّق عمليا؟

أولا: تطبيقات تتعلق بعبادتنا واتجاهاتنا وسلوكنا:

١. مدح عمل النعمة وتمجيد الله: في بداية الرسالة إلى أهل أفسس يقدم الرسول بولس التمجيد لله قائلا: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح" أف١:٣. بعد ذلك يعدد الرسول بركات الفداء وفي مقدمتها الاختيار، ويوضح أن الله يمنح هذه البركات لنا من فيض نعمته، ليكون الكل "لمدح مجده". لولا نعمة الله لما عرفناه، أو بالحري عُرفنا منه. حقا "ما أعجب هذه النعمة!" عندما نتفكر في البركات التي باركنا الله بها في المسيح ونحفظها في قلوبنا وعقولنا، تمتلىء نفوسنا فرحا وعرفانا وتتغنى شفاهنا تسبيحا وتمجيدا من أجل اختياره لنا وسيادته في خلاصنا[٥٩].

٢. الاتضاع أمام الله: السؤال المحير بالنسبة للمؤمن هو: "لماذا أنا؟ لماذا أغدق الرب عليّ بنعمته؟!" إن العرفان بنعمة الله ورحمته في خلاصنا يجعلنا نخرّ ونسجد أمام هذه المحبة المتفاضلة. إننا نخلص بالنعمة، ولا يوجد أي مجال للافتخار، "ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" أف٢:٩. يقول الرسول أيضا لأهل كورنثوس "لأنه من يميزك. وأي شيء لك لم تأخذه. وإن كنت أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ" ١كو٤:٧. إذن من افتخر فليفتخر بالرب.

٣. الحياة المقدسة المثمرة: لا تشجع عقيدة الاختيار على الخطية إطلاقا، وإنما إذا فهمناها فهما صحيحا نعرف أن الله اختارنا للقداسة؛ اختارنا في المسيح "لنكون قديسين" وبلا لوم قدامه في المحبة. ومن يقدّر نعمة الاختيار لا يعتبر أن المختارين عندهم الحرية ليعيشوا في الخطية كيفما شاءوا، بل في الاختيار واعز للسلوك في البر والقداسة. الاختيار يؤدّي للحياة المثمرة لمجد الله. قال الرب يسوع للتلاميذ: "ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم" يو١٥:١٦.

٤. الأمان والاطمئنان: إن كان خلاصنا ماضيا وحاضرا ومستقبلا يرتكز على سيادة الله وقدرته، فذلك يجعلنا في اطمئنان وسلام إذ لا يستطيع أحد أن يفصلنا عن محبة الله أو يخطفنا من يد الراعي العظيم.

ثانيا: كيف أعرف إذا كنتُ مختارا؟ وكيف أتأكد من خلاصي؟

أحيانا يعبّر البعض عن الارتباك بالنسبة لأمر خلاصهم بالسؤال "كيف أعرف إذا كنتُ مختارا؟"

لا يستطيع أحد أن يحكم على غيره من جهة الاختيار، فلا أحد يعرف القلب وخباياه إلا الله، لكن يشجعنا الكتاب أن نتيقن من جهة خلاصنا: "كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله" ١يو٥:١٣. هذا اليقين يرتكز على ثقتنا في الله وفي مواعيده وليس على أنفسنا. الإيمان بالابن يحسم الأمر بالنسبة لحكم الله على الإنسان "الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد" يو٣:١٨. إن كنا نؤمن بالمسيح وبعمله الفدائي إيمانا حيا مثمرا، فلنتأكد أن سر إيماننا يكمن في اختيار الله، ونستطيع أن نقول مع الرسول بولس "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة" أف١:٣-٤.

من الناحية الأخرى، لا يمكن الحكم على غير المؤمن بأنه ليس مختارا، فقد يأتي هذا الشخص للمسيح بالإيمان قبل نهاية حياته؛ المسئولية عليه أن يتوب ويؤمن، والمسئولية على المؤمنين حوله هي الصلاة من أجله والكرازة له.

لا يتعارض التأكد من الخلاص مع مسئوليتنا في الجهاد الروحي. بعد أن تحدث الرسول بطرس في الأصحاح الأول من رسالته الثانية عن سيادة الله في دعوته ومواعيده يحث قارئيه على الاجتهاد في القيام بمسئوليتهم للنمو في نواح مختلفة، مظهرين ثمر الروح في حياتهم، فيقول "وأنتم باذلون كل اجتهاد قدموا في إيمانكم فضيلة وفي الفضيلة معرفة وفي المعرفة تعففا وفي التعفف صبرا وفي الصبر تقوى وفي التقوى مودة أخوية وفي المودة الأخوية محبة" ٢بط١:٥. في نفس السياق يقول الرسول "لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الإخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين". معنى هذا أن الحياة المجاهدة والمثمرة تجعلنا نتأكد من الدعوة والاختيار. واجبنا هو أن نقوم بمسئوليتنا ويكون نهج حياتنا أن نعيش ونثمر للسيد، وإذا فعلنا هذا لن نزل أبدا، بل في نهاية غربتنا نقابَل بترحيب كبير عند الدخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي.

إلى جانب ما سبق، يشهد الروح القدس لأرواحنا شهادة داخلية أننا أولاد الله؛ "الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله" رو٨:١٦. إن الروح يسكن فينا، وبه نتقدم إلى الله بحرية الأبناء لا خوف العبيد، وبالروح ندعو الله "أبانا". يستخدم الروح القدس الكلمة المقدسة عند قراءتنا لها، أو باستحضارها لأذهاننا، ليؤكد لنا أننا أولاد الله. وكلما قرأناها ودرسناها وتلذذنا بها تزداد ثقتنا في أمر خلاصنا.

كذلك فالآب الذي اتخذ المؤمنين أبناء له بنعمته ليس من المعقول أن يرفضهم على أساس أعمالهم، بل وإن كنا أبناء فإننا ورثة أيضا، ورثة الله ووارثون مع المسيح. هذا أمر ثابت لا يتغيّر. والروح القدس هو عربون وباكورة هذا الميراث السماوي الذي سنتمتع به عند اكتمال الخلاص في المجد[٦٠].

قد يضعف إحساسنا باليقين نتيجة لخطية في حياتنا أو بسبب فتور روحي، وفي هذه الحالة ينبغي أن نأتي لله بالتوبة والثقة في أنه أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم؛ والآب المحب يفتح ذراعيه ويمكّن لابنه التأكد مرة أخرى من خلاصه.

مع ما قيل سابقا يجب أن نتحذر من إحساس زائف باليقين أو عدمه، وقد ينتج هذا عن سوء فهم لتعليم الكتاب، وفيما يلي بعض الأمثلة:

هناك من يظنون أن خلاص الإنسان يعتمد على أعماله. هذا قد يعطي يقينا زائفا عند البعض إذ يعتمدون على برهم الذاتي الذي لا يصلح للحصول على الخلاص. بينما يجد بعض آخر أن التأكد من أمر خلاصهم مستحيلا إذ لا يثقون في قدرتهم على إكمال مسيرتهم مع الله إلى النهاية.

من ناحية أخرى هناك من يعتقدون خطأ أن كل البشرية ستخلص في النهاية ولن يقع القصاص على أحد. مثل هذا الاعتقاد الخاطيء يعطي الإنسان أمانا مزيفا أيضا. بعض آخر يعرف تعليم الكتاب عن

الخلاص بصورة صحيحة، لكنها معرفة عقلية وليس هناك إيمان حقيقي عامل في حياة الشخص؛ قد يشعر مثل هذا الإنسان أيضا بيقين زائف.

في الحالات السابقة يستطيع الشخص أن يتمتع بيقين الحياة الأبدية بأن يأتي إلى الله بالإيمان الحقيقي المثمر في شخص المسيح وعمله الفدائي، ويثق في مواعيد الرب، ويلتزم بكل تعليم الكتاب.

ثالثا: الصلاة لأجل خلاص آخرين والكرازة لهم:

لا تتنافى الصلاة من أجل خلاص الناس مع عقيدة الاختيار. قد يتساءل أحدنا وهل تغيّر الصلاة فيما إذا كان الشخص مختارا أم لا؟ والجواب هو نفس ما ذكرته سابقا بشأن السؤال "هل تغيّر الصلاة إرادة الله؟" الاختيار هو شأن إلهي بحسب إرادة الله غير المحدود، ولا نستطيع فهم علاقته بما يحدث في الزمان، لكن علينا أن نقوم بمسئوليتنا ونصلي من أجل الآخرين ونكرز للجميع بخبر الإنجيل، ولنتأكد أن كل ما يتم في الزمان هو تحت حكم الله وفي وفاق تام مع أمور الله الأبدية.

أحيانا نرتبك بأفكار متعبة وغير مجدية بالنسبة لسيادة الله في الخلاص. هذا ما لمسته عندما قرأت مقالة عن مناظرة بين جون بايبر (John Piper) وهو قس محافظ، وتوماس تالبوت (Thomas Talbot) وهو بروفسور ليبرالي. تحدى تالبوت بايبر بالسؤال عن ما يكون رد فعله لو علم أن الله لم يختر أحد بنيه؛ ورد بايبر بالقول: "أنا لا أجهل أن الله "قد" لا يكون اختار أحد أبنائي ليكون ابنا له، وبالرغم من اعتقادي أني مستعد أن أعطي حياتي لأجل خلاص أبنائي، لكن إن خسرتهم فلن ألوم القدير. هو الله. ما أنا إلا إنسان. إن الفخاري له الحق المطلق على الطين. واجبي أن أنحني أمام شخصه الكامل وأؤمن أن ديان كل الأرض يصنع عدلا دائما وأبدا". ويقول كاتب المقالة: بالرغم من إخلاص بايبر لكن يبدو أنه سلّم بما يقوله تالبوت أن علم اللاهوت الإنجيلي يعلم أن الله قد لا يحب أولادنا مثلما نحبهم نحن[٦١].

يحاول البعض إحراج من يؤمنون بعقيدة الاختيار بمثل هذه التحديات. في الواقع ينبغي أن نعطي جوابا لكل من يسألنا؛ وإني أرى في إجابة بايبر حكمة واتضاعا والتزاما بالتعليم الكتابي عن سيادة الله في الخلاص. لكن السؤال نفسه وكذا تعليق كاتب المقالة ينمان عن توجيه الفكر إلى تطبيق غير مناسب للتعليم الكتابي. فالدعوة لنا هي أن نقوم بواجبنا ومسئوليتنا؛ فإذا ابتعد ابني أو ابنتي عن المسيح، فليس المطلوب أن أجلس وأفكر هل ابني مختار أم لا؟ لا يوجد مثل هذا التطبيق في الكتاب. لكن لأن الله هو الذي يحيي ويجتذب ويفتح الأعين المغلقة فواجبنا هو أن نطلب منه لأجل أبنائنا بلجاجة وباستمرار ولا نفشل. كذلك علينا أن نعمل كل ما يناسب من تواصل وتوجيه، ونجاهد بأصوام ودموع وطلبات كما فعلت مونيكا تجاه ابنها أغسطينوس؛ ولنتيقن أن الله يسمع ويستجيب. من الأفضل أن نقوم بدورنا ولا نتصور أن محبة الله قد تكون أقل من محبتنا نحن لهم!

ينطبق ما سبق على كل من نكرز لهم أيضا، فيجب أن لا نشغل أذهاننا بما إذا كان الشخص مختارا أم لا، بل علينا أن نقدم رسالة الإنجيل للعالم أجمع، ونصلي بكل اهتمام من أجل من نكلمهم ليعمل الله في قلوبهم. ليس هناك تعارض بين سيادة الله في الخلاص والكرازة، بل على العكس فالكرازة بالإنجيل هي وسيلة أساسية يستخدمها الله ليأتي بمختاريه إليه. كانت كرازة الرسول بولس في كورنثوس أداة استخدمها الله ليأتي بشعبه إليه، وكان وعد الرب له أن يكون معه في العمل الكرازي؛ "فقال الرب لبولس برؤيا في الليل: "لا تخف بل تكلم ولا تسكت، لأني أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك، لأن لي شعبا كثيرا في هذه المدينة"" أع١٨:٩-١٠. مما يشجعنا نحن أيضا أن الإرسالية العظمى هي من الرب يسوع صاحب السلطان والسيادة، ويصاحبها الوعد بأنه معنا:

> "فتقدم يسوع وكلمهم قائلا. دُفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس. وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. آمين" مت٢٨:١٨-٢٠.

ينبغي أن لا نكون سلبيين فنمتنع عن الكرازة بفكرة أنه إذا كان الشخص مختارا فسيدعوه الرب ويجذبه إليه؛ بالحري يجب أن يكون تفكيرنا تجاه كل واحد هو: ربما هذا الشخص من المختارين ويريد الرب أن يستخدمني لجذبه للمسيح. هذه الأمور تحتاج إلى تدريب العقل ليلتزم بالتطبيق كما نجده في الكتاب.

رابعا: موضوع الكرازة هو إنجيل المسيح وليس الاختيار:

لا يعلمنا الكتاب أن نذهب ونخبر الناس عن الاختيار، فموضوع الكرازة هو الخبر السار، خبر الإنجيل؛ إننا نكرز بيسوع المسيح مصلوبا محققا الفداء بموته وقيامته، وعلينا أن ندعو الناس للتوبة والإيمان بالرب يسوع المسيح. هذه هي مسئوليتنا في الكرازة، ومسئولية الخاطيء هي أن يتوب ويعترف بخطاياه ويؤمن بالرب يسوع. وعندما نكرز بالإنجيل يجب أن يُعرّف الشخص أنه مسئول عن قراره؛ هذا من جهتنا نحن البشر. أما موضوع الاختيار فهو تعليم للمؤمنين - أخبر الرب تلاميذه به، وتحدث الرسول عنه إلى مختاري الله، وله تطبيقاته كما ذكرنا.

في كل التطبيقات السابق ذكرها، لنتذكر الاختلاف بيننا وبين الله، فنحن نفكر في توالٍ، وهذا له علاقة بعدم استيعابنا للأمور الأبدية، لكن علينا أن نقوم بواجبنا ونطبق كما يملي الكتاب.

٥. كلمة من الواقع عن سيادة الله في الخلاص:

كانت المسائل السابق ذكرها مجال خلاف بين أوغسطينوس وبلاجيوس في القرن الخامس حيث نفى بلاجيوس وجود الخطية الأصلية[٦٢] واعتبر أن كل إنسان يأتي إلى العالم يولد في نفس الحالة الأدبية التي خلق عليها آدم، ويتوقف بره وصلاحه على إرادته الحرة مطلقا. ورأى بيلاجيوس أن النعمة تساعد الإنسان في سعيه للبر لكنها ليست ضرورية. كان حكم الكنيسة على بيلاجيوس أنه مهرطق.

أما أغسطينوس فقد أقر بفساد الطبيعة البشرية وعجز الإنسان الروحي وحاجته إلى نعمة الله المحررة التي تمكنه من أن يُقبل إلى المسيح بالإيمان وينال الخلاص. ويتفق كل من لوثر وكلفن مع أغسطينوس في هذا الفكر.

بعض المعلمين في الكنيسة الذين رفضوا تعليم بلاجيوس كانوا يحترمون أغسطينوس لكنهم اعتبروه متطرفا؛ وبينما أقروا بأن الإنسان ساقط وأن إرادته تأثرت بالسقوط، إلا أنهم اعتقدوا أن الإرادة ليست مستعبدة تماما، وبالتالي فالنعمة جوهرية في خلاصه وهي متاحة لكل إنسان، لكن كل واحد عنده المقدرة والحرية أن يقبل أو يرفض النعمة. ولاحقا أطلق على هذا التعليم "نصف- بلاجي"، ويتفق مع هذا الفكر الأرمينيون (نسبة إلى جاكوب أرمينيوس) وآخرون. الفكر العام عندهم هو أن الإنسان له اليد العليا في أمر خلاصه ليقبل أو يرفض، ولكن النعمة ضرورية لمساعدته.

في عصرنا الحاضر، غالبا ما يعبر الشخص عن الفكر الذي ينتمي إليه بأنه كلفيني (نسبة لكلفن وهو مماثل لفكر أغسطينوس)، أو أرميني (نصف بيلاجي). وعندما تثار مناقشة حول موضوع سيادة الله في الخلاص قد ندافع بشدة عن الفكر الأرميني أو الكلفيني، لكن ولو اختلفنا في المناقشة سنجد أننا نتفق على ركبنا، فكل مؤمن بالرب يسوع يشكر الله على نعمة تغييره وولادته الجديدة، ويقر ويعترف أن الخلاص هو عمل الله من الأول للآخر، كما أنه يبارك الله الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات؛ الذي اختارنا فيه قبل تأسيس العالم. كل مؤمن بالمسيح يستنكر أن يرجع أي فضل في خلاصه لمجهوده أو حذاقته أو إلى أي شيء يجعله أفضل من غيره، بل يُرجع كل الفضل لله. كذلك يَعزي الإنسان المؤمن حفظه في الإيمان إلى قوة الله. ليس ذلك فقط بل إننا كمؤمنين نصلي من أجل خلاص الآخرين، ونحن لا نصلي لكي يصل الله بهم إلى نقطة القرار، بل نصلي ونتضرع أن يخلصهم الرب: أن يفتح عيون أذهانهم ويليّن قلوبهم ويغير طبيعتهم ويحرك إرادتهم ليقبلوا المخلص[٦٣]. لكن إن كان الأمر يرجع في النهاية للإنسان تكون مثل هذه الصلوات بلا معنى.

كذلك عندما تُذكر الآية "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" في النقاش كدليل على سيادة الله في الخلاص، قد يقول أحد "إني أعترف بذلك، لكن أنا الذي قبلت عطية الإيمان هذه وغيري رفضها". وإذا ما سئل الشخص عن السبب الذي جعله يقبل الإيمان بينما يرفض غيره: هل لأنه أكثر اتضاعا؟ أم أفضل في التفكير؟ أو أقدر في التقييم عن غيره؟ غالبا سينفي المؤمن – مهما كان موقفه في النقاش - مثل هذه الأسباب، لأنها توجِد بابا للافتخار، وسينتهي بأن يعزي إيمانه لعمل الروح القدس في قلبه.

نشكر الله من أجل خلاص هذا مقداره، ومن أجل نعمته الفائقة التي أنعم بها علينا في المحبوب. له المجد إلى أبد الآبدين. آمين.

خاتمة

كلمة الله بها توازن جميل ينبغي أن نلتزم به بدون استقطاب حول تعليم على حساب آخر. مما لا شك فيه أن الكتاب يعلمنا الحقيقتين الثابتتين: "الله سيد" و"الإنسان مسئول". لا يوجد تناقض بين هاتين الحقيقتين، وعلينا أن نقبل كل منهما ونتعامل مع كليهما حتى مع عدم فهمنا وعدم إدراكنا الكامل لطريقة ارتباطهما معا.

الصعوبة التي نواجهها تكمن في عظمة الله واختلافه الكبير عنّا، وفي عدم قدرة الإنسان المحدود على فهم الله غير المحدود. إن الله، من منطلق اللامحدود الذي لا نستطيع نحن أن نتخيله أو نصل إليه، يحكم العالم بسيادة مطلقة، كما يتعامل مع الإنسان في محدودية الزمان ككائن أخلاقي مسئول عن تصرفاته.

قدم أحد علماء الكتاب النصيحة التالية للتعامل مع هذا الوضع (ما يظهر أنه تناقض بين نتيجتين يبدو كلاهما منطقيا ومعقولا وضروريا على حد السواء):

"أُرفض اعتبار هذا التعارض الظاهري على أنه حقيقة؛ وأَرجِع ما يظهر خارجيا على أنه تناقض للقصور في فهمك أنت؛ فكّر في المبدأين ليس كبديلين متنافسين، لكن – بطريقة لا يمكن إدراكها في الحاضر – كمكملين لبعضهما. لذلك انتبه ألا تضعهما في تنازع مستمر، ولا تستنتج من أحدهما ما يقلل من الآخر (لأن هذا يجعل تلك الاستنتاجات غير صحيحة). استعمل كل منهما في حدود نطاق مرجعيته (بمعنى المجال الذي تحدده البراهين التي منها استنتج المبدأ). راعي ما هي الروابط الموجودة بين الحقيقتين وبين نطاقي مرجعيتهما، ودرّب نفسك أن تفكر بطريقة تساهم في تواجدهما معا في سلام، متذكرا أن الواقع نفسه يثبت أنه يشمل كليهما"[١].

هذا ما يجب أن نفعله بالنسبة لسيادة الله ومسئولية الإنسان. أما إذا أكدنا سيادة الله وأهملنا مسئولية الإنسان، فنحن نتجه نحو التعليم "القدري"؛ وإذا قللنا من سلطان الله لحساب مسئولية الإنسان فإننا نهين الله ونعلي من شأن الإنسان بما لا يستحقه. وكلا الاتجاهين لا يتفق مع تعليم الكلمة المقدسة.

من أوائل العظات التي سمعتها عندما ذهبت إلى بريطانيا في منتصف السبعينات عظة بعنوان BBC. ولم يكن المقصود من هذه الحروف "هيئة الإذاعة البريطانية" British Broadcasting Corporation، لكن: "المسيحية الكتابية المتوازنة" Balanced Biblical Christianity، حيث كان الراعي يشرح من الجزء الكتابي أهمية التمسك بكل التعليم بدون استقطاب. وقد تعلمت كثيرا من راعي الكنيسة آنذاك - القس جون ستوت - عن أهمية هذا الأمر. إننا كثيرا ولأسباب متعددة نميل نحو اتجاه أكثر من آخر. وفي موضوعنا، البعض يستقطب حول سيادة الله والبعض الآخر حول مسئولية الإنسان، لكن الكتاب المقدس يعلمنا أن نتمسك بكليهما في آن واحد. قال أحد العلماء[٢] إن أجمل وجه على الأرض، وإن كان به أحلى الملامح، يصبح سريعا قبيحا وغير مُسِرّ للرؤية إذا ظل أحد الأعضاء ينمو بينما بقيت الأعضاء الأخرى غير مكتملة النمو. الجمال يعتمد على التناسق. ونحن نستطيع أن نرى الجمال والبركات في كلمة الله عندما تظهر لنا حكمة الله المتنوعة بنسبها الحقيقية؛ ومسئولية خدام الله هي أن يخبروا "بكل مشورة الله" أع٢٠:٢٧.

بينما نؤكد هاتين الحقيقتين، لا نتصور أن الله والإنسان نِدَّان متكافئان، كلٌ يعمل الجزء الخاص به. الله هو الأصل والأساس، والإنسان هو التابع ويعتمد على الله في كل شيء. والله في سيادته قضى بكل ما يحدث منذ الأزل، ويحقق بجلال فائق وقوة عظيمة قصده في العالم بحسب مسرته. وكما قضى الله بالأحداث فقد قضى بالوسائل التي يحقق بها قصده، سواء كان من خلال سيادته على الطبيعة التي تسير طبقا لقوانين وضعها الله لها، أو سيادته على الإنسان الذي يتصرف بإرادته بدون قسر. الله يعمل أيضا بطريقة مباشرة، وأحيانا يعمل بعكس ما نتوقعه من تلك الوسائل إذا رأى في حكمته أن يفعل ذلك؛ لكن هذا هو الاستثناء وليس العادي.

ومع علمنا بما سبق، يجب أن لا نشغل تفكيرنا بما قضاه الله، ولا نرهق أنفسنا بالتصور أن مسئولية تحقيق هذا القضاء تقع علينا! إن ذلك هو عمل الله وسيحققه يقينا، فلا يمكن أن تحبط مقاصد العليّ. علينا أن نركز في علاقتنا مع الله على تعامله معنا في واقع زماننا، مقدرين سموه وعظمته وتنازله في هذه العلاقة.

الله قريب منّا، ويتعامل معنا بطريقة نفهمها وتتناسب مع محدوديتنا، لنكون في علاقة شخصية مع جلاله، نعيش أمام وجهه، وننقاد بروحه، ونحيا بفرح تحت سيادته.

واجبنا هو أن نقوم بمسئوليتنا من ناحية الله والآخرين والمجتمع والعالم، متكلين على الرب في أمورنا، واثقين في صلاحه ومحبته وحكمته، وملتزمين بتطبيق المباديء الكتابية على ظروف حياتنا. كل منا له دور يقوم به، وقد وهبنا الله كل ما يلزم من قدرات وإمكانيات لنستطيع أن نفعل ذلك. نحن مسئولون عما نفعله في هذه الحياة وكيف نديرها، ليس في استقلال عن الله، لكن بمعونته وتحت سيادته. يجب أن نعي مسئوليتنا ونقوم بها بكل قوتنا وبدون تخاذل، وفي ذات الوقت من المهم أن ندرك حدود مسئوليتنا، ونترك لله ما هو اختصاصه وحده.

الإيقان بسيادة الله يشجعنا في الألم، ويحفزنا على الصلاة، ويطمئننا في طريقنا في هذه الحياة، ويعطينا الثقة بأن الرب سيصل بنا إلى البيت السماوي آمنين. كذلك فإنه يبعد عنا الإحباط والفشل، ويحررنا من الرغبة في التحكم والممارسات الملتوية للوصول إلى ما نرغب فيه. عندما نخضع لسيادة الله سنعمل ما يجب علينا ونترك الأمور بين يدي الله، وهو ينفذ مشيئته الصالحة، لمجد اسمه ولخير أولاده.

إنني إدرك أن العرض الذي قدمته لهذا الموضوع المهم والصعب والحساس، به نقصات وضعفات، لكن أرجو أن أكون بنعمة الله ساعدت ولو قليلا في توجيه الفكر والقلب نحو عظمة الله الفائقة ونعمته المتفاضلة وسيادته الحكيمة المطلقة، ليكون هذا دافعا لنا في ضعفنا للاتكال على الله وعلى قوته ونحن نقوم بدورنا في الحياة وبمسئوليتنا في التصرف، في خضوع لسيادة الله وطاعة لسلطانه وانتظار لمجيئه.

"افرحوا في كل حين. صلوا بلا انقطاع. اشكروا في كل شيء. لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم. لا تطفئوا الروح. لا تحتقروا النبوات. امتحنوا كل شيء. تمسكوا بالحسن. امتنعوا عن كل شبه شر. وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح. أمين هو الذي يدعوكم الذي سيفعل أيضا .. نعمة ربنا يسوع المسيح معكم. آمين" ١تس٥: ١٦-٢٤، ٢٨

شواهد ومراجع

الآيات المذكورة في هذا الكتاب مأخوذة من الكتاب المقدس (ترجمة فانديك)؛ دار الكتاب المقدس – القاهرة، إلا إذا ذكر غير ذلك.

في البدء

١. تك١، ٢
٢. تك١:٣١، ٢:١-٣؛ خر٣١:١٧؛ رؤ٤:١١
٣. تك٢:١٦-١٧
٤. يسمي البعض العهد مع آدم "عهد الخليقة" لأن مطلب البر من الخالق نحو خليقته ثابت. هذا المطلب أعطي لآدم في حالة البراءة لكن بعد السقوط لا يمكن للإنسان أن يوفيه بذاته لذلك يحتاج لبر المسيح.
٥. رو٥:١٢-٢١؛ ١كو١٥:٢٢
٦. ٢كو١١:٣
٧. يو٨:٤٤؛ رؤ ١٢:٩؛ ٢٠:٢
٨. ١تيمو ٥:٢١، مت ١٨:١٠، ٢٥:٣١
٩. مت٢٥:٤١؛ رؤ١٢:٧
١٠. مت٢٥:٤١؛ رؤ٢٠:١٠
١١. تك٣:١-١٩
١٢. يو١٤:٣٠؛ أف ٢:٢، ٤:١٨، ٦:١٢؛ تي١:١٥
١٣. أي١٤:٤؛ مز٥١:٥؛ يو٣:٦؛ أف٢:٣، ٤:١٧-١٨. يطلق علماء اللاهوت تعبير "الخطية الأصلية" على ما نتج عن السقوط، ويعرّفونها بأنها ليست هي الخطية الأولى – الخطية التي ارتكبها آدم وحواء – ولا هي خطية معينة، لكنها تشير إلى نتائج أول خطية فعلها آدم بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عنا، من ذنب حُسب لنا، وفساد أخلاقي عمّنا.
١٤. تك٩:٦؛ يع٣:٩
١٥. تك٣:١٧-١٩؛ رو٨:٢٠
١٦. رو٥:١٢
١٧. أع١٧:٢٦؛ رو٥:١٢-٢١؛ ١كو١٥:٢١-٢٢، ٤٥-٥٠

المحدود في علاقة مع اللامحدود

١. إش٥٥:٩
٢. مز١٩:١؛ أع١٤:١٥-١٧
٣. د. القس غبريال رزق الله، شرح الرسالة إلى العبرانيين (دار الثقافة المسيحية، ١٩٨٤) ص٢٣
٤. ٢بط١:١٦-٢١؛ ١يو١:١-٤
٥. عب١:١-٣؛ يو١:١؛ يو٦:٤٦؛ مت١١:٢٧
٦. Wayne Grudem, Systematic Theology (ivp, 1994), page 151
٧. هو١١:٩؛ مز١٤٥:٣؛ إش٤٠:١٢-٢٦؛ راجع أيضا أيوب ٣٦-٤١
٨. مز١٠٣:١٥-١٦، ١٠٢:٢٧
٩. Wayne Grudem, Systematic Theology (ivp, 1994), page 163 - راجع مز٣٣:١١، ١٠٢:٢٥-٢٧؛ عب١٣:٨
١٠. لا٢٦:١١-١٣

سيادة الله ومسئولية الإنسان

١. مز٩٣:١-٢، مز ٩٧
٢. رؤ٤:١١؛ راجع مز ٢٤:١؛ إش٥٤:٥؛ دا٤:١٧، ٢٥
٣. إر٣٢:١٧، أي٤٢:٢، ٢كو٦:١٨، مت١٩:٢٦، رؤ١:٨
٤. أي٣٧:١٦، مز١٣٩:١-١٦، أع١٥:١٨، ١يو٣:٢٠
٥. علم اللاهوت النظامي (دار الثقافة المسيحية ١٩٧١) ص٣٨١؛ راجع أيضا عب٦:١٧
٦. علم اللاهوت النظامي (دار الثقافة المسيحية ١٩٧١) ص٣٨٣
٧. أف١:١١
٨. إش٥:٢٠

٩. Louis Berkhof, Systematic Theology (Banner of Truth, 1998), page 77
١٠. Gerry Bridges, Trusting God even when life hurts (NAVPRESS, 1988), page 38
١١. التفسير الحديث للكتاب المقدس، العهد الجديد، الرسالة إلى افسس، فرانسيس فولكس – تعريب القس أنسي عبد الملك (دار الثقافة ١٩٩١) ص٩٢
١٢. أف١:٢٢
١٣. عب١:٣
١٤. مز١٤٧؛ وأيوب٣٧-٣٩؛ ومت٥:٤٥؛ وأع١٤:١٧
١٥. دا ٤:٧
١٦. دا ٢؛ إش٤٤:٢٨، ٤٥:١-٨
١٧. أع٤:٢٧-٢٨؛ يو١٩:١٦؛ تث٢١:٢٣، ٢٧:٢٦
١٨. سيادة الله، جون مري، تعريب الشيخ فايز فضيل (دار الثقافة ١٩٧٧) ص١٨
١٩. سفر العدد ٢٢-٢٤
٢٠. أف١:١١؛ يع ١:١٨؛ في٢:١٣؛ غل١:١٥-١٦؛ ابط ٣:١٧؛ أع١:٧
٢١. Alec Motyer, Tyndale Old Testament Commentaries, Isaiah (ivp, 1999), page 286
٢٢. مز٥:٤؛ إر٤٤:٤؛ يع١:١٣-١٤
٢٣. ١يو١:٥
٢٤. إش٦:٣؛ حب١:١٣
٢٥. تك٢٠:٦؛ مز٧٨:٢٩؛ أع١٤:١٦
٢٦. رو٨:٢٨
٢٧. D.A. Carson, A call to Spiritual Reformation (ivp, 1992), page 158
٢٨. Gerry Bridges, Trusting God even when life hurts (NAVPRESS, 1988), page 37
٢٩. J. I. Packer من اقتباس في المقالة:
http://gregscouch.homestead.com/files/Predestination_6_week.pdf (صحيحة عند الكتابة)
٣٠. مثل أغسطينوس وجوناثان إدواردز من بعده
٣١. أع١٧:٢٤-٣١ ترد كلمة "يَدِين" في بعض الأجزاء بمعنى "يحكم أو يقضي - Judge "، كما في هذه الآيات، وفي أجزاء أخرى بمعنى "يحكم بالإدانة - condemn" كما في يو٨:١٠-١١
٣٢. مت٧:٢٠-٢٧، ٢٥:٣١-٤٦؛ رؤ٢٠:١١-١٥
٣٣. يو٣:٣٦؛ رو٨:١؛ رؤ١١:١٨؛ لو١٩:١٧، ١٩
٣٤. تكوين ٣٧، و٣٩-٥٠
٣٥. يونان ١، ٢؛ راجع أم١٦:٣٣
٣٦. يمكن قراءة السفر كله ولكن أشير بصفة خاصة إلى الأحداث المدونة في الجزء إس٢:٢١-١٠:٧.
٣٧. D.A. Carson, How Long O Lord? (ivp, 1999), page 214
٣٨. J I Packer, Evangelism and the Sovereignty of God, (ivp, 1977), page 25

الألم وسيادة الله

١. إر٨:٢١، ٩:١، ١٥:١٠، ١٨:١٨، ٢٠:١-٣، ٧، ٢٦:٨-١١، ٣٧:١١-٣٨:١٣، ٤٠:١ (اقرأ أيضا سفر مراثي إرميا)
٢. عب١١:٣٢-٤٠
٣. أتوسع لاحقا عن علاقة خطية آدم بنا في فصل "سيادة الله في الخلاص – مطلب العدل"
٤. تك١:٣١، ٣:٦-١٢؛ جا٧:٢٩
٥. ١كو١٥:٥٣
٦. رو٨:٢٠،٢١
٧. راجع فصل "سيادة الله ومسئولية الإنسان – سيادة الله على كل شيء"
٨. ١كو١٠:١٣
٩. راجع سفر أيوب وحكم الله على الأصدقاء في أي٤٢:٧ وما بعد
١٠. لو١٣:١-٥
١١. تك١٨
١٢. ٢صم١٢:١٤
١٣. كتاب صليب المسيح لجون ستوت تعريب نجيب جرجور ص١٥٢، مقتبسا تشارلز كرانفيلد (دار الثقافة، ١٩٩٥)
١٤. عب١٢:٢٣؛ رؤ٢١
١٥. مت٨:١٩-٢٠؛ لو٨:١-٣؛ يو٤:٦، يو ١١؛ لو١٩:٤١.
١٦. يو٧:٥؛ أع١:١٤
١٧. عب٥:٧؛ لو٢٢:٤١-٤٤

١٨. مت٢٦:٥٧-٦٨، ٢٧:١٥-٣١؛ مر١٤:٥٣-٦٥، ١٥:٢-١٠؛ لو٢٢:٦٣-٦٥، ٢٣:١-٢٥؛ يو١٨:١٩-١٩:١٦
١٩. عب٩:١٢
٢٠. مت٤:١-١١؛ كو٢:١٥؛ أف١:٢٠-٢٣
٢١. رو٤:٢٤-٢٥؛ راجع أع١٧:٣١
٢٢. رؤ٢١
٢٣. عب٤:١٤-١٦؛ ١بط٤:١٤
٢٤. Pablo Martinez, A Thorn in the Flesh, (ivp, 2007), page 30
٢٥. خر٢:١-١٠؛ عب١١:٢٣
٢٦. عد٢٠:١-١٣
٢٧. أع٧:٥٥-٦٠
٢٨. راجع أيضا ٢كو٤:٨-٩، ١١:٢٣-٣٣
٢٩. أيوب ٣٨-٤١
٣٠. D.A. Carson, How Long O Lord? (ivp, 1999), page 174
٣١. مز١٠٣:١٣-١٤
٣٢. إش٤٩:١٥
٣٣. رو٢:٤
٣٤. ٢بط٣:١٤-١٥
٣٥. ١تيمو٦:٣-١١؛ مت٦:١٩-٢٠، ٨:٢٠
٣٦. راجع يو١٠:٣٧-٣٨، ١١:٣٩-٤٤، ٢٠:٣٠-٣١
٣٧. راجع أع٤:٣٠، ٥:١٢؛ عب٢:٣-٤
٣٨. راجع يو١٢:٢٠-٢٤؛ أف٢:١١-١٨
٣٩. C S Lewis, The problem of Pain (Collins / Fount Paperbacks, 1988), page 74
٤٠. راجع رو٥:١-٥
٤١. ١بط٤:١٥-١٩
٤٢. دا ٣:١٦-١٨
٤٣. ١بط٤:١٤، رو٥:٣-٥
٤٤. ٢كو١:٣-٧

الصلاة وسيادة الله

١. يو١٧:٣
٢. ١بط٥:٧
٣. دانيال ٩؛ إر٢٥:١١، ٢٩:١٠
٤. مقتبسة عن أليك موتير في John R.W. Stott, The Message of The Sermon of The Mount (IVP,1978) page188
٥. راجع إش٥٩:١-٢
٦. يو٤:٢٣، حز٢٢:٣٠
٧. ١تس٥:١٧، كو٤:٢
٨. رو١٢:١
٩. إش٥٧:١٥؛ ١بط٥:٥
١٠. ٢صم١٢
١١. رو١٥:٣٠-٣١

الإرشاد وسيادة الله

١. إش٤٠:١١؛ حز٣٤:١٥-١٦؛ يو١٠:١١
٢. رو٨:٢٨، ٢٩
٣. مز١٤٣:١٠؛ أف٦:٦؛ أف ٥:١٧؛ رو١٢:٢
٤. ٢تيمو٣:١٦
٥. تفسير أصول الإيمان الوستمنستري، ج. أ. وليمسن – تعريب الشيخ فايز فضيل (دار الثقافة المسيحية، ١٩٧٧) ص٥؛ راجع إش٤٣:٧؛ ١كو١٠:٣١؛ رؤ٤:١١؛ مز٣٧:٤، ٧٣:٢٥-٢٦
٦. أف١:٤؛ ١بط١:١٥-١٦
٧. يو٨:٢٩
٨. ١يو٢:٦؛ ١بط٢:٢١
٩. في٢:٥-١١

١٠. مر٨:٣٤
١١. ٢بط١:٣
١٢. كو١:٩، ١٠
١٣. حز٣٦:٢٦
١٤. تث١٨:٩-١٤؛ كو٢:٨
١٥. خر١٣:٢١
١٦. يقال أنهما كانا حجرين صغيرين يحملهما رئيس الكهنة في صدرته الكهنوتية – صدرة القضاء – ليستخدمهما في معرفة إرادة الله - خر٢٨:٣٠
١٧. قض٦:٣٥-٤٠؛ عدد٢٦:٥٥
١٨. أم١٢:١٥، ١٥:٢٢
١٩. ٢كو٦:١٤ - وإن كان تطبيق الآية يشمل أكثر من موضوع الزواج
٢٠. تث٧:٢-٣

سيادة الله في الخلاص

١. تك٦:٩
٢. رو٢:٤-١٠؛ رؤ١٤:١٩-٢٠
٣. رو٧:١٨، ٢٤، ٨:٥-٩؛ ١كو٢:١٤
٤. رو٢:١-٣:٨
٥. رو٦:١٧-٢٢
٦. ١كو٢:١٤
٧. William Hendriksen, New Testament Commentary – John (Banner of Truth, 1987), Volume 1, pages 238-239
٨. أف١:٣؛ عب٧:٢٢، ٩:١٥
٩. يو١:١٦، ٦:١٤
١٠. Louis Berkhof, Systematic Theology (Banner of Truth, 1998), page 416
١١. رو٨:٢٨-٣٠؛ تيمو١:٨-٩؛ في٣:١٤؛ عب٣:١؛ رو٨:٢٨؛ غل١:١٥؛ ؛ ١كو١:٩ (راجع ١كو١:٢٤-٣١)
١٢. John Murray, Collected Writings of John Murray, 2: Systematic Theology (Banner of Truth, 1977), Volume 2, page 161
١٣. تستخدم كلمة "التجديد" - regeneration - في علم اللاهوت بمعنى الميلاد الثاني. يقول بيركوف "إن الكلمة regeneration (palingenesia) وردت مرتين في الكتاب المقدس مت١٩:٢٨؛ تي٣:٥، وفي الشاهد الأخير فقط تشير إلى بداية حياة جديدة في الشخص المسيحي"*. ترجمت الكلمة (palingenesia) في اللغة العربية بالميلاد الثاني في تي٣:٥ والمرة الأخرى بالتجديد في مت١٩:٢٨. قد يسبب هذا لنا تشويشا حيث أن كلمة "تجديد" تذكر في الكتاب العربي - في سياق تطبيق عمل الخلاص - بمعنى التغيير الروحي المستمر (التقديس) ويقابله في الإنجليزية renewal كما في رو١٢:٢ و٢كو٤:١٦، وقد وردت كلمة "تجديد" renewal في تي٣:٥ بعد ذكر "غسل الميلاد الثاني" regeneration. أيضا يستخدم البعض كلمة "التجديد" للإشارة إلى الخلاص بجملته.

*Louis Berkhof, Systematic Theology (Banner of Truth, 1998), page 465

١٤. يو١:١٢؛ ٣:٣، ٨؛ يع١:١٨؛ ٢كو٥:١٧؛ أف٢:٥
١٥. حز٣٦:٢٦، ٢كو٤:٦؛ أف٢:٨
١٦. R C Sproul, Chosen by God (Tyndale House Publishers Inc. 1986), page 123
١٧. ٢تيمو٢:٢٥؛ أف٢:٨
١٨. رو١٠:١٧
١٩. ٢كو٧:٩-١٠
٢٠. أف٣:١٧؛ غل٢:٢٠
٢١. رو٤:٢٤-٢٥، ٥:١٨-١٩؛ ٢كو٥:١٩
٢٢. رو٥:١-٢
٢٣. رو٨:١، ٤
٢٤. Louis Berkhof, Systematic Theology (Banner of Truth, 1998), page 516
٢٥. غل٤:٦؛ رو٨:١٥
٢٦. عب٢:١١
٢٧. Louis Berkhof, Systematic Theology (Banner of Truth, 1998), page 532
٢٨. ١كو١:٢؛ ٢كو١:١؛ أف١:١ ..

٢٩. التفسير الحديث للكتاب المقدس، العهد الجديد، الرسالة إلى افسس، فرانسيس فولكس – تعريب القس أنسي عبد الملك (دار الثقافة ١٩٩١) ص٣٧
٣٠. ١يو١:٩، ١:٢
٣١. ١يو٢:١٦؛ ١بط٢:١١، ٥:٨
٣٢. رو٧:١٩؛ أف٥:١٠-١٧؛ غل٦:٧-٨
٣٣. ٢كو٧:١؛ ١تس٥:٢٣؛ رو٨:١١، ٢٣
٣٤. رؤ٢١:٢٧
٣٥. ورود الأفعال في رو٨:٣٠ في الماضي هو من سبيل تأكيد حدوثها جميعا، وحتى التمجيد الذي هو حدث مستقبلي بالنسبة للمؤمن يذكر كفعل ماض: "هؤلاء مجدهم أيضا"، وذلك لأن حدوثه أكيد، ويطلق عليه فعل ماض تنبؤي
٣٦. أف٢:٦؛ ٢كو٣:١٨
٣٧. F. F. Bruce, Tyndale New Testament Commentaries, Romans, (ivp, 1974), page 178
٣٨. ١بط١:٥
٣٩. راجع مت٢٢:١٤؛ رو١١:٥؛ أف١:٤
٤٠. هو١٤:٤؛ تث٧:٦-٨
٤١. Louis Berkhof, Systematic Theology (Banner of Truth, 1998), pages 112, 114
٤٢. F. F. Bruce, Tyndale New Testament Commentaries, Romans, (ivp, 1974), pages 189-190
٤٣. د. القس غبريال رزق الله، شرح الرسالة إلى العبرانيين (دار الثقافة المسيحية، ١٩٨٤) ص٢٥٣
٤٤. R C Sproul, Chosen by God (Tyndale House Publishers Inc. 1986), page 177
٤٥. د. القس غبريال رزق الله، شرح الرسالة إلى العبرانيين (دار الثقافة المسيحية، ١٩٨٤) ص٣٢١
٤٦. ١كو١٥:٢١-٢٢، ٤٥-٤٩
٤٧. R C Sproul, Chosen by God (Tyndale House Publishers Inc., 1986), pages 92-95
٤٨. R C Sproul, Chosen by God (Tyndale House Publishers Inc., 1986), page 98
٤٩. William Hendriksen, New Testament Commentary – Romans (Banner of Truth, 1980), page 325
٥٠. كتاب صليب المسيح لجون ستوت تعريب نجيب جرجور ص١٠٥ (دار الثقافة، ١٩٩٥)
٥١. مر١٦:١٥، راجع مت٢٨:١٨-٢٠
٥٢. ١بط٣:١٥
٥٣. راجع عب٢:١٣
٥٤. John Stott, The Eessential JOHN STOTT – The Cross of Christ (ivp 1999), page 90
٥٥. يه٢٤؛ ١بط٥:١٠
٥٦. عا٣:٢؛ هو١٣:٥؛ ١كو٨:٣
٥٧. R C Sproul, Chosen by God (Tyndale House Publishers Inc., 1986), pages 134, 135
٥٨. علم اللاهوت النظامي (دار الثقافة المسيحية ١٩٧١) ص٣٨٤
٥٩. أف١:٣-١٤، ٢تس٢:١٣
٦٠. أف١:١٤؛ راجع رو٨:٢٣
٦١. http://www.faithalone.org/journal/2006i/2_keathley.pdf (صحيحة عند الكتابة)
٦٢. يطلق علماء اللاهوت تعبير "الخطية الأصلية" على ما نتج عن السقوط، ويعرّفونها بأنها ليست هي الخطية الأولى – الخطية التي ارتكبها آدم وحواء – ولا هي خطية معينة، لكنها تشير إلى نتائج أول خطية فعلها آدم بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عنا، من ذنب حُسب لنا، وفساد أخلاقي عمّنا.
٦٣. J I Packer, Evangelism and the Sovereignty of God, (ivp, 1977), pages 12-15

خاتمة

١. J I Packer, Evangelism and the Sovereignty of God, (ivp, 1977), page 21
٢. Arthur Pink (1886-1952), The Sovereignty of God – Conclusion, p767 Ibook, http://www.chapellibrary.org/files/archive/pdf-english/sogo.pdf (صحيحة عند الكتابة)